

جمال الدين فالح الكيلاني

الشيخ عبدالقادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة

(١٠٧٧-١١٦٦م - ٤٧٠-٥٦١هـ)

تقديم

المؤرخ عماد عبدالسلام رؤوف

مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي

دكتور/ جمال الدين فالح الكيلاني

الإمام عبد القادر الكيلاني

رؤية تاريخية معاصرة

مراجعة وتقديم

الأستاذ الدكتور/ عماد عبد السلام رؤوف

تنسيق وترتيب

الأستاذ: نصر الدين أدير

جامعة تلمسان الجزائر

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر الكتاب أو
أي جزء منه بأي شكل من
الأشكال دون الحصول على إذن
خطي مسبق من المؤلف

شكر خاص: لكل الأياد البيضاء التي ساهمت في خدمة تراث البازن الأشهب

الطبعة الثانية : دار الفكر 2014 Pittsburgh, PA 15213 USA بيتسبورغ،
ج.أ. 15213 الولايات المتحدة الأمريكية -

تلفون: 441 5226 (412)

فاكس: 417 0836 (775)

الطبعة الأولى : مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي | بغداد
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 126 لسنة 2011

الاهداء

إلى والدي ... حبا وعرفانا

إلى الذين ابتلوا فصبروا وثبتوا فما وهنوا وما استكانوا

إلى كل عراقي شريف غيور على وطنه

إلى التي علمتني الصبر لاجل النجاح

زوجتي ليلى علي يوسف الكيلاني

إلى اولادي ... عمر ايمن رامي ... دارين

إلى الاخت الفاضلة لطيفة ... خالتهم

إلى صالحى امة محمد صلى الله عليه واله وسلم

جمال الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَرَجًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَانْزِلْ عَلَيْنَا نَارَهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَحْيِمَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَحْيِمَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَلِّخْنِي بِهِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَحْيِمَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِن مَأَلَتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَخْفَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيقُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَحْيِمَ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاقِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا لُصُغِيَانًا وَكَفَرَّا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْأَلْهُ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

لله غناه الدنيا سوق بعد ساعة لا يبقى فيها أحد ، عند مجيء الليل يذهب
أهلها منه ، اجتنبوا أنكم لا تبيعون ولا تشترون ففي غناه السوق إلا ما ينفعكم
غنا الله

لله اعمل الخير لمن يستحق ومن لا يستحق والأجر على الله

لله من رضا بالقضاء والقدر استراح ومن لم يرض به زاد هممه وتعبه ولا يحصل من
الدنيا
إلا ما قسم له الله

لله أوك لو أن الدنيا بيتي فأطعمها للجوع لله

الإمام عبد القادر الجيلاني

مقامة الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف

بسم الله الرحمن الرحيم

ليست مهمة الكتابة في سيرة فذة متعددة الجوانب كسيرة الإمام عبد القادر الجيلي -قدس الله روحه _ ميسورة، ممهدة مهما أوتي المتصدي له من اسباب القدرة والمكنة، فهذا الانسان الكبير استطاع بخلق وعزم نادرين أن يتحدى عصرا بكامله، يمج بانواع من التناقضات الاجتماعية، وضروب من الاضطراب ات النفسية والسياسية والاقتصادية، فقدم لمريديه وتلامذته البديل الافضل لمتناقضات ذلك العصر ومشاكله العديدة، ودل ابناء عصره، والعصور التالية، على طريق السلامة والنجاة من ادران الواقع واشواكه الخطرة.

ولم تكن عظمة الإمام تكمن في مبادئ مثالية مطلقة كان يدعو اليها فحسب، وانما في فهمه العميق لمجتمع، وللمجتمع الانساني بوجه عام، وادراكه جوهر المشاكل الاساسية الذي يعاني منها ذلك المجتمع، فهو على رغم زهده وقناعته الكاملة، لم يقف موقف الضد من الحياة، بما تستوجبه من سعي في سبيل الرزق، وسيطرة على اسباب الدنيا، بل انه اكد على ضرورة العمل من اجل ان يضع الانسان (الدنيا بين يديه) ولكن مع ملاحظة الا تنتقل إلى قلبه فتفسد ذاك القلب، وتقطع اسباب اتصاله بالله سبحانه وتعالى ، وهذا لعمرى فهم للاسلام سليم، وادراك عميق لجوهره ومعانيه.

لقد توضح لدى الناس، منذ ان غادرهم الإمام ملتحقا بالرفيق الاعلى، ضرورة تسجيل معالم سيرته الطيبة، لتكون نبراسا فتفيد منها الاجيال، وقدوة يتأسى بها السالكون في طرق الحياة، فانبرى عدد غير قليل من المؤلفين والمصنفين إلى جمع اخباره، والتقاط شوارد مواقفه واحواله، ليؤلف صنيعهم كتباً ورسائل مهمة تناقلها الناس وكانت موضع احترامهم وتقديرهم، بل وجدنا في كل عصر من ينبري إلى اعادة كتابة سيرته وجعلها موضوعا يفيد منه اهل ذلك العصر.

وفي العقود الاخيرة من السنين اصبحت سيرة الإمام محورا لعدد من الرسائل الجامعية تناولها اصحابها فيها حياته الثرة، بما تضمنه حياته الثرة، بما تضمنه من دين وفكر وتعليم وادب. والكتاب الذي بين ايدينا يقف شاهدا اخر على اعجاب الجيل من ابنائنا بهذه السيرة الوضاعة، واحساسهم باهمية تعاليم صاحبها في هذا العصر ايضا.

والسيد جمال الدين فالح الكيلاني، وهو الذي ينتسب إلى الإمام عبد القادر دما، فضلا عن انتمائه اليه فكرا وعملا، عبر عن قوة هذا الاعجاب وتدفق ذلك الاحساس، بتأليفه كتابه هذا ، وهو يرجو، كمال ارجو، ان ينال به رضا ربه ، وثوابه، فجزاه الله خير الجزاء.

الاستاذ الدكتور: عماد عبد السلام رؤوف

استاذ التاريخ بجامعة بغداد _ كلية التربية _ ابن رشد

تمهيد:

إن الاهتمام بسيرة علم من الأعلام لداع كفيل للتجديد في الطرح في كل ما اعتراه من جوانب حياته سواء من حيث التفصيل في حيثياتها أو الفصل في جلب المآخذ التاريخية على ما ورد و إيراد جملة من الشواهد بالاعتبار للترجيح على وجه يفضي بالناظر إلى الاذعان فيما سيق .

ولقد نهزنتني جملة من البواعث إلى النظر في سيرة الإمام عبد القادر الجيلي، ما فتأت منذ زمن طويل أتتبع كل ما كتب عن الإمام عبد القادر الجيلي كمطبوعات قديمة أو ما أعيد نشره حديثاً من دراسات ورسائل جامعية وقد دفعني ذلك إلى تقديم محاولة لعرض واف ورؤية معاصرة لسيرة الإمام الجيلي بكل أبعادها دينيا وسياسيا وثقافيا واجتماعيا وعن دوره في صناعة التاريخ في عصره مما كان له صدى خيب في العصور التي تلت- في نفوس المسلمين - من مملكة ماليزيا إلى مملكة المغرب وفي غيرها من بلدان المعمورة.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى قسمين: الأول وفيه عرض لسيرة الإمام الجيلي بكل تفاصيلها الرئيسية. أما الثاني فكان مختارات لنصوص قادية في تربية وتهذيب النفس .

أرجو أن أكون قد أسهمت في تقديم مادة مفيدة وأمل أن تثير هذه الدراسة الطلاب والباحثين على سواء وان تشجع على مواصلة البحث فالموضوع مهم و متشعب يتطلب المزيد بعد المزيد من الجهود ، وأتمنى أن تسد هذه الدراسة نقصا وثغرة في المكتبة العربية الإسلامية.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

جمال الدين فالح الكيلاني

بغداد

مع الإمام عبد القادر الجيلاني

أولاً : اسمه ونسبه ورحلاته في خلب العلم وشيوخه :

1 - اسمه : هو أبو صالح عبد القادر بن موسى الثالث بن عبدالله الجيلاني بن يحيى الزاهد بن محمد المديني بن داود الاميرين موسي الثاني بن عبد الله الصالح بن موسى الجون بن عبد الله الملحض، ويلقب أيضاً بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي خالب - رضي الله عنه (1) .
وفي هذا النسب الطاهر يقول :

أنا الجيلاني محيي الدين أسـمي	وأعلامي رؤوس الجبال
وعبد القادر المشهور أسـمي	وجدي صاحب العين الكمـال
نبي هاشمي مكّي حجـاني	هو جدي به نلت الموالـي (2)

2 - كنيته ولقبه : تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته أبو محمد ونسبته الجيلاني (3) . وأما الألقاب التي أخلقت عليه فهي كثيرة توحى بدلالات متعددة وهي تشبه في عصرنا الإجازات العلمية والأوسمة التي تمنح للعلماء والعظماء إقراراً بفضلهم وبياناً لعلو منزلتهم، فمن الألقاب التي أخلقت عليه لقب الإمام، أخلقه عليه السمعاني فقال إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. نقله عنه ابن رجب (4) . ومنها لقب شيخ الإسلام أخلقه عليه الذهبي (5) .

3 - ولادته : ولد الإمام عبد القادر في بلدة الجيل وهي قرية عراقية تابعة لمدينة المدائن قرب بغداد ، وي، والنسبة إليها جيلاني و اما جيلاني كيلاني فهي نسبة متأخرة والاصح الجيلاني لا غيرها رغم اشتهار غيرها في حقب متأخرة ، وذلك سنة سبعين وأربعمئة للهجرة (6) .

¹ أعلام سير النبلاء (439/20) الإمام عبد القادر الجيلاني ص 27.

² الذيل على خبقات الحنابلة لابن رجب (290/1) .

³ المصدر نفسه ص 28.

⁴ الإمام عبد القادر الجيلاني للحقطناني ص 28.

⁵ سير أعلام النبلاء (439/20) .

⁶ جغرافية الباز الاشهب 43.

4- خلبه للعلم ورحلاته : رحل الإمام عبد القادر الجيلاني من بلده ومسقط رأسه جيلان العراق إلى بغداد حيث دخلها سنة 488هـ وعمره آنذاك ثمانين سنة والتقى في بغداد بمجموعة من مشاهير العلماء الذين نهل من مناهلهم واستفاد من معارفهم حتى أصبح عالماً في مختلف العلوم إذ يصفه الذهبي في ترجمته له بأنه : الإمام الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ومحي الدين (7) .

كما يصفه ابن رجب في ذيل خبقات الحنابلة بأنه : شيخ العصر و قدوة العارفين وسلطان المشايخ صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف (8) ، وقد أمضى في خلب العلم اثنين وثلاثين سنة درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للتعليم والوعظ سنة 520هـ (9)

كان خلال فترة خلبه للعلم رغم خولها يعاني من ضيق العيش ويكابد مرارة الحرمان إلا أن ذلك لم يفت في عزيمته ولم يعوقه عن المثابرة في خلب العلم (10) ، وقد نقل ابن رجب ما يصور لنا تلك المعاناة من كلام الإمام نفسه حيث يقول : وكنت أقتات الخرنوب (11) ، الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد أن بقيت أياماً لم أكل خعاماً بل كنت أنتبج المنبوبات أخعمها يوماً من شدة الجوع لعلني أجد ورق الخس أو البقل ، أو غير ذلك ، فاتقوت به فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه ، وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فاتركه حياءً ، فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوزاً إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك فدخلت إليه ووقعت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت ، إذ دخل شاب ومعه خبز صاف وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي فقلت : ما هذا وقلت ما ههنا إلا الله أو ما قضاه عليّ من الموت إذا التفت إليّ الشاب فرأني فقال : بسم الله يا أخي فابيت فاقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها فاقسم أيضاً فاجبته فاكلت متقاصراً ، فاخذ يسألني ما شغلك ومن أين أنت وبمن تُعرف فقلت : أنا متفقه من جيلان فقال : وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر فقلت : أنا هو فاضطرب وتغير وجهه وقال : والله لقد وصلت إلى بغداد

⁷ سير أعلان النبلاء (439/20).

⁸ ذيل خبقة الحنابلة لابن رجب (290/1).

⁹ المصدر نفسه (291/1).

¹⁰ الإمام عبد القادر الجيلاني ص 32.

¹¹ الخرنوب : شجر بري ذو شوك ذو حمل كالتفاح لكنه بشع.

ومعي بقيت نفقة لي فسالت عنك فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلاّ مما كان لك معي وقد حلّت لي الميئة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل خيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي فقلت له : وما ذاك فقال : أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا للاضطراب فانا معتذر إليك فسكته وخيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف (12).

5- شيوخه : ونحدث عن بعضهم :

أ- أبو سعيد : المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة تفرقه بالقاضي أبي يعلي وبنى مدرسة باب الأوج درس بها بعده تلميذه الإمام عبد القادر الجيلي بعد أن خورها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة 513هـ.

ب- أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي : الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف ولد سنة 431هـ وكان يتوقد ذكاءً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير (13). وقد نقل عنه الذهبي قوله : عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة وقصر محبتي على العلم وما خلطت لعباً قط ولا عاشرت إلاّ أمثالي من خلبة العلم وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاخر والفكر والحفظ وحدة النظر بالعين لرؤية الأهله الخفية إلاّ أن القوة ضعيفة (14). قال ابن الجوزي : كان ابن عقيل ديناً حافظاً للحدود توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه وكان كريماً ينفق ما يجد وما خلف سوى كتبه وثياب بدنه توفي سنة 513هـ (15) ، وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل : حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل مللتقطه مائة دينار فرددته عليه فقال : خذ الدنانير فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد فاويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع فقدموني فصليت بهم فاحموني وكان أول رمضان فقالوا : إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر ففعلت فقالوا : لإمامنا بنت فتزوجت بها وأقمت معها سنة وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في

¹² الذيل عن خبقات الحنابلة لابن رجب (298/1).

¹³ سير أعلام النبلاء (428/19).

¹⁴ الإمام عبد القادر الجيلي ص 38.

¹⁵ سير أعلام النبلاء (446/19).

نفاسها فتاملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر فقلت لها : لهذا قصة، وحكيت لها، فبكت وقالت : أنت هو والله لقد كان أبي يبكي : ويقول : اللهم أرزق ابنتي مثل الذي رد العقد عليّ وقد استجاب الله منه ثم ماتت فاخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد (16).

ج- حماد بن مسلم الدباس : كان الإمام عبد القادر من تلامذته (17) وقد أثنى ابن تيمية على الجيلي وشيخه حماد حيث قال : فامر الإمام عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم : بأنه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق (18).

ح- أبو محمد جعفر بن أحمد البغدادي السراج : الإمام البارع المحدث المسند بقية المشايخ كتب بخطه الكثير وصدّف الكتب كان صدوقاً ألف في فنون شتى وكان ممن يفتخر برؤيته وروايته لديانته ودرايته ثقة مامون عالم صالح ولد سنة 417 هـ وتوفي سنة 500 هـ (19).

س- أبو عبد الله يحيى بن الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي : كان الحافظ عبد الله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته ولد سنة 453 هـ وتوفي سنة 531 هـ (20).

ش- وهنا نشير إلى تلمذته على يد الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، فقد أثبتت الدراسات الأكاديمية والبحث التاريخي ، تلمذة الإمام الجيلي على يد الإمام الغزالي ، فقد التقيا ببغداد ، لفترة وجيزة ، وهناك تطابق في منجيهما في الأحياء والغنية ، وهؤلاء من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته ، وأول كلامه ((غواص الفكر يغوص في بحر القلب على درر المعارف فيستخرجها إلى ساحل الصدر فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان فتشتري بنفائس أثمان حسن الطاعة في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)) وأنشد قائلاً :

على مثل ليلي يقتل امرء نفسه ويحلو له مسر الأمانى ويعذب (21).

¹⁶ المصدر نفسه (447/19).

¹⁷ المصدر نفسه (449/19).

¹⁸ فتاوى ابن تيمية (455/10).

¹⁹ سير أعلام النبلاء (228/19).

²⁰ المصدر نفسه (6/20).

²¹ الإمام عبد القادر الجيلي للقحطاني ص 43.

6- مكانته العلمية : ويكفي في معرفة مكانة الإمام عبد القادر الجيلي العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بانه من الشيوخ الكبار (22). ثم شهد له بانه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشرعية الغراء فيقول : والإمام عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر من أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية (23) .

وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي، قال : سمعت شيخنا موفق الدين بن قدامة يقول : دخلنا بغداد سنة 561هـ فإذا الإمام الإمام محي الدين عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وافتاءً وكان يكفي خالب العلم عن قصده غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء (24) .

وكان يبذل أوقاتاً كثيرة في سبيل تعليم الناس الذين كانوا يحرصون على حضور دروسه على اختلاف مستوياتهم يقول ابنه عبد الوهاب : كان والدي رحمه الله يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس أربعون سنة أولها 521هـ وآخرها 561هـ ومدة تصدرة للتدريس والفتوى بمدرسته 33 سنة أولها 528هـ وآخرها 561هـ وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمئة محبرة (25).

وأما ذكاؤه وفطنته وقدرته على حل المعضلات من الحوادث والمسائل فيشهد لذلك ما ذكره ابنه عبد الرزاق بقوله : جاءت فتوى من العجم إلى بغداد فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شافٍ وصورتها : ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لأبَد له أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فيما يفعل من العبادات ؟ قال : فاتى بها إلى والدي فكتب عليها على الفور : ياتي مكة ويخلي له المظاف ويطوف أسبوعاً - أي سبعاً - وحده وتنحل يمينه قال : فمابات المستفتي ببغداد (26) .

²² فتاوي ابن تيمية (463/10).

²³ المصدر نفسه (488/10).

²⁴ الذيل على خبقات الحنابلة لابن رجب (294/1).

²⁵ بهجة الأسرار للشطنوفي ص 95.

²⁶ الذيل على خبقات الحنابلة (294/1).

وعندما ترجم له ابن رجب في الذيل على خبقات الحنابلة قال : شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محي الدين أبو محمد صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة (27).

ويقول ابن الجوزي عنه : تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير ويشير هو إلى أنه واصل بالعلم إلى أعلى المراتب :

درست العلم حتى صرت قطباً
وثلث السعد من مولى الموالى
كساني خلعه بطراز عزم
وتوجني بتيجان الكمال (28).

- بدء الدعوة وأسلوبه في ذلك : يعيد المؤرخون ظهور عبد القادر إلى عام 521هـ/1127م (29) . والواقع أن عبد القادر بدأ دعوته قبل ذلك، فهو يذكر أنه سبق جلوسه للوعظ فترة التهيئة النفسي وتشجيع الأصحاب والمحبين وأنه بدأ مجلسه بالرجلين والثلاثة ثم تزاحم الناس حتى صار مجلسه يضم سبعين ألفاً (30) ، ثم تزايد الإقبال حتى ضاقت المدرسة فخرج إلى سور بغداد بجانب رباخه، وصار الناس يجيئون إليه ويتوب عنده الخلق الكثير (31) ، ومُنذ ذلك الوقت بدأ عبد القادر دعوته والتي تميزت بأمور منها :

1 - اعتماد التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة : كان الإمام أبو سعيد المخرمي قد أسس مدرسة صغيرة في باب الأزج (حي من أحياء بغداد) فلما توفي ألت إلى تلميذه عبد القادر الجيلي فعمد إلى توسيعها وإعادة بنائها، كما أضيف إليها عدد من المنازل والأمكنة التي حولها ولقد بذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم (32) . وروى لنا المؤرخون - أثناء ذلك - صوراً من البذل والتضحية يكشف عن مدى تعلق الأتباع بالشيخ، من ذلك امرأة فقيرة قررت المساهمة في عمارة المدرسة فلم تجد شيئاً. وكان زوجها من العمال فجاءت إلى الإمام عبد القادر

²⁷ المصدر نفسه (290/1).

²⁸ المصدر نفسه (291/1) الإمام عبد القادر ص 69.

²⁹ نشأة القادرية د. ماجد الكيلاني ص 79.

³⁰ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

³¹ المنتظم (219/10).

³² المنتظم (219/10) خبقات الحنابلة (291/1).

تصحب زوجها وقالت : هذا زوجي ولي عليه من المهر قدر عشرين دينار ذهباً ولقد وهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، ثم سلمت الإمام خط الاتفاق الذي وقعته مع زوجها، فكان الإمام يشغله في المدرسة يوماً بلا أجر يوماً باجرة، لعلمه أنه فقير لا يملك شيئاً، فلما عمل بخمسة دنانير أخرج له الخط ودفعه له، وقال له : أنت في حل من الباقي⁽³³⁾. ولقد اكتمل بناء المدرسة عام 133/528م، وصارت منسوبة إلى الإمام عبد القادر حيث جعلها مركزاً لنشاطات عديدة منها التدريس والافتاء والوعظ⁽³⁴⁾ وأما تمويل المدرسة فقد أوقف الأتباع والأغنياء عليها أوقافاً دائمة للصرف على الأساتذة والطلاب⁽³⁵⁾. ومنه من أوقف الكتب لمكتبتها⁽³⁶⁾، وكان لها خدم مهمتهم العناية بأمورها وخدمة الأساتذة والطلاب⁽³⁷⁾.

وكرّس الإمام عبد القادر معظم أوقاته للمدرسة فكان لا يخرج منها إلا يوم الجمعة إلى المسجد أو الرباط ولقد قام أسلوبه في التدريس والتربية على مراعاة استعدادات كل خالب والصبر عليه، وكان يعتز بمهنة التدريس هذه ويعتبرها " أشرف منقبة وأجل مرتبة. وأن العالم محبوب من أهل الأرض، وأنه سيميّز يوم القيامة بمن سواه ويعطي درجات أسمى من غيره⁽³⁸⁾. لقد أمضى الإمام عبد القادر في التدريس ثلاثاً وثلاثين سنة بدأها عام 133/528م حتى وفاته عام 561/1116م⁽³⁹⁾، ولا تزال المدرسة باقية إلى اليوم⁽⁴⁰⁾ ولها مكتبة فيها مخطوطات شهيرة وتعرف باسم المكتبة القادرية⁽⁴¹⁾، والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي خبئه عبد القادر، يكشف عن تاثير كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الإمام عبد القادر منهاجاً متكاملأ يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف

³³ خبقات الحنابلة (291/1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

³⁴ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

³⁵ شذرات الذهب نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

³⁶ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 186.

³⁷ المصدر نفسه ص 187.

³⁸ سر الأسرار، لعبد القادر الجيلي نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 188.

³⁹ قلائد الجواهر ص 32 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 188.

⁴⁰ مدارس بغداد في العصر العباسي ص 154.

⁴¹ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 188.

باسم الإمام عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية وقيم الطلبة والمريدون⁽⁴²⁾ ، وإليك تفاصيل البرنامج المذكور.

أ - الإعداد الديني والثقافي : يتحدد هذا الإعداد بحسب عمر الطالب أو المريد وحاله ، فإذا كان ممن يقصدون تصحيح العبادة كالكبار من الناس والعامّة درسه الإمام عقيدة أهل السنة وفقه العبادات اللذين تضمنهما كتابه " الغنية لطالبي خريق الحق " الذي صنفه على خريقة كتاب " إحياء علوم الدين للغزالي " واقتفى الموضوعات نفسها التي عالجها الغزالي في كتابه المذكور. ويضاف إلى ذلك دراسات تستهدف إعداد النّابة من الدارسين ليكون داعية بين الناس مثل أهيمّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووسائله وأساليبه، ودراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة والفرق السائدة⁽⁴³⁾ بالإضافة إلى التدريب على الوعظ والخطابة والتدريس⁽⁴⁴⁾ وأما إذا كان الدارس خالِباً من خلبة المدرسة، فإنه يتلقى إعداداً أوسع يتضمن حوالي ثلاثة عشر علماً تشمل على التفسير والحديث والفقه الحنبلي، والخلاف والأصول والنحو والقراءات بالإضافة إلى ما سبق ذكره، على أنه كان يستبعد علم الكلام والفلسفة وينهى عن مطالعة كتبها السائدة⁽⁴⁵⁾ ، وكان الجمع بين الفقه والتصوف السني شرحاً أساسياً للمريدين، فقد روى ابن تيمية - في مجلدي التصوف وعلم السلوك - من الفتاوى كيفية تقيد منهج عبد القادر بالأصول الواردة في القرآن الكريم والسنة والتزامه تزكية النفس في منهاجه التربوي⁽⁴⁶⁾ .

ب- الإعداد الروحي : يستهدف الإعداد الروحي تربية إرادة المتعلم أو المريد حتى يصبح صفاء بلا كدر ويصير مع النبي صلى الله عليه وسلم في عقله ومشاعره ومعناه ويكون دليل قدوته⁽⁴⁷⁾ . ولكي يصل المتعلم إلى ذلك، عليه أن يلتزم السنة في كل شيء وأن يتصف بصفات أساسها المجاهدة والتحلي بأعمال أولي العزم وقد بينت تلك الصفات عند حديثي عن موقفه من العلم والعمل. وكان يرافق الممارسات العملية التي دعا إليها الإمام دراسات نظرية حول مقصود المجاهدات والعبادات التي يمارسها المريد في حياته اليومية وبذلك أقام التزكية الروحية على قاعدة فكرية

⁴² هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 189.

⁴³ الغنية (1/71 - 84).

⁴⁴ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 435.

⁴⁵ قلائد الجواهر ص 3.

⁴⁶ الفتاوى ، علم السلوك ج 10 ، كتاب التصوف ج 11.

⁴⁷ الفتح الرباني ص 206 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 190.

تستهدف إقناع المريـد بما يمارسه فكان هناك دراسات حوال الأوراد والأذكار⁽⁴⁸⁾ ، ودراسات عن التقوى والورع، ودراسات عن أحوال النفس ومداخل الشيطان ودراسات عن الأخلاق التي يجب أن يكون المريـد عليها ويحتوي كتاباً (الغنية) " وفتوح الغيب " فصلاً مطولة مما اعتمده الإمام عبد القادر في ذلك⁽⁴⁹⁾ .

ج- الإعداد الاجتماعي : ويستهدف هذا الإعداد توثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات والقضاء على أسباب التفكك الاجتماعي الذي ساد المجتمع في عصره والميدان الذي كان يتم به هذا الإعداد هو المدرسة القادرية نفسها حيث يتدرب المريـد على ما يجب أن يتحلى به الفرد خارج المدرسة في المجتمع الكبير. ويشمل هذا الإعداد تنظيم حياة المريـد الخاصة؛ وعلاقات المريـدين بالقيادة المتمثلة بالشيخ؛ وعلاقاتهم ببعضهم البعض؛ وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط، أما عن حياة المريـد الخاصة، فقد حدد المنهاج القادري آداباً تنظم دقائق السلوك اليومي للفرد كاللباس والنوم والدخول والخروج والزينة والجلوس والسير والطعام والشراب، ومعاملة الزوجة والأبناء والوالدين، والإقامة والسفر، وفي جميع هذه الآداب يسترشد بما ورد في السنة النبوية.

كذلك حرص الإمام عبد القادر أن يبتعد بالمريـد عن كل ما ينزل من مكانته الاجتماعية كالبطالة والعيش على هبات المحسنين، وسؤال الناس، وحثه على الاشتغال بالكسب والتجارة مع مراعاة قواعد الأخلاق والأمانة⁽⁵⁰⁾ . وأما عن تنظيم علاقة المريـد والطالب بالشيخ، فقد أوجب عبد القادر على المريـد خـاعة الإمام في الظاهر والباطن وأن لا ينقطع عنه وأن يستشير في جميع شؤونه وفي المقابل أوجب على الإمام أن يعامل مريديه بالحكمة والشفقة، وأن يؤدبهم ابتغاء مرضاة الله، وأن يكون لهم ملجأ وسنداً وراعياً فإذا لم يكن في هذه المنزلة فليترك شيخه وليعد إلى شيخ يؤدبه⁽⁵¹⁾ . وحدد القاعدة التي يعتمدها المريـد في صحبة الأغنياء والفقراء بما يلي : أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل ... وعليك بصحبة الفقراء والتواضع وحسن الأدب والسخاء .. وعلى المريـد أن يحذر من الضعف أمام عطاء الأغنياء، أو يطمع بنوالهم، لأن تملقهم من أخطر الأمور على دين المرء وعلى خلقه. شريطة أن لا يحقد عليهم، وأن يحسن الظن بهم وأن لا يتعالى عليهم⁽⁵²⁾ .

⁴⁸ الغنية (86/81/2) الفتح الرباني ص 85.

⁴⁹ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 192.

⁵⁰ المصدر نفسه ص 193.

⁵¹ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 194.

⁵² الغنية (128/2 - 154) فتوح الغيب ص 75 ، 167.

2- الوعظ وموضوعاته : بالرغم من اشتغال عبد القادر بالتدريس وإعداد المريين، فإنه لم ينقطع عن مجالس الوعظ العامة التي استهدفت إيصال دعوته إلى عامة الناس، فخصص لذلك ثلاثة أيام في الأسبوع : صباح الجمعة، ومساء الثلاثاء في المدرسة، وصباح الأحد في الرباط⁽⁵³⁾ ويذكر التادفي أن الحضور كانوا يدونون هذه المواعظ حتى عدُّ في مجلسه مقدار أربعمئة محبرة⁽⁵⁴⁾.

وقد جُمع قسم كبير من هذه المواعظ - أو المجالس كما كانت تسمى - في كتاب يُعرف باسم "الفتح الرباني" مع تحديد تواريخها وأمكنة إلقائها، كان الإمام عبد القادر - في مواعظه - شديد الحماسة للإسلام مشفقاً لما آلت إليه تعاليمه في حياة الناس ويود لو استطاع استنقاذ الخلق جميعاً لنصرة الإسلام يقول في أحد مجالسه : دين محمد صلى الله عليه وسلم تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه. هلموا يا أهل الأرض تُشيد ما تهدم ونقيم ما وقع : هذا شيء ما يتم يا شمس ويا قمر، وبانهار تعالوا⁽⁵⁵⁾ ويقول في موعظة أخرى : سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي. إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء. آخرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل. ما أنا بطالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا سوى الحق عز وجل. فرحي بفلاحكم وغمي لهلاككم إذا رأيتم وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعتم وارتويت واكتسبت وفرحت كيف خرج من تحت يدي⁽⁵⁶⁾ ومن أقوله كذلك : ألا إني راع لكم، ساق لكم، ناخور لكم ما ترقيت ها هنا وأرى لكم وجود الضر والنفع بعد ما قطعت الكل بسيف التوحيد. ألزمت هذا المقام حمدكم وذمكم وإقبالكم وإدباركم عندي سواء. كم من يذمني كثيراً ثم ينقلب ذمة حمداً. كلاهما من الله لا منه، إقبالي عليكم لله، أخذي منكم لله لو أمكنني دخلت مع كل منكم القبر وجاوبت عنه منكرأ ونكير رحمة وشفقة عليكم⁽⁵⁷⁾. بهذا الحماس، انطلق الإمام عبد القادر يستنفر المسلمين إلى الالتفاف حول الإسلام، ويدعوهم إلى العودة إلى تعاليمه وحمل رسالته. وكان يرى أن صلاح دين الفرد لا يتم إلا بإصلاح القلب وفك إيساره من حب الدنيا والأخلاق الذميمة ومن كل ما يشغل عن الله، ومن هنا كثرت في مواعظه دعوة الناس إليه للتربية والتزكية⁽⁵⁸⁾، وكانت مواعظه وخطبه بعضها موجه لنقد العلماء، والحكام والدعوة لإنصاف الفقراء والعامة.

⁵³ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 195.

⁵⁴ قلائد الجواهر ص 18.

⁵⁵ الفتح الرباني ص 295.

⁵⁶ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 196.

⁵⁷ الفتح الرباني نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 197.

⁵⁸ المصدر نفسه ص 197.

أ- انتقاد العلماء : كان الغالبية من العلماء من العلماء في عهده يتنافسون فيما بينهم على اعتلاء منابر الوعظ والخطابة في الأماكن المشهورة ويسعون في إيذاء بعضهم بعضاً عند الخليفة والوزراء والحكام ومنهم من عرف بسوء الخلق، ومنهم من اشتغل بالخصومات المذهبية، شاهد الإمام عبد القادر عن كتب كل ذلك وأمثاله فشن حملة شديدة على هذا النوع من العلماء واعتبرهم تجاراً يتاجرون بالدين ويساهمون في ارتكاب المحظورات ومن مواعظه العامة في ذلك قوله : يا سلايين الدنيا بطريق الآخرة من أيدي أربابها. يا جهالاً بالحق، أنتم أحق بالتوبة من هؤلاء العوام، أنتم أحق بالاعتراف بالذنوب من هؤلاء، لا خير عندكم⁽⁵⁹⁾ وقال في موعظة ألقاها في المدرسة في 9 رجب 546هـ/1151م : لو كانت عندك ثمرة العلم وبركاته لما سعت إلى أبواب السلاخين في حظوظ نفسك وشهواتها العالم لا رجلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق والزاهد لا يدّين له يأخذ بهما أموال الناس، والمحِب في الله لا عينين له ينظر بهما إلى غيره⁽⁶⁰⁾.

وحذر عامة الجماهير من حضور مواعظهم والاستماع إلى أحاديثهم فقال : يا عباد الله ... لا تسمعوا من هؤلاء الذين يُفرحون نفوسكم. يذلون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر لا يامرونهم بامر ولا ينهونهم عن نهيه. إن فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً وتكلفاً خمر الله الأرض منهم ومن كل منافق أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه إني أغار إذا سمعت واحداً يقول : الله الله وهو يرى غيره⁽⁶¹⁾ .

وهاجم المتعصبين للمذاهب ومن ذلك قوله : دع عنك الكلام فيما لا يعنيك. اترك التعصب في المذاهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة⁽⁶²⁾ . ولم تنقطع حملات عبد القادر على العلماء والفقهاء⁽⁶³⁾ . المنحرفين على هدى المصلحين والعلماء الريانيين وكان هجوم الإمام عبد القادر على العلماء المنحرفين يريد به تصحيح الوضع السائد والمساهمة في تخريج جيل من العلماء الريانيين الذين يقومون بوعظ الناس وهدايتهم وتزكيتهم ونشر التعاليم الصحيحة في أوساط الأمة حتى يخرج جيل النصر المنشود الذي يتحقق على يديه وعد الله بالنصر للمؤمنين وقد حالف الإمام عبد القادر الكثير من النجاح بحمد الله في تحقيق هذه المهمة.

ب- انتقاد الحكام : وخص الإمام عبد القادر - الحاكمين بانتقاداته وحذر الناس من الانصياع لهم بما يخالف الشريعة يقول في أحد مجالسه : صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة. قد صارت الدنيا

⁵⁹ المصدر نفسه ص 198.

⁶⁰ المصدر نفسه ص 202.

⁶¹ الفتح الرياني ص 245 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 199.

⁶² هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 199.

⁶³ المصدر نفسه ص 201.

والغنى والعافية والحوال والقوة الالهة، ويحكم جعلتم الفرع أصلاً، المرزوق رازقاً، والمملوك مالكاً، الفقير غنياً، العاجز قويا المليت حياً، .. إذا عَظمت جبابرة الدنيا وفراعينها وملوكها وأغنياءها ونسيت الله عز وجل ولم تعظه، فحكمك حكم من عبد الأصنام، تصير مَنْ عَظمت صنمك⁽⁶⁴⁾، وانتقد الولاة والموظفين الذين يجتهدون في تنفيذ أوامر السلاخين دون تحرز؛ يقول في إحدى مواعظه : يا غلام : .. أخدم الحق عز وجل ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاخين الذين لا يضررون ولا ينفعون أيش يعطونك ؟ يعطونك مالم يَقم لك ؟ أو يقدرّون يقسمون لك شيئاً لم يقسمه الحق عز وجل ؟ لا شيء مستأنف من عندهم، إن قلت أن عطاءهم مستأنف من عندهم كفرت⁽⁶⁵⁾ . ولم تتوقف انتقادات عبد القادر للحكام عند المواعظ العامة، وإنما تناولت المواقف الخاصة التي تبرز فيها انحرافات أو مظالم، ففي عام 541هـ/1146م ولى الخليفة المقتفي يحيى بن سعيد المعروف بابن المرجم القضاء. فمضى الأخير في ظلم الرعايا ومصادرة الأموال وأخذ الرشاوي، فكتبت ضده المنشورات وألصقت في المساجد والشوارع دون أن يستطيع أحد أن يجهر بمعارضته. ويذكر سبط ابن الجوزي أن الإمام عبد القادر اغتنم وجود الخليفة في المسجد وخاخبه من على المنبر قائلاً : وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غداً عند رب العالمين، فعزل الخليفة القاضي المذكور⁽⁶⁶⁾ ولقد تكررت هذه المواقف مع الوزراء والرؤساء والحجاب، وتذكر المصدر التاريخية أن هؤلاء كانوا يستمعون لملاحظات عبد القادر لا اعتقادهم بصلاحه وصدق أغراضه وكراماته⁽⁶⁷⁾، فلقد حرص عبد القادر على أن يبقى بعيداً عن مواخن الشبهات أو التقرب للحكام، فقد ذكر عنه أنه ما ألمّ بباب حاكم قط وأنه تتناولها يده⁽⁶⁸⁾.

ج - انتقاده للأخلاق الاجتماعية السلبية في عهده :

نظر الإمام عبد القادر إلى المجتمع المعاصر له على أنه مجتمع : الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام. وهذه صفات أحالت كل شيء فيه إلى مظاهر خاوية فيها ولا معنى⁽⁶⁹⁾، يستوي في ذلك المتدينون وغيرهم. يقول في إحدى مواعظه : هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق. قد كثر من يصلى ويصوم ويحج ويزكي، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار

⁶⁴المصدر نفسه ص 201.

⁶⁵المصدر نفسه ص 201.

⁶⁶مرآة الزمان (265/8) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 202.

⁶⁷خبايا الحنابلة (1/292).

⁶⁸قلائد الجواهر ص 19-30 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 203.

⁶⁹هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 203.

معظم الناس بلا خالق. كلكم موتى القلوب أحياء النفوس والأهوية خالبون للدنيا ⁽⁷⁰⁾ وقال في إحدى المواقظ : ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاخين والأغنياء. أكل فلان، واستغنى فلان، افتقر فلان كل هذا هوس ومقت وعقوبة، وتوبوا واتركوا ذنوبكم وأرجعوا إلى ربكم دون غيره، أذكروا وأنسوا غيره ⁽⁷¹⁾.

س - الدعوة لإنصاف الفقراء والعامّة : ركز الإمام عبد القادر على نصرة الطبقة العامة والفقراء خاصة، فجعل الاهتمام بشؤونهم من شروط الإيمان، وشن حملة شديدة على الولاة الذين يظلمونهم وعلى الأغنياء الذين يخصصون أنفسهم دون إخوانهم من الفقراء " باخيب الأخعمة وأحسن الكسوة وأخيب المنازل وأحسن الوجوه وكثرة الأموال " فافتى بان انتسابهم للإسلام دعوى كاذبة وذريعة لحقن دماءهم بالشهادتين ⁽⁷²⁾.

ولقد جعل عدم التفرقة بين الغني والفقير من شروط تقدم المرید في مقامات التزكية، أو نجاة المسلم من عقاب الله ⁽⁷³⁾. وشدد في وصيته المشهورة لولده عبد الرزاق على خدمة الفقراء وحسن صحبتهم والتعامل معهم : حسبك من الدنيا شيئاً : صفة فقير وحرمة ولي. وعليك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل ⁽⁷⁴⁾ ولم يقف اهتمام الإمام عبد القادر بالفقراء عند حد الوعظ، وإنما ترجمه لعمل واقع. فكان يفتح بابه للفقراء والغرباء ويقدم لهم المنام والغذاء ويحضرون الدرس ويعطيهم ما يحتاجون ⁽⁷⁵⁾.

كان يرى هذا الأسلوب من أفضل الأعمال فلقد نقل عنه قوله : فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إخراج الطعام ولا أشرف من الخلق الحسن، أود لو كانت الدنيا بيدي أخعما الجائع، كفى مثقوبة لا تضبط شيئاً لو جاءني ألف دينار لم ثبت عندي ⁽⁷⁶⁾. لهذا كله، أقبلت العامة والفقراء

⁷⁰ المصدر نفسه ص 203.

⁷¹ المصدر نفسه ص 203.

⁷² الفتح الرباني ص 64 ، 65 هكذا ظهر حيل صلاح الدين ص 204.

⁷³ المصدر نفسه ص 52 هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 205.

⁷⁴ الفيوضات الربانية ص 35 - 37.

⁷⁵ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 205.

⁷⁶ المصدر نفسه ص 205.

على عبد القادر إقبالاً شديداً وتحمسوا له ⁽⁷⁷⁾. وتاب على يديه أعداد كبيرة من أهل بغداد، فقد روي عنه قوله : وتاب على يدي من العيارين والمسالحة أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير ⁽⁷⁸⁾.

4- إصلاح التصوف : أعطى الإمام عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف، وأعادته إلى مفهوم "الزهد" ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان.

أ - تنقية التصوف مما خرب عليه : من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية، هدفها الأساسي في غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح. ويمثل كتاباه "الغنية لطالبي خريق الحق" و"فتح الغيب" خلاصة أفكاره في هذا المجال. ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى "كتاب السلوك" وقدمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث والوعظ وإنما خبئه في ميدان التربية العملية في مدرسته ووبأخه ⁽⁷⁹⁾.

ب- الحملة على المتطرفين من الصوفية : حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على من تلسبوا بالتصوف أو شوهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان : بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في خلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عما سوى مولاه عز وجل ⁽⁸⁰⁾، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألقين والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة وقرر أن المرید الصادق لا يهيج كلاماً غير كلام الله وهو في غنى عن "الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدعين، وشركاء الشياطين ركاب الأهوية، مطايا النفوس والطباع، أتباع كل ناعق وزاعق" ⁽⁸¹⁾.

ج- محاولة التنسيق بين الفرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها : في الفترة الواقعة بين عامي 546هـ - 550هـ (1151م - 1155م) جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون ولتحقيق هذا الهدف عقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة

⁷⁷ المنتظم (219/10).

⁷⁸ قلائد الجواهر ص 19 للتادفي.

⁷⁹ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 209.

⁸⁰ المصدر نفسه ص 209.

⁸¹ المصدر نفسه ص 209.

على المستوى التنظيمي والمستوى النظري، وتصدر الإمام عبد القادر الزعامة وكان أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني - خلال موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الإمام عبد القادر الكيلاني من العراق، والإمام عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والإمام أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب (82) - في ذاك العصر) كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الإمام عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم⁽⁸³⁾. وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الإمام عبد القادر والإمام رسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام⁽⁸⁴⁾. ثم تلا ذلك اجتماع موسع، حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الإمام عبد القادر الجيلي أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار هامة منها.

- وحدة العمل لدى مدارس الإسلام عامة فقد أصبح للزعيم الإمام عبد القادر اجتماعات متوالية مع كبار الشيوخ، يناقشون ما تحيله إليهم المدارس والأربطة في العالم الإسلامي من قضايا ومشكلات.

- إن المدارس والرباطات المختلفة أخذت ترسل إلى المدرسة القادرية النابهين من خلابها والمتقدمين من مرييها الذين ترى فيهم مؤهلات المشيخة في المستقبل، كما فعل الإمام أبو مدين المغربي حين أرسل أحد مريديه - صالح بن ويرجات الزركالي - إلى بغداد حيث أكمل علوم الفقه وسلوك الزهد على يد الإمام عبد القادر لإكمال سلوك الزهد وعلوم الإرادة⁽⁸⁵⁾.

- إن إحكام الربط بين تعليم الفقه وسلوك الزهد أدى إلى خفة - بل ربما اختفاء - معارضة الفقهاء وإلى التعاون بين الطرفين، بل صار الفقهاء يجمعون بين الفقه والزهد ويسمون ذلك تكامل الشريعة والطريقة. وهذا الأمر جعل ابن تيمية يعتبر عبد القادر وأقرانه من قيادة مدارس الإصلاح

⁸² خبقات الحنابلة (306/1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 245.

⁸³ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 245.

⁸⁴ المصدر نفسه ص 245.

⁸⁵ بهجة الأسرار ص 107 هكذا ظهر جيل صلاح ص 247.

نماذج فريدة في الجمع بين الفقه والزهد، فخلق عليهم إصطلاح " الشيوخ الكبار المتأخرين " ونوّه في فتاويه بمزاياهم وتجردهم، واستقامتهم⁽⁸⁶⁾ الاتفاق على رؤية مشتركة للعمل والتعاون على تحقيق الأهداف المتفق عليها، وتقليل مساحة القضايا المختلف فيها مع وضع الخلاف في إخاره الطبيعي.

- خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف، وإسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحران وجبال هكار ودمشق ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين فصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد ورباخاتها، وبنيّا لها فروعاً جديدة وأوقف عليها الأوقاف في المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعّالة ناجحة⁽⁸⁷⁾.

5- النهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : يرى الإمام عبد القادر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة أساسية لبقاء المجتمع وسيادة الخير فيه، فإن ترك تطرق الفساد إليه. وهو واجب على كل مسلم ولكل حسب مستواه ودوره : فالسلاخين : إنكارهم باليد والعلماء إنكارهم باللسان، والعامّة إنكارهم بالقلب⁽⁸⁸⁾ ، والعلماء هم الفئة التي تقرّر ما هو معروف مباح، وما هو منكر محرم، أما السلاخين، والعامّة فعملهم تنفيذ ما يقرره العلماء في هذا المجال وللعلماء الذين يتسنمون هذه المنزلة صفات تحددهم في العلماء السالكين خريق الزهد دون سواهم هذه الصفات هي :

- أن يكون القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالماً.
- أن يكون عالماً بالمنكر الذي ينهى عنه على وجه قطعي لما في ذلك من خوف الوقوع في الظنون والإثم. فالواجب إنكار ما ظهر وعدم بحث ما ستر لأن الله نهى عن ذلك⁽⁸⁹⁾.
- أن يكون قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله⁽⁹⁰⁾.

⁸⁶ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 247.

⁸⁷ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 247.

⁸⁸ الغنية (1/44، 45).

⁸⁹ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 216.

⁹⁰ المصدر نفسه ص 216.

وحَدَّد عبد القادر لأساليب الأمر بالمعروف شروخاً وهي كما يلي :

- أن يستعمل اللين والتودد، لا الفظاظة والغلظة. وعليه أن يتحلى بالشفقة على الخلق لوقوعهم في مصاديق الشيطان.

- أن يكون صبوراً متواضعاً زائلاً الهوى قوي اليقين حكيماً يعرف كيف يعالج الأمور.

- أن يامر العاصي وينهاه في خلوة بما ذلك من إمكانية قبول النصيحة، فإن لم ينفع استعان عليه باهل الخير، فإن لم ينفع فباصحاب السلطان⁽⁹¹⁾.

- عدم الخوض في مسائل الاختلاف أمام من يعتقدونها، فمثلاً في مذهب الحنابلة يذكرون اللعب بالشطرنج بينما يجيزه الشافعية، فالدخول في مثل هذه القضايا يثير تصلب المخالفين من المذاهب الأخرى ويفتح باباً للجدل والخصومة، فالحكمة هنا واجبة وأدب العالم أولى من علمه⁽⁹²⁾.

6- مدارس النواحي والأرياف والبوادي :

تعتبر مدرسة الإمام عبد القادر الجيلاني في بغداد من المدارس المركزية في عاصمة الدولة العباسية في عهد نور الدين زنكي ويعتبر الإمام عبد القادر أحد رواد المدارس الإصلاحية التي أثرت في حركة النهضة ومقاومة الغزاة، إلا أن هناك كانت مدارس متعددة ساهمت في دعم الدولة الزنكية والأيوبية ومن أهمها :

أ- المدرسة العدوية : أسس هذه المدرسة الإمام عدي بن مسافر الذي أدرجه ابن تيمية في قائمة (كبار الشيوخ المتأخرين) وأضاف أنه كان رجلاً صالحاً وله أتباع صالحون⁽⁹³⁾، ونشأ عدي في قرية يقال لها "بيت فار" في منطقة البقاع غربي دمشق، تتلمذ على الإمام عقيل المذبحي ثم رحل إلى بغداد حيث صحب الإمام حماد الدباس وغيره واجتمع هناك بالإمام عبد القادر الكيلاني وأبي الوفاء الحلواني، وأبي نجيب السهروردي، ثم ركز على خاصة نفسه، بأنواع المجاهدات والتهذيب زمنياً خوياً، ولذلك كان الإمام عبد القادر يثنى عليه كثيراً ويقول : لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لئالها الإمام عدي بن مسافر⁽⁹⁴⁾ قضى الإمام عدي زمنياً في مجاهدة "خاصة نفسه" بالتزكية، ثم عاد للمجتمع واستقر في منطقة "جبال هكار" في شمال العراق بين قبائل الأكراد الهكارية، حيث بنى له مدرسة وأقبل عليه سكان تلك النواحي إقبالاً هائلاً، لما رأوه من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد

⁹¹ نشأة القادرية ص 168.

⁹² نشأة القادرية ص 168.

⁹³ فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف (11/103).

⁹⁴ النجوم الزاهرة (5/362).

الناس⁽⁹⁵⁾، ويصف ابن خلكان أثر الإمام عدي في مجتمع الأكراد الهكارية فيقول : سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد⁽⁹⁶⁾ ويذكر الذهبي أن من الآثار التي أحدثها الإمام عدي بين الأكراد الهكارية انتشار الأمن في تلك المنطقة وارتداع مفسدي الأكراد وتوبتهم حتى صار لا يخاف أحد في تلك المنطقة الجبلية التي لم تكن آمنة قبل ذلك، وأنه انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره. لقد وصف الحافظ عبد القادر الرهاوي شخصية الإمام عدي ومكانته فقال : ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات ثم سكن بعض جبال الموصل في موضع ليس به أنس، ثم أنس الله تلك الموضع به وعمّر بها بركاته حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل، وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمّر حتى انتفع به خلق، وانتشر ذكره، وكان معلماً للخير، ناصحاً متشجعاً، شديداً في الله، لا تأخذه في الله لومة لائم عاش قريباً من ثمنين سنة، ما بلغنا أنه باع شيئاً ولا اشتري ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم من الجبل ويحصدها ويتقوت، وكان يزرع القطن ويكتسي منه، ولا يأكل من مال أحد شيئاً، وكانت له أوقات لا يرى فيها محافظة على أوراده وقد خفت معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء ثم لا نراه إلى الصبح. ورأيت أنه إذا أقبل إلى قرية يتلقاه أهلها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالهم ونسائهم إلا من شاء الله منهم، ولقد أتينا معه على دير رهبان فتلقانا منهم راهبان، فكشفا رأسيهما وقبلا رجليه وقالاً : أدع لنا فما نحن إلا في بركاتك وأخرجاً خبقاً فيه خبز وعسل فاكل الجماعة وخرجت إلى زيارة الإمام أول مرة، فاخذ يجادلنا ويسال الجماعة ويؤانسهم.. وكان يواصل الصوم الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئاً قط، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً وأكله بحضرة الناس واشتهر عنه الرياضات والسير والكرامات والانتفاع به ما لو كان في القديم لكان أحدثه. ورأيت أنه قد جاء إلى الموصل فخرج إليه السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوام حتى آذوه مما يقبلون يده، فاجلس في موضع بينه وبين الناس شبك بحيث لا يصل إليه أحد إلا رؤية، فكانوا يسلمون عليه وينصرفون ثم رجع إلى زاويته⁽⁹⁷⁾. قال عنه الذهبي : الإمام الإمام الصالح القدوة، زاهد وقته⁽⁹⁸⁾.

⁹⁵ وفيات الأعيان (254/3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 225.

⁹⁶ المصدر نفسه.

⁹⁷ سير أعلام النبلاء (20/343، 342).

⁹⁸ سير أعلام النبلاء (20/342).

وقد ظهرت الآثار العلمية والعملية لمدرسة عدي بن مسافر في الدور الكبير الذي لعبه أكراد جبل هكار - فيما بعد - في جيش صلاح الدين حيث شكّلوا أهم فرقة، واحتل عدد منهم منزلة الأمراء والقادة الذين حقّقوا الانتصارات وأنجزوا الفتوح⁽⁹⁹⁾. توفي الإمام عدي بن مسافر في بلدة الهكارية ودفن بها عام 557هـ⁽¹⁰⁰⁾.

ب- مدرسة عثمان بن مرزوق القرشي : أسس هذه المدرسة الإمام عثمان في "مصر" وكان يُعتبر من أعيان المشايخ الذين جمعوا بين الشريعة والزهد. كان حنبلي المذهب، وكانت له علاقات مع الإمام عبد القادر الكيلاني. لقد لعب - فيما بعد - دوراً هاماً في تمهيد الأجواء لحملات نور الدين على مصر. استمر الإمام عثمان في عمله بالقاهرة حتى وفاته عام 564هـ عن عمر يناهز السبعين ودفن بجانب قبر الإمام الشافعي⁽¹⁰¹⁾.

ج- مدرسة أبو مدين المغربي : اشتهرت هذه المدرسة في "المغرب" وعرفت باسم الإمام أبي مدين شعيب بن حسين الأندلسي الذي نشأ في منطقة أشبيلية في الأندلس ودرس فيها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ثم سلك خريق الزهد وجال في المغرب واستوطن مدة في مدينة (بجاية) إلى أن استقر به الطواف في مدين "تلمسان" وبدأ في الإرشاد والتدريس حيث تخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها⁽¹⁰²⁾، ويصف الذهبي الإمام أبا مدين بأنه كان من أهل العمل والاجتهاد والانقطاع للعبادة والنسك والتربية⁽¹⁰³⁾. كذلك اعتبره ابن تيمية من كبار الشيوخ المتأخرين الذين كانوا على خريقة صالحة ومنهج مستقيم⁽¹⁰⁴⁾. واستمر أبو مدين مواظفاً على التدريس والعبادة حتى وافاه الأجل حوالي عام 590هـ وكان آخر كلامه : الله الحي، ثم فاضت نفسه⁽¹⁰⁵⁾.

⁹⁹ هكذا ظهر جبل صلاح الدين ص 256.

¹⁰⁰ فائد الجواهر ص 85 - 90.

¹⁰¹ المصدر نفسه ص 113 - 114.

¹⁰² المصدر نفسه ص 108 ، 109 هكذا ظهر جبل صلاح الدين ص 237.

¹⁰³ سير أعلام النبلاء (219/21، 220).

¹⁰⁴ فتاوى ابن تيمية ، كتاب التصوف (11/604).

¹⁰⁵ سير أعلام النبلاء (21/220).

ح- مدرسة أبو السعود الحرّمي : درس في المدرسة القادرية وتربّى على الإمام عبد القادر وصار
المشار إليه بعدة وصار له القبول التام عند الخاص والعام، وأسس مدرسة خاصة به ونجح نجاحاً قوياً
بين جماهير الفقهاء وفتح لهم بابه (106).

خ- مدرسة ابن مكارم النعال : تنسب هذه المدرسة إلى محمود بن عثمان بن مكارم النعال
البغدادي الذي كان يُشرف على رباط الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية ثم
استقل بعد وفاة عبد القادر وصار يخرج باصحابه لينكروا المذكر ويريقوا الخمر ويتعرضوا للأذى في
سبيل ذلك (107).

د- مدرسة عمر البزاز : تنسب هذه المدرسة إلى عمر بن مسعود البزاز الذي وصّف بأنه من
أعيان أصحاب عبد القادر. شاع ذكره وأقبل عليه الأتباع، وتاب على يده خلق كثير من مماليك
الخلافة، ويذكر ابن النجار أنه كان يحضر مجالسه (108).

ذ- مدرسة الجبائي : أسسها عبدالله الجبائي الذي كان في الأصل مسيحياً من قرية "جبة" في
جبل لبنان سُبّي وهو فتى ثم نُقل إلى دمشق حيث أسلم هناك، فاشترته على بن إبراهيم بن نجا
أحد أصحاب عبد القادر، فاعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام 540هـ/1145م حيث لازم الإمام عبد
القادر وصحب ابن قدامة في الدراسة، وتدل أخباره أن الإمام عبد القادر كان يرعاه ويوده. نال
الجبائي منزلة عالية في بغداد وظل يعمل مع الإمام حتى وفاته، فرحل إلى أصبهان حيث درس
وأفتى حتى وفاته عام 605هـ/1208م عن أربع وثمانين سنة (109).

ر- مدرسة الإمام ماجد الكردي : أسس هذه المدرسة ماجد الكردي في منطقة "قوسان" في
العراق وكان قد اشتهر أمره في تلك المنطقة وقصده المريدون والأتباع من مختلف أرجائها. وكان على
علاقة وخيدة بالإمام عبد القادر الذي كان يجله ويثني عليه ولقد استمر في عمله حتى وفاته عام
562هـ (110).

ز- مدرسة حياة بن قيس الحراني : الإمام القدوة الزاهد العابد، شيخ حرّان، وزاهدها، حياة بن
قيس ابن رَجَّال بن سلطان الأنصاري الحراني، صاحب أحوال وكرامات وتالهُ وإخلاص وتعفف
وإنقباض، كانت الملوك يزورونه، ويتبرّكون، بلقائهم وكان كلمة وفاق بين أهل بلدة وقيل : إن

¹⁰⁶ هكذا ظهر جبل صلاح الدين ص 237.

¹⁰⁷ هكذا ظهر جبل صلاح الدين ص 237.

¹⁰⁸ نشأة القادرية ص 194 - 212.

¹⁰⁹ ذيل خبقات الحنابلة (2/45 - 47).

¹¹⁰ فلأند الجوهر ص 107.

السلطان نور الدين زارة، فقوى عزمه على جهاد الفرنج ودعا له وإن السلطان صلاح الدين زارة وخلص منه الدعاء⁽¹¹¹⁾. وقد تخرج على يد الإمام حياة الجم الغفير من الأتباع والمشايع الذين استأنفوا منهجه في الدعوة والإصلاح، وانتمى إليه أعداد عظيمة من الناس وأشار إليه العلماء بالاحترام والتقدير. وكان أهل حران وما حوله يجلسونه ويقصدونه بالزيارة وخلص الدعاء للاستسقاء. لقد استمر في عمله حتى وفاته في حران نفسها عام 581هـ⁽¹¹²⁾.

وقد ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مدارس أخرى كالمدرسة كمدرسة الإمام رسلان الجعبي، ومدرسة عقيل المنيحي، ومدرسة الإمام علي بن الهيثمي، ومدرسة الحسن بن مسلم، ومدرسة الجوسقي، ومدرسة الإمام عبد الرحمن الطفسونجي، ومدرسة مولى الزولي، ومدرسة محمد بن عبد البصري، ومدرسة القيلوي، ومدرسة علي بن وهب الربيعي، ومدرسة الإمام بقا بن بطو⁽¹¹³⁾ ومما يكمل الصورة للمدارس التي تناولها البحث في مدارس النواحي والأرياف والبوادي أن نقول إنها كانت تطبق منهاجاً موحداً في التربية والتعليم يتطابق إلى حد كبير إلى التعاليم والمبادئ التي دعا لها الغزالي والجيلي، وأنها كانت امتدادات أصغر في الأرياف والجبال والبوادي بحيث يمكن القول أنها بلغت المئات، لأن الأمر لم يتطلب أكثر من استقرار أحد الخريجين في مسجد من مساجد الريف مثلاً، أو الإقامة في رباط أو زاوية وتكريس الوقت للتدريس وسلوك الزهد⁽¹¹⁴⁾.

7- التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية :

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الإمام عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية⁽¹¹⁵⁾. وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجال الدين والمتحمسين لنصرة الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدوا مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي :

أ- الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي: قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرباطة. ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون " باسم المقدسة

¹¹¹ سير أعلام النبلاء (181/21 - 182).

¹¹² هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 230.

¹¹³ المصدر نفسه ص 224 إلى 238.

¹¹⁴ المصدر نفسه ص 238.

¹¹⁵ المصدر نفسه ص 187.

"نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد من ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول أن إرسال هذه البحوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمران : الأول : حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين : والثاني : ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولا بد أن إقرار إرسال هذه البحوث نتج عن دراسة ومشورة⁽¹¹⁶⁾ ، فقد توثقت الصلات بين الإمام عبد القادر ونور الدين فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الإمام عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية⁽¹¹⁷⁾ ، وكانت المدرسة القادرية، والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا خريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تُعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية ويذكر سبط ابن الجوزي في كتابه "مرآة الزمان" أن والد موفق الدين بن قدامه حين نزح من بلاده إلى دمشق كان يقوم بنشاط دائم لحشد الطاقات في مواجهة الاحتلال الصليبي، وأن داره في دمشق كانت ملتقى القيادات الفكرية والسياسية، وأن نور الدين زنكي نفسه كان يداوم على حضور هذه اللقاءات⁽¹¹⁸⁾ .

ب- هجرة العلماء والعمل في المدارس النورية : تداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل في المدارس التي أنشأها نور الدين وصلاح الدين. ومن ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس المهاجرين إلى هناك موسى بن الإمام عبد القادر الذي قدم إلى دمشق واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام 618هـ/1221م⁽¹¹⁹⁾ . كذلك بنى نور الدين مدرسة في حرّان وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى (606هـ/1209م) والذي درس على الإمام عبد القادر ثم عاد إلى الشام، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسماة، وأسند إليه القضاء⁽¹²⁰⁾ ، ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد⁽¹²¹⁾ ، كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى في حرّان أسلمها إلى حامد بن محمود (المتوفى عام

¹¹⁶ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 275.

¹¹⁷ الإمام عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة ص 275.

¹¹⁸ مرآة الزمان (313، 314/8).

¹¹⁹ شذرات الذهب (199/5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 276.

¹²⁰ العبر (17/5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 277.

¹²¹ الدارس في أخبار المدارس (115/2).

570هـ/1174م الذي لازم الإمام عبد القادر ودرس عليه وكان نور الدين يقبل عليه وله فيه حسن ظن⁽¹²²⁾.

ج- المشاركة في الجيش والجهاد العسكري : وأبرز المدارس التي رفدت هذا الميدان هي المدرسة العدوية وفروعها، التي أسسها الإمام عدي بن مسافر في جبال هكار، فقد شكل خريجو هذه المدارس من الأكراد الهكارية والروادية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده، ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي وهي من الأكراد الروادية، وأصلهم من بلدة "دوين" من أعمال أذربيجان والروادية قبيلة كبيرة. ولقد وُلد أيوب والد صلاح الدين في البلدة المذكورة ومنها خرج والده شاذي مع ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت حيث مات الوالد شاذي، وولد الحفيد صلاح الدين، ثم لم يلبث الأخوان أن رحلا والتحقا بخدمة عماد الدين زنكي⁽¹²³⁾ وأما الأكراد الهكارية فقد شكّلوا فيما بعد أمراء جيش صلاح الدين وقادته ومن أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة وكانوا يسمونه الأمير الكبير توفي في القدس عام 588هـ وقد وصف القاضي الفاضل موته بأنه : تهدم به بنيان قوم والدهر قاض ما عليه لوم ، وإذا ما اتفقتنا على هذا من أن الإمام عبد القادر كان على وعي وقناعة وإيمان بان الجهاد على درجات الإيمان وإن محاربة الظلم والظالمين والعدوان المعتدين أفضل أنواع العبادة ، فلنا أن نقول بأخمينان أن الإمام أبرز المجاهدين وأشهرهم في محاربة الغزاة الصليبيين⁽¹²⁴⁾.

8- صفاته ووفاته : وصف موفق الدين ابن قدامة المقدسي الإمام عبد القادر فقال : كان الإمام عبد القادر نحيف البدن ريع القامة عريض الصدر، عريض اللحية وخويلها، أسمر مقرون الحاجبين أدعج العينين، ذا صوت جهوري وسمت وقدر⁽¹²⁵⁾ ، وكان وافر النشاط دائم الحركة يرى في الشتاء وكأنه في الصيف يتصعب العرق من جسده⁽¹²⁶⁾ ، وكان يلبس هيئة مخصوصة ويتطليس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه⁽¹²⁷⁾.

¹²² خبقات الحنابلة نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 277.

¹²³ وفيات الأعيان (139/7 - 143).

¹²⁴ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 279.

¹²⁵ مرآة الجنان للياضي (352/3).

¹²⁶ خبقات الحنابلة (299/1).

¹²⁷ عوارف المعارف ص 356 نشأة القادرية ص 131.

وقد أجنب المؤرخون الذين ترحموا لعبد القادر في وصف أخلاقه، فذكروا أن سكوته كان أكثر من كلامه، فإذا تكلم كان كلامه على الخواجر، وكان دائم البشر شديد الحياء، لين الجانب وكانت له عناية بالفقراء والمساكين فقد كان يجالس الفقراء ويغلي لهم ثيابهم ويقف مع الصغير ولكنه يحرص على أن لا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة وكان لا يرد سائلاً وكان يكرم جلسيه بحيث لا يظن أن أحداً أكرم عليه منه، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسال عن شأنهم ويحفظ ودهم ويعفو عن سيئاتهم ويصدق من حلف له ويخفي علمه فيه وكان يامر كل ليلة بمد السماط وياكل مع الأضياف والفقراء، وكان إذا أهديت له هدية فرقها أو بعضها على من حضر ويكافي عليها مهيها⁽¹²⁸⁾، مع أنه لم يكن يخرج من مدرسته إلا للمسجد أو الرباط فقد كان سريع الذهاب لمشاركة الناس أحزانهم، فلو راجعنا ما كتبه ابن الجوزي، وابن رجب، وسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، وابن العماد الحنبلي لوجدنا الكثير من المتوفين المشهورين من العلماء وأرباب الخير يقال عن أحدهم " صلى عليه الإمام عبد القادر⁽¹²⁹⁾ وكان الإقبال على الطاعة والخضوع إلى الله وكان كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة⁽¹³⁰⁾، وكان له حنطة مرياة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاق يزرعها له كل سنة وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز له منها ويكون غذاؤه⁽¹³¹⁾ منها وكان لا يمس الذهب بيده فإذا جاء أحد بذهب قال له : ضعه تحت السجادة، فإذا جاء خادمه قال له : ما تحت السجادة وأعطه الخبز والبقال⁽¹³²⁾.

- وفاته: أجمع المؤرخون على أن الإمام عبد القادر الجيلي رحمه الله قد توفي عام 561 هـ⁽¹³³⁾، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة⁽¹³⁴⁾ وقيل : إنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط⁽¹³⁵⁾.

وقد سأل ابنه عن مرضه فقال له : لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الإمام عبد الجبار ماذا يؤمك من جسمك؟

¹²⁸ نشأة القادرية ص 132.

¹²⁹ المنتظم (10/85، 122) نشأة القادرية ص 132.

¹³⁰ خبقات الحنابلة (1/292) نشأة القادرية ص 133.

¹³¹ نشأة القادرية ص 133.

¹³² بهجة الأبرار ص 104 نشأة القادرية ص 133.

¹³³ الإمام عبد القادر الجيلي ص 265 للكيلاني.

¹³⁴ نشأة القادرية ص 133.

¹³⁵ الإمام عبد القادر الجيلي لعبد الرزاق الكيلاني ص 265.

فقال رحمه الله : جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله عز وجل وكان يقول رحمه الله تعالى : أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد : استعنت بلا إله إلا الله سبحانه من تعزز بالقدره، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلطف بكلمة : تعزز فظل يرددتها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد : الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رحمه الله (136) .

وقبل وفاته سأل ابنه عبد الوهاب الوصية فقال له : عليك بتقوى الله عز وجل وخافته ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً. سوى الله، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل، وأخْلِ بها جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، وعليك بالتوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد. ثم قال : مَرُوا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ (137) .

وقد تم دفنه ليلاً في مدرسته ولم يتمكن أهله وأصحابه من دفنه في النهار من كثرة الزحام، إذ خرج أهل بغداد وامتلات الحلبة والأسواق والدروب، وقد ولد له تسع وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكراً، والباقي إناثاً وتزوج أربع زوجات، وفيما يتعلق بزواجه قال الإمام عبد القادر : كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله تعالى إلي أربع زوجات، ما منهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة (138) . ومن أقواله : الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربك (139) وقال عنه الذهبي : ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الإمام عبد القادر لكن كثيراً منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة (140) .

وقال عنه ابن كثير : وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة وقد كان صالحاً ورعاً وقد صُفِّ كتاب "الغنية"

¹³⁶ المصدر نفسه ص 266.

¹³⁷ الفتح الرياني ص 373، فتوح الغيب ص 130.

¹³⁸ فلائد الجواهر ص 41 أي أنهن بنات أغنياء أو يعرفن صنعة من الصفات.

¹³⁹ سير أعلام النبلاء (450/20).

¹⁴⁰ المصدر نفسه (450/2).

"وفتوح الغيب" وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة وبالجمله كان من سادات المشايخ الكبار، قدس الله روحه ونور ضريحه (141).

كان للشيخ عبد القادر تسعة وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكراً والباقي إناث (142)، ومنهم:

عبد العزيز بن الإمام عبد القادر (ت 602 هـ)، تفقه على والده، وحدث ووعظ ودرس وتخرج به غير واحد، ورحل إلى إحدى قرى سنجار واستوطنها (143) في حدود سنة 580 هـ بعد أن غزا عسقلان وزار القدس وكانت ذريته في سنجار في منتصف القرن العاشر والرجل أحد قادة جيش صلاح الدين الأيوبي ومستشاريه (144).

عيسى بن الإمام عبد القادر (ت 593 هـ)، تفقه على والده وسمع منه الحديث ومن غيره، ودرس وحدث ووعظ وأفتى، وصنف كتاب جواهر الأسرار ولطائف الأنوار في علوم الصوفية، وقدم مصر بعد وفاة والده وحدث بها ووعظ وتخرج به جماعة من أهلها، وتوفي فيها (145)، وقد لبس منه خرقة التصوف القادرية بعض أهل مصر (146).

عبد الوهاب بن الإمام عبد القادر (147) (522 هـ - 593 هـ)، كان فقيهاً حنبلياً واعظاً، قرأ الفقه على والده حتى برع فيه، ودرس بمدرسة والده وهو حي نيابة عنه في مستهل سنة 543 هـ وقد تجاوز العشرين من عمره، ثم بعد وفاة والده اشتغل بالتدريس، وكان أميز أخوانه، وكان

¹⁴¹البداية والنهاية (420/16).

(142) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 39، ص 97، نقلاً عن ابن النجار العمري، مسالك الأبصار، ج 8، ص 196. ابن الدميخي، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ص 128. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 19، ص 28.

(143) الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 242. الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 253 (الرقم 926).

(144) الكيلاني، جمال الدين فالح، الإمام عبد القادر الكيلاني، ص 91.

(145) الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 241-242. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 42، ص 141. التادفي، فلائد الجواهر، ص 90-91.

(146) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 44، ص 514 (الرقم 704).

(147) انظر ترجمته في: ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج 1، ص 208. أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي، (ت 665 هـ). تراجم الرجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط 2، (صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، عني بنشره وراجع أصله عزت العطار الحسيني)، دار الجيل، بيروت، 1974. ص 12. الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 241. الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 258 (الرقم 94). تاريخ الإسلام، ج 42، ص 134. وانظر ج 41، ص 77. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 19، ص 204 (الرقم 7412). ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 1، ص 388 (الرقم 196). التادفي، فلائد الجواهر، ص 89. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 6، ص 514.

فصيح الوعظ حادّ الخاخر وله مروءة وسخاوة، وقد جعله الناصر لدين الله على المظالم فكان يوصل إليه حوائج الناس⁽¹⁴⁸⁾ وكان ذلك سنة 583 هـ⁽¹⁴⁹⁾، وبنى تربة الجهة الخلاخية سلجق خاتون و تولى وقفها بأمر من الخليفة الناصر لدين الله⁽¹⁵⁰⁾. وروسل من الديوان العزيز إلى الشام⁽¹⁵¹⁾.

وكان عبد الوهاب قد رحل إلى بلاد الهند في خلب العلم، وتخرج به غير واحد⁽¹⁵²⁾، وقرأ عليه ابن الدبيثي بعض الأحاديث⁽¹⁵³⁾.

وفي سنة 588 كفت يد عبد الوهاب عن وقف الجهة الخلاخية وأخرج أبناء الإمام عبد القادر عن مدرستهم و سلّمت إلى عبد الرحمن بن الجوزي (ت 597 هـ) وذلك بسبب الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن الإمام عبد القادر⁽¹⁵⁴⁾، ثم رُدّت المدرسة إلى أبناء الإمام عبد القادر بعد أن قبض على الوزير ابن يونس (ت 593 هـ)⁽¹⁵⁵⁾.

عبد الرزاق بن الإمام عبد القادر⁽¹⁵⁶⁾ (528 – 603 هـ) كان ثقة حافظاً⁽¹⁵⁷⁾ زاهداً عابداً ورعاً " لم يدخل فيما دخل فيه غيره من إخوته⁽¹⁵⁸⁾ " وكان فقيهاً صالحاً⁽¹⁵⁹⁾، تفقه على والده وحدث

⁽¹⁴⁸⁾ ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج 1، ص 208-209.

⁽¹⁴⁹⁾ ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 1، ص 389.

⁽¹⁵⁰⁾ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 12. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 42، ص 135، و انظر، ج 41، ص 77.

⁽¹⁵¹⁾ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 42، ص 135. ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 1، ص 389.

⁽¹⁵²⁾ الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 241.

⁽¹⁵³⁾ الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 258.

⁽¹⁵⁴⁾ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 41، ص 77.

⁽¹⁵⁵⁾ ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 1، ص 389. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 6،

ص 515.

⁽¹⁵⁶⁾ انظر ترجمته في: ابن نقطة، كتاب التقييد، ج 2، ص 109 (الرقم 437). أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 58. ابن الساعي،

الجامع المختصر، ص 214-215. الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 242-243. الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 261 (الرقم 958).

الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 18، ص 248 (الرقم 6974). ابن كثير، البداية و النهاية، ج 13، ص 56. ابن رجب، الذيل على خبقات

الحنابلة، ج 2، ص 40-41 (الرقم 221). التادفي، قلائد الجواهر، ص 92-93. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 7، ص 18-19.

⁽¹⁵⁷⁾ ابن نقطة، كتاب التقييد، ج 2، ص 109.

⁽¹⁵⁸⁾ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 58. وقال ابن كثير في البداية و النهاية " لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات " ج

13، ص 56.

⁽¹⁵⁹⁾ ابن الساعي، الجامع المختصر، ص 214-215.

وأُملى ودرّس وخرّج وأُفتي، وتخرج به جماعة⁽¹⁶⁰⁾، "لكن معرفته بالحديث غطت على معرفته بالفقه⁽¹⁶¹⁾"، وكان منقطعاً في منزله عن الناس لا يخرج إلّا في الجمععات، "وكان خشن العيش صابراً على فقره، عزيز النفس عفيفاً على منهاج السلف"⁽¹⁶²⁾، وهو والد قاضي القضاة أبي صالح نصر بن عبد الرزاق.

ومن أحفاد الإمام عبد القادر الذين لهم صلة بموضوع البحث: قاضي القضاة أبو صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي⁽¹⁶³⁾ (ت 633 هـ)، كان فقيهاً حنبلياً واعظاً، وكان مقدم مذهبه وشيخ وقته، درّس في مدرسة جده وغيرها، وقلد قضاء القضاة في خلافة الظاهر بامر الله "ولم يقلد قضاء القضاة حنبلي سواه"، فسار سيرة حسنة من فتح بابه ورفع حُجابه والجلوس للناس عموماً والالذان على بابه والخروج إلى صلاة الجمعة راجلاً، ثم عزل سنة 623 هـ فرجع إلى مدرسة جده يدرس ويفتي، ولما تكامل بناء الرباط المستجد بدير الروم جعل شيخاً على من به من الصوفية إلى أن توفي⁽¹⁶⁴⁾، "وتخرج به في علمي الشريعة والحقيقة أناس من اهل بغداد"⁽¹⁶⁵⁾.

وله كلام حسن في إشارات الصوفية⁽¹⁶⁶⁾. وكان مقداماً من الرجال لا يهاب، وله أشعار في الزهد، وفي سنة 630 هـ انفذ رسولاً إلى الموصل وأربيل⁽¹⁶⁷⁾. وقد أُلّف في التصوف، وبُنيت له دكة بجامع القصر للمناظرة، وكان له قبول تام، وكان يحضره أناس كثيرون، ويبدو أنه كان يتمتع

⁽¹⁶⁰⁾ الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 242-243.

⁽¹⁶¹⁾ ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 2، ص 41.

⁽¹⁶²⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 41. نقلاً عن ابن النجار.

⁽¹⁶³⁾ انظر ترجمته في: الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 245. مجهول، الحوادث، ص 115-117. الفوخى، كمال الدين أبو الفضل

عبد الرزاق بن أحمد الحنبلي، (ت 723 هـ). تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، الجزء الرابع، 3 م، (تحقيق الدكتور مصطفى جواد)، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، 1962-1965. ج 4، قسم 2، 873 (الرقم 1295). الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 356 (الرقم 1363). تاريخ الإسلام، ج 46، ص 173. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 27، ص 46 (الرقم 36). ابن رجب، الذيل على خبقات

الحنابلة، ج 2، ص 189 (الرقم 307). ابن العماد، شذرات الذهب، ج 7، ص 281.

⁽¹⁶⁴⁾ مجهول، الحوادث، ص 115-117. ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 2، ص 191.

⁽¹⁶⁵⁾ الشطنوفى، بهجة الأسرار، ص 245.

⁽¹⁶⁶⁾ الذهبي، المختصر المحتاج إليه، ص 356.

⁽¹⁶⁷⁾ الفوخى، تلخيص مجمع الآداب، 4، قسم 2، 874.

بمكانة كبيرة عند الناس إلى الحد الذي جعلهم يدفنونه في دكة الإمام أحمد بن حنبل، إلا أنه قبض على من فعل ذلك، ثم نبش القبر ليلاً بعد أيام ونقل جثمانه إلى مكان آخر⁽¹⁶⁸⁾.

ويبدو أن نصراً قد التقى بالإمام محي الدين بن عربي وجرى بينهما مناظرة في حديث من أحاديث الصفات⁽¹⁶⁹⁾. كما يذكر أنه ولي النظر في جميع الوقوف العامة ووقوف المدارس الشافعية والحنفية وغيرها، فكان يولي ويعزل في جميع المدارس حتى النظامية، وكان المستنصر يعظمه ويجله ويبعث إليه أموالاً كثيرة ليفرقها⁽¹⁷⁰⁾.

يستنتج مما تقدم أنه استمر احترام الناس، الخاصة منهم والعامة، لأبناء الإمام عبد القادر الجيلي وأحفاده، وبخاصة الذين حملوا منهم رسالة الإمام عبد القادر، خليفة القرن السادس وحتى سقوط بغداد بيد التتار سنة 656 هـ. وقد تابع أكثرهم خريق الإمام عبد القادر في الفقه والتصوف فكان منهم محدثون وفقهاء ومفتون ومدرسون وقضاة، وكانوا كلهم حنابلة. وقد كان ارتحال بعض أبناء الإمام عبد القادر إلى خارج بغداد، واستيطانهم وتناسلهم حيث استقروا، من العوامل التي ساهمت في انتشار التصوف خارج بغداد كالجبال وبلاد الجزيرة والشام ومصر والمغرب والاندلس.

⁽¹⁶⁸⁾ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 46، ص 174-175.

⁽¹⁶⁹⁾ ابن رجب، الذيل على خبقات الحنابلة، ج 2، ص 190.

⁽¹⁷⁰⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 190-191.

آداب الصعبة عند عبد القادر الجيلي :

1 - واجبات المريـد : وضع الإمام عبد القادر جملة من الواجبات التي يلتزم بها المريـد المبتدئ يمكن حصرها فيما يلي :

أ- الاعتقاد الصحيح هو الأساس .

ب- التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمراً ونهياً أصلاً وفرعاً.

ج- الصدق والاجتهاد والإخلاص مع الله والوفاء بوعده وامتنال امره والاستمرار في عبادته ومرضاته ومحبته وكل ما يؤدي إلى قربه.

ح- الحذر من التقصير ومخالطة المقصرين أبناء القيل والقال أعداء الأعمال والتكاليف المدعين للإسلام.

خ- الإتصاف بصفة الكرم مع اليقين والاعتقاد أن الله لم يخلق ولياً بخيلاً.

س- الرضا بعدم الشهرة وخمول الذكر وترك الغرور وقتل الشهوات والرضا بالجوع والحرمان.

ش- الايثار وتقديم أقرانه عند الإمام وفي مجالس العلم، وعند العلماء وأصحاب الفضل فيجوع هو يشبع الباكون ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.

ر- أن يطلب من الله الستر ومغفرة ما سلف من الذنوب والعصمة فيما بقي من العمر والتوفيق لما يحبه الله سبحانه من الأعمال الصالحة والرضا عنه في حركاته وسكناته.

ز- أن يتحجب إلى الشيوخ وإلى جميع الصالحين وأن يعفو ويصفح عن زلات الغير وإساءات الناس إليه.

ع- أن يزهد في الملذات وأن يقاوم الرغبة في التوسع في الشهوات (171). هذه هي مجمل الواجبات التي ينبغي على المريـد أن يقوم بها وهي كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونيل الصفات (172).

2- آداب المريـد مع الإمام : نظراً لأهمية صلة المريـد بالإمام فقد وضع الإمام عبد القادر الجيلي آداباً خاصة بالمريـد تجاه شيخه الذي سيصاحبه وهي :

أ- خيـاعته وعدم مخالفته في الظاهر أو الاعتراض عليه في الباطن مع الإكثار من قراءة " ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين ءامنوا " (الحشر، آية : 10).

¹⁷¹ الغنية للجيلاني (163/2) بتصرف يسير.

¹⁷² الإمام عبد القادر الجيلي ص 530.

وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفر منه الإمام بسببه.

ب- أن يستمر ما قد يرى من عيوب الإمام ويتهم نفسه فربما وقع ذلك لعدم فهمه مراد الشيخ، فإذا لم يجد للشيخ عذراً استغفر له ودعا بالتوفيق ولا يخبر أحداً بما حدث منه ولا يعتقد أن الإمام معصوم، وإنما حصل منه وإنما هو عن غفلة.

ت- ملازمة الإمام وعدم الانقطاع عنه وإذا حدث وأن عبس في وجهه أو غضب عليه أو ظهر إعراض فليفتش في نفسه وما عسى أن يكون قد وقع منه من سوء أدب أو تفريط بترك أمر الله أو فعل نهيه وعليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل.

ث- أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه وأن يفعل معه ما يسره.

ح- أن يحظى الإمام بثقة مريده ويقينه بأنه أهل لأن يتلقى العلم والمعارف على يديه.

ج- أن يحذر من مقارفة الذنوب لأنها تذهب ببركة العلم وتغير الحال كما حدث لآدم حينما أخرج من الجنة بسبب الذنب.

س- ألا يتكلم أمام شيخه إلا للضرورة وأن يسكت إذا دارت مسألة عند شيخه ولو كان الجواب عنده بل ينتظر ما يقوله شيخه ولا يعارض (173).

3- الآداب المتعلقة بالإمام تجاه مريده :

أ- أن يقبله الله تعالى ويتعمده بالنصيحة والرفق واللين فيكون معه كإبيه وأمه شفقة ورحمة وألاً يحمله مالا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع ومن الرخص إلى العزائم.

ب- إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.

ح أن يثبته على الطريق وألاً يعمل ما من شأنه التذفير لأن القصد هو الله وما كان لله دام واتصل.

س- أن يراقب سلوكه فإذا رأى مخالفة للشرع وعظه وزجره وحذره من العودة ورغبة في التوبة إلى الله.

ع- أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق، لأنه محل القدوة والرحمة يرمى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبئه (174).

¹⁷³ الغنية للجيلاني (164/2).

4- آداب صحبة الإخوان : بدأ الإمام عبد القادر الجيلاني تلك الآداب ببيان آداب صحبة الإخوان وما ينبغي مراعاته في التعامل معهم من ذلك.

أ- الإيثار والصفح عنهم والقيام معهم في شؤونهم وتقديم الخدمة الممكنة لهم.

ب- ألا يرى له على أحد حقاً ولا يطالب أحداً بحق بل يرى أن لكل منهم عليه حقاً ثم يجتهد في أداء حقوقهم.

ت- أن يظهر لهم الموافقة في جميع ما يقولون أو يفعلون - وهذا محمول بالطبع على قول الحق والفعل الحسن - وأن يتأول لهم ويعتذر عنهم.

ج- أن يجتنب مجادلته ومخالفته ويتعامى عن عيوبهم فإن خالفه أحد منهم في شيء سلم له ما يقول في الظاهر وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقول (175) - وهذا أيضاً محمول على كون الخلاف في الأمور العادية والحياتية أما إذا كان الخلاف في شيء من الشرع فلا بد من بيان الحق بدليله وعدم الموافقة على الباخل.

ر- أن يجتنب فعل ما يكرهونه من حق أو أذية أو غيبة (176).

س- أن يكون المعيار لعلاقات الإنسان بالآخرين هو الحب في الله - عز وجل - والبغض فيه يقول في هذا المعنى : إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة، فابشر بموافقتك لله عز وجل ولرسوله وإن كانت أعماله فيهما محبوب وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالماً له ببغضك إياه وعاص لله عز وجل ولرسوله مخالف لهما فتب إلى الله عز وجل من بغضك وأسأله عز وجل محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده. لتكون موافقاً له عز وجل، وكذلك أفعل بمن تحبه يعني أعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبه فيهما فاحبيه، وإن كانت مبغوضة فابغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك قال عز وجل : " ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (ص، آية : 26) (177) . وهكذا ومن خلال تلك الآداب فإننا نرى أن الإمام عبد القادر الجيلاني لم يجعل من التصوف حالة انفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان لأن كماله وسمو أخلاقه لا تبرز بمجرد حصوله على المعارف العلوم وإنما تظهر في حالة احتكاكه ومخالطته وتعامله بمن يعيش

¹⁷⁴ الغنية للجيلاني (168/2) بتصرف يسير.

¹⁷⁵ الإمام عبد القادر الجيلاني ص 534 الغنية للجيلاني (169/2).

¹⁷⁶ الغنية (169/2) الإمام عبد القادر الجيلاني ص 535.

¹⁷⁷ فتوح الغيب للجيلاني، المقالة العادية والثلاثون ص 75.

معهم في المجتمع بمختلف فئاته وخبقاته وهو الملح الذي يظهر الإنسان على حقيقته ولذا كان لا بد من مراعاة تلك الآداب حتى تنصلح الأحوال وتتقارب القلوب (178).

المقامات :

1 - التوبة كان الإمام عبد القادر الجيلي يركز عليها ويهتم بشأنها؛ قال العلامة أبو الحسن الندوي : ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية قوي الإيمان قوي العلم قوي الدعوى قوي التأثير هو الإمام عبد القادر الجيلي فجدد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصرعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى (179).

والإمام عبد القادر الجيلي يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها يقول : اغتنموا باب التوبة وادخلوا ما دام مفتوحاً لكم (180) ، ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول : تب وأثبت على توبتك فليس الشان في توبتك الشان في ثبوتك عليها ليس الشان في غرسك الشان في ثبوته وتغصينه وثمرته (181) . قد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي إذ يقول : يا غلام لا تياس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل أغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها (182) .

وعن التائبين يصنف الإمام عبد القادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف : توبة العوام وتوبة الخواص وتوبة خاص الخاص ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل، ثم يوضح معنى قوله تعالى : " وتوبوا إلى الله جميعاً أية المؤمنون لعلكم تفلحون " (النور ، آية : 31) بان هذا : خطاب للعموم بالتوبة وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع يقال تاب فلان من كذا أي رجع عنه فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بان الذنوب والمعاصي مهلكات مبعديات من الله عز وجل ومن جنته وتركها مقرب إلى الله عز وجل

¹⁷⁸ الإمام عبد القادر الجيلي ص 535 ، 536.

¹⁷⁹ رجال الفكر الدعوة نقلاً عن الإمام عبد القادر ص 597.

¹⁸⁰ الفتح الرياني للجيلاني، المجلس الرابع ص 18.

¹⁸¹ الإمام عبد القادر الجيلي ص 597.

¹⁸² الفتح الرياني ، المجلس الثالث عشر ص 48.

وجنته فكانه عز وجل يقول : أرجعوا إلي من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا رحمتي الجنة العليا المعدة للأبرار (183) ، كما يقرر الإمام عبد القادر الجيلي أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها (184) .

ثم يعرف الكبائر بأنها : ما توعد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا وأن بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة : أربع في القلب؛ وهي الشرك بالله والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله وأربع في اللسان : وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر. وثلاث في البطن وهي : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا. واثنان في الفرج وهما : الزنا واللواط. واثنان في اليدين ، وهما : القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف ، وواحدة في جميع البدن : وهي عقوق الوالدين (185) . وتحدث عن صدق التوبة : وصحتها ووضع لها شروط ثلاثة

أولها : الندم على ما عمل من المخالفات :

وثانيها : الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

وثالثها : العزم على ألا يعود إلى ما اقترف من المعاصي ، والخطيئات (186) . ووضع الإمام عبد القادر الجيلي للتوبة معياراً دقيقاً هو : توجّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته فيعزم على ألا يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من شؤم ذلك (187) . ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو أربعة أشياء.

- أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.

- ألا يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة أن يفارق إخوان السوء.

- أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في خاعة ربه (188) .

ويرى الإمام عبد القادر الجيلي أن التوبة على وجهين:

¹⁸³ الغنية للجيلاني (116/1).

¹⁸⁴ الغنية (116/1).

¹⁸⁵ المصدر نفسه (117/1).

¹⁸⁶ المصدر نفسه (122/1).

¹⁸⁷ المصدر نفسه (122/1).

¹⁸⁸ الإمام عبد القادر الجيلي ص 600.

أحدهما : في حق العباد بعضهم تجاه بعض وهذا لا يتحقق إلاّ برد المظالم والتحليل من الحقوق بإعادتها إلى أصحابها.

والثاني : يتعلق بحق الله تعالى فتكون التوبة منه بالاستغفار الدائم باللسان والندم بالقلب والإضمار على ألاّ يعود إليه في المستقبل (189) . هذه هي التوبة عند الإمام عبد القادر الجيلي ونظراته إليها وتوجيهاته للتائبين وقد أوردتها بعبارات جميلة وترقيقات بدیعة تدل على حساسية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها (190).

2- الزهد : والإمام عبد القادر الجيلي يفرق بين الزاهد الحقيقي والملتزم الصوري فيقول : الملتزم يخرج الدنيا من يديه والزاهد الملتحق في زهده يخرجها من قلبه (191) ويقول : الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه فيناولها ويلبس ظاهره بها قلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها (192) ويقول : وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها يملكها ولا تملكه تحبه ولا يحبها تعدو خلفه ولا يعدو خلفها يستخدمها ولا تستخدمه يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عز وجل فلا تقدر الدنيا تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه (193) ويقول : المؤمن له نية صالحة في جميع تصرفاته لا يعمل في الدنيا للدنيا يبني في الدنيا للآخرة يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط ويهذب خرق المسلمين وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء ومالا بدّ له منه يفعل ذلك حتى يبني له في الآخرة (194).

وبين الإمام عبد القادر أن الزهد ليس أمراً سهلاً يمكن الإتصاف به دون تعب أو معاناة، كما أنه ليس في قدرة كل واحد أن يكون زاهداً ، لأن الزهد على حد تعبير الجيلي : منة صالحة وإلاّ فما يقدر أحد أن يزهد في قسمه. المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشرة ولا يستعجل. زهد في الأشياء قبله وأعرض عنها سرّة واشتغل بما أمر به وعلم أن قسمه لا يفوته فلم يطلبه ترك الأقسام تعدوا خلفه وتدل وتسأله قبولها (195) وقال : يا غلام هذا الزهد ليس صنعة تتعلمها ليس هو

¹⁸⁹ الغنية للجيلاني (126/1).

¹⁹⁰ الإمام عبد القادر الجيلي ص 600.

¹⁹¹ الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص 106.

¹⁹² المصدر السابق، المجلس الخامس والعشرون ص 89.

¹⁹³ المصدر نفسه المجلس الرابع والثلاثون ص 113.

¹⁹⁴ الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس السادس عشر ص 59.

¹⁹⁵ الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثامن والعشرون ص 98.

شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل (196)

والإمام عبد القادر الجيلي يربط بين العلم والزهد، ويرى لا بُد من تلازمهما للوصول إلى الله عز وجل وهذا واضح من قوله : ما وصل من وصل إلا بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها بالقلب والقلب (197).

وقال : من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه (198). وكان رحمه الله على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الذي قال في الزهد : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخوص الثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين وعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد فقال : وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد (199)

ثم إن التجربة الصوفية عند الإمام عبد القادر ، بجميع أبعادها وبمراتبها كافة تركز أساساً على فعالية الذكر ، وليس في ذلك أدنى مبالغة ، لأن جميع الصوفية في الإسلام ، هم ذاكرون بالضرورة ، ولا يمكن لأي إنسان أن يتزيا بزي الصوفية أو حتى يتشبه بهم وهو تارك للذكر ، فبالذكر تنجلي القلوب بعد صدئها وتتنور بعد عتمتها (1) وتفتح مغاليقها ، وبالذكر تصح النفوس وتتجاوز هفواتها وتسمو على نقائصها ، والذكر وحده هو الذي يكرس العبد لمحبة مولاه ، لأن الحب بادق دلالاته يعني الذكر ، ولا يمكن لأي إنسان أن يتخيل محباً غافلاً عن محبوبه أو عاشقاً ساهياً عن معشوقه ، والذكر أيضاً لا تصح فروضه ، إلا إذا توجه الذاكر بقلبه وعقله ولسانه حصراً نحو الله تعالى ، فهو إذن يأتي بمعنى الصلاة ، والذاكر الصادق في ذكره هو في صلاة حية ومتواصلة مع ربه ، لأنه إذا كان المغزى من الصلاة هو إنشاء معادلة صلة ، خرقاها العبد والرب إذ يواصل

¹⁹⁶ الإمام الرياني للجيلاني ، المجلس الثلاثون ص 107.

¹⁹⁷ المصدر نفسه ص 106.

¹⁹⁸ المصدر نفسه المجلس الثاني والستون ص 232.

¹⁹⁹ مدارج السالكين لابن القيم (12/2).

(1) الجيلي - الفتح الرياني والفيض الرحمانى - ص 106 ، والإمام عبد القادر يستشهد هنا بالحديث النبوي الشريف: إن هذه القلوب لتصدأ وإن جاءها قراءة القرآن وذكر الموت وحضور مجالس الذكر.

العبد ربه بالتضرع والخشوع والدعاء ويواصل الرب عبده بالرحمة والقبول والاستجابة ، فان الذكر ما هو في حقيقته إلا محاولة لتحقيق هذه المعادلة على أتم وجه ومن أقرب الطرق فيقول :

وجامعي مجلسي والدرس سنتي ومنبدي فكري والعلم مطلوبــــي (1) وهذا هو موخن الأهمية في الذكر عند الصوفية.

الذكر والتوحيد:

إن اشتغال قلب العبد بذكر المرغوبات والمطلوبات يعد في عرف الصوفية شركاً صريحاً ووثنية ظاهرة ، مما يحتاج معه إلى فاس إبراهيم الخليل (عليه السلام) (1) وإصراره وإخلاصه كي تزال ويتطهر منها معبد القلب فيتاهل من جديد ليكون عرشاً للرحمن. وهذا الفاس لا يعني في الحقيقة ، إلا مداومة على ذكر الله تعالى ، فهذا الفعل هو وحدة الكفيل بتحطيم تلك الأصنام التي هي كل ما سوى الله عز وجل ، كما يقول الإمام عبد القادر فان: ((القلب لا يصلح للتوحيد ولا يفلح في المحبة ، حتى يترك كل محبوب ويقطع كل موصول ويزهد في كل مخلوق)) (2). أي حتى يخلص في ذكره لمذكور واحد وهو الله تعالى ، ومن غرس هذا الذكر ، يثمر التفريد والتمجيد والتعظيم وتثمر المحبة ويثمر القرب ، وهذه هي مقاصد القوم ومطامحهم.

الذكر والحب الإلهي:

اصل المحبة متعلق أولاً بإرادة المحب وتوجه قصد مرامه لطلب المحبوب ، وهذا ما يجسده الذكر الذي إن داوم عليه العبد فان الله تعالى سيحمله بجناح لطفه إلى مقعد صدق عنده وهذا (المقعد) هو الذي يفضي به إلى المحبة. فاما إذا تمت المحبة ، وملاً المحبوب فضاء قلب المحب كله ومملكه عندئذ تسقط الإرادة عن المحب وتكون بواعثه مستمدة من إرادة محبوبه ، وهذه كما يسميها الإمام عبد القادر ((حالة المحبة الخالصة)) (2) وهي للمحبين الذين لا يفترون عن ذكر محبوبهم خاصة فإذا ما سمع هؤلاء المحبون ذكر محبوبهم لهم ، فسيعتريهم حبور عظيم ، لدخولهم في حال

(1) التادفي - قلائد الجواهر - ص 17. ويتشهد الإمام عبد القادر هنا بالحديث الشريف الذي يسأل فيه الإمام علي (عليه السلام) النبي محمد (ﷺ) عن أقرب الطرق إلى الله تعالى وأفضلها عنده وأسهلها على عباده؟ فإقل (ﷺ): يا علي عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوات.

(1) الجيلي - فتوح الغيب - ص 93.

(2) الجيلي - جلاء الخاخر - ص 45.

(2) المصدر السابق - الصفحة نفسها.

جديد وارتقاؤهم إلى مرتبة أعلى ، وهي مرتبة المحبوبين المرادين الذين خفت عنهم الأحمال وشملتهم يد العناية الإلهية ، استحقاقاً منهم فضلاً ومنة من الله تعالى والمحبوبون يكونون بهذه المرتبة قد انتقلوا من حالة الشوق التي تنتفي عند تحقق اللقاء ، إلى حالة الاشتياق التي لا ينفذ لها معين والتي لا يزيدها اللقاء إلا حدة واضطراباً. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى تأكيد الإمام عبد القادر على الربط العضوي بين أجزاء نظريته الصوفية ، وكما هو واضح ، فالذكر يفضي إلى كل من الزهد والتوحيد والصدق والمحبة في الوقت نفسه ، على أن هذه النظرية لا تختل ولا تهتز أركانها فيما لو استبدلنا الذكر بأي فعالية أخرى من الفعاليات الصوفية لأن النتيجة ستكون واحدة في كل الأحوال.

مصدر الذكر

ولا يفوت الإمام عبد القادر أن يذكرنا أن شوق الإنسان إلى ذكر ربه ، مثله في ذلك مثل كل الأحوال الصوفية الأخرى ، لا يعد فعلاً إنسانياً خالصاً - أي يصدر فقط عن إرادة الإنسان وقصده - وإنما مصدره الأول هو الرحمة الإلهية التي إن هب نسيمها على أرواح الذاكرين ، اهتزت تلك الأرواح خرباً لذلك وسعت إلى الانطلاق من أقفاص أشباحها ، متوهجة بذلك الشوق ، ومن توهجها هذا تستضيء العقول والقلوب وهذا هو معنى الجلاء والتألق الذي يسعى الصوفية ، عن خريق الذكر إلى بلوغه.

وكما نلاحظ ، فإن عملية التوهج قد بدأت من الأرواح أولاً ، التي هي الأنفس بعد صفائها والتوهج ما هو إلا عملية تنوير معنوية ، أي معرفية ، يفيض معينها من داخل النفس الإنسانية ، بعد استكمالها شروط الجلي المطلوبة والتي مررنا بها سابقاً عبر محطات الزهد والمجاهدة وأنواع الرياضات الروحية ، والتي جاء عامل الذكر أخيراً ، كي يمنحها القدر المطلوب لكل هذا التوهج. على أن هذه المعرفة وإن كانت ذاتية المصدر إلا أنها لدنية الأصل ، لأن مصدرها الحقيقي هو المعرفة الإلهية المغروسة في أصل الفطرة الآدمية والتي لا تخرج إلى حيز الوجود إلا بعد أن تتواصل مع منبعها الإلهي عبر قنوات النور التي ينشئها الذكر. ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن كون الشوق الإنساني إلى الذكر يبدأ من خارج ذاته ، فإن ذلك لا يلغي دور الإنسان في التواصل وهذا هو بالضبط ما يميز الذكر من الحب الإلهي عند الإمام عبد القادر ، فالذكر هو مقام خلب وقصد ، وهو مما يشير إلى الافتقار إلى إرادة العبد ، بينما الحب الإلهي وهو التحفة الربانية الخالصة ، فإنه من محض

الاصطفاء وليس للعبد فيه كسب ولا اختيار، ولذلك نجد أن الله تعالى قد قدم ذكرنا على ذكره كما في قوله تعالى : "إذكروني إذكركم"(1).

بينما قدم محبته على محبتنا وذلك في قوله تعالى الذي يصف فيه المؤمنين "يحبهم ويحبونه"(2) وفي الخلاصة فإن الذكر يمكن أن يعد من بين الفعاليات الصوفية المزدوجة المصدر، فهو فتح من الله تعالى من جهة وقصد من العبد من الجهة الأخرى.

3- التوكل : تناول الإمام عبد القادر الجيلي مسألة التوكل وتعرض لأربع مسائل.

- الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته : فقال : الأصل فيه قوله تعالى : "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" (الطلاق ، آية 3) وقوله عز وجل : "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين" (المائدة، آية 23). وحقيقته تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير فيقطع العبد ألاّ تبديل للقسمة فما قسم له لا يفوته ومالم يقدر له لا يناله فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه (200).

المسألة الثانية : أقسام التوكل ودرجاته : يرى الإمام عبد القادر الجيلي أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض : فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه (201) ولكن ابن القيم يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات :

الأولى : معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه صدورها عن مشيئته وقدرته وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية : إثبات الأسباب والمسببات.

الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيدة، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكل معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلاّ برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

(1) البقرة / 152.

(2) المائدة / 54.

²⁰⁰ الغنية للجيلاني (189/2).

²⁰¹ الغنية للجيلاني (189/2).

الرابعة : اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها لأن اعتماده على الله وسكونه إليه ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وخبثته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة : استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه ولهذا فسّره من قال : أن يكون العبد بين يدي الله كامليت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة : التفويض وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به خلباً، واختياراً لا كرها واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه (202).

المسألة الثالثة : ثمرات التوكل : ويرى الإمام عبد القادر الجيلي أن للتوكل ثمرات فقد قال : من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذب ويهديه ويريه العجائب لا تتوكل على درهمك، ودينارك وأسبابك فإن ذلك يعجزك ويضعفك وتوكل على الله عز وجل، فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب (203).

وهذا ما أكده شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو يوضح معنى ما نقل عن الإمام عبد القادر الجيلي من أنه رؤي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه : من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال فالأولتان : العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى : في الحديث القدسي : من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة (204)

²⁰² مدارج السالكين (112/2).

²⁰³ الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثاني والأربعون ص 134.

²⁰⁴ البخاري رقم 7536 مسلم رقم 2675.

والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله وفي الأثر : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله (205). وعن سعيد بن جبير قال التوكل جماع الإيمان (206) ، وقال تعالى " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " (الطلاق ، آية : 3) وقوله : ومن اتبع مرادنا يعني المراد الشرعي، كقوله تعالى : " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " (البقرة ، آية : 185) وقال تعالى : (يريد الله أن يخفف عنكم " (النساء، آية : 28) وقوله تعالى : " ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليثم نعمته عليكم " (المائدة آية : 6) ... وفي الحديث الصحيح : لئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه (207) .

وقال تعالى : " ويستحب الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله " (الشورى ، آية ك 26) وقوله : ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد يعني : ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله، رجاءً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر (208) وقد قال الله تعالى : " إنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب " (الزمر ، الآية : 10) .

المسألة الرابعة : الأسباب : بين الإمام عبد القادر الجيلي اعتقاده حولها واملتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها فقال : اعتقاد المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عز وجل يقطع به وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله عز وجل المحرق بها وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله عز وجل يشبع به وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله عز وجل المروي به. وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله عز وجل املتصرف فيها وبها وهي آلة بين يديه يفعل ما يشاء (209) ، وهذا لا يعني دعوته إلى ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب، بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الإمام الجيلي هو الأخذ بالسبب والتوكل على مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد : إعط نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب (210) .

4- الشكر : تحدث الإمام عبد القادر الجيلي عن الشكر من خلال ثلاث مسائل :

²⁰⁵ الإمام عبد القادر ص 612.

²⁰⁶ السنة، عبد الله بن أحمد رقم 776.

²⁰⁷ المصدر نفسه.

²⁰⁸ البخاري رقم 7536.

²⁰⁹ فتاوى ابن تيمية (549/10) الإمام عبد القادر ص 613.

²¹⁰ المصدر نفسه ص 167.

الأولى : حقيقة الشكر : فقال رحمه الله : وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع (211).

وأما أقسامه : فإنه - رحمه الله - قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال : ثم الشكر ينقسم إقساماً إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهور بإدامة حفظ الحرمة (212).

وفي موضع آخر يصف الإمام عبد القادر الجيلي كيفية الشكر فيقول : أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله عز وجل وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجودها والسبب لها هو الله عز وجل والقاسم هو الله والمجري هو فهو أحق بالشكر من غيره. وأما الشكر بالقلب. فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المنبرم أن جميع مابك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل ولا من غيره ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك وأما شكر الجوارح : فبان تحركها وتستعملها في خاجة الله عز وجل دون غيره من الخلق فلا تجب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى ، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأمانى وسائر الخليقة بحيث تجعل خاغت الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً (213).

وأما أصناف الشاكرين : فقد جعلهم ثلاثة أصناف :

الأولى : من وصفهم بالعالمين وهم السواد الأعظم من العباد وشكرهم يكون من جملة أقوالهم. والثاني : من وصفهم بالعابدين وهم المؤمنون على وجه العموم والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم يكون نوعاً من أفعالهم.

والثالث : من وصفهم بالعارفين والمقربون وشكرهم باستقامتهم لله عز وجل في سائر أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله عز وجل بتوقيفه سبحانه (214).

²¹¹ الغنية للجيلاني (193/2).

²¹² الغنية للجيلاني (194/2).

²¹³ فتوح الغيب للجيلاني ص 134.

²¹⁴ الغنية للجيلاني (194/2) الإمام عبد القادر الجيلي ص 621.

5- الصبر: تحدث الإمام عبد القادر الجيلي عن الصبر، فقال الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى " يا أيها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون " (آل عمران، آية : 200) وقوله تعالى : " واصبر وما صبرك إلا بالله " (النحل، آية : 127) وقوله صلى الله عليه وسلم : إنما الصبر عند الصدمة الأولى (215)، وأما أنواع الصبر فقد ذكر الإمام عبد القادر أنه على ثلاثة أضرب :

الأول : صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

الثاني : صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

الثالث : صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والثواب في الدار الآخرة (216) . وقال عن أصناف الصابرين بانهم : ثلاثة أصناف : متصبر وصابر وصابر (217) . وأخيراً فإن الإمام عبد القادر الجيلي عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين : أحدهما : صبر على ما هو كسب من فعل أوامر الله وترك نواهيه.

والثاني : صبر على ما ليس بكسب له مما يقدر الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم فيصبر على ذلك (218) . وبالجمله فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضى بالمقدورات وهو واضح في كلام الإمام عبد القادر الجيلي - رحمه الله (219) .

6- الرضا : قال الإمام عبد القادر الجيلي : فاما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله - عز وجل - خير من قضاء المرء لنفسه وما قضاء الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عز وجل لك فيما تحب فاتق الله تعالى وأرض بقضائه قال تعالى : وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (البقرة ، آية : 216) . يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم فالله عز وجل خوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في المقدر والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة واستأثر هو عز وجل بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما

²¹⁵ البخاري رقم 1702 مسلم رقم 926.

²¹⁶ الغنية (2/195).

²¹⁷ المصدر نفسه (2/195).

²¹⁸ المصدر نفسه (2/195).

²¹⁹ الإمام عبد القادر الجيلي ص 625.

قسم الله له ولا يتهمه (220) وقال : وأعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازلته للقدر والمقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء فكل من رضى بالقضاء استراح وكل من لم يرضى به خالت شقوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلا بما قسم له (221).

7- الصدق : والأصل فيه عند الإمام عبد القادر الجيلي قوله عز وجل " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " (التوبة ، آية : 119). وما روي عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (222) .

والإمام عبد القادر يحدثنا عن صدقه في أحلك الظروف، فقد كان مثلاً للصدق منذ شبابه وهذه القصة تبين مدى صدقه حيث قال : عندما استأذنت والدتي للسفر إلى بغداد خلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاختها تحت إبط قميص وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فاخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد فاجتازني أحدهم وقال لي : كم معك يا فقير؟ فقلت أربعون ديناراً فقال : وأين هي ؟ فقلت مخاخة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهنئ به فتركني وانصرف. ومر بي آخر فقال لي : مثل ما قال الأول، فاجبته كما أجبت الأول فتركني وانصرف وتوافيا عند مقدمهم فاخبراه بما سمعاه مني فقال : عليّ به فأتى بي إليه، وإذا هم على ثلّ يقتسمون أموال القافلة فقال لي : ما معك ؟ قلت أربعون ديناراً. فقال : وأين هي ؟ قلت مخاخة في قميصي تحت إبطي : فامر به ففتّق فوجد فيه الأربعين ديناراً فقال : ما حملك على الاعتراف ؟ قلت : إن أمي عاهدتني على الصدق وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم وقال : أنت لم تحنْ عهد أمك وأنا لي كذا وكذا سنة أخون عهد ربي، فتاب على يديّ فقال له أصحابه : أنت كنت مقدماً في قطع الطريق وأنت الآن مقدماً في التوبة فتأبوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم (223).

وللصدق عند الإمام عبد القادر الجيلي منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي ذلك يقول : وأعلم بان الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله عز وجل : " ومن يطع

²²⁰ الغنية للجيلاني (197/2).

²²¹ المصدر نفسه (197/2).

²²² البخاري رقم 6094 مسلم رقم 2607 الإمام عبد القادر الجيلي ص 633.

²²³ الإمام عبد القادر الجيلي ص 64.

الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا" (النساء ، آية ك 69).

وقد فرّق الإمام عبد القادر الجيلي بين الصادق والصديق بقوله : والصادق هو الاسم اللازم من الصدق والصديق هو المبالغة منه وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه فالصدق استواء السر والعلانية والصادق هو الذي صدق في أقواله والصديق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله (224).

وهكذا يتبين اهتمام الإمام عبد القادر وتأكيداته على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة (225).

ثامناً : تأسس الطريقة القادرية : تنتسب الطريقة القادرية إلى الإمام عبد القادر الجيلي الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم والقائم على جمع المريدين وربطهم بمشايق الطريقة لتأديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت خريقه واحدة إلا في عهد الإمام عبد القادر الجيلي والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الإمام عبد القادر الجيلي (226) ، والمطلع على سيرة الإمام عبد القادر يرى في توجيهاته ووصاياه التي وصّى بها أتباعه الحرص على التمسك بالكتاب والسنة والالتزام بالأخلاق الحميدة وفيما يلي عرض لأبرز معالم الجانب النظري لهذه الطريقة :

1 - التأكيد على التمسك بالكتاب والسنة يقول رحمه الله وهو يوجّه وصيته إلى ولده عبد الرزاق : أوصيك بتقوى الله وخأعته ولزوم الشرع وحفظ حدوده، وتعلم يا ولدي وفقنا الله وإياك والمسلمين أن خريقتنا هذه مبذية على الكتاب والسنة وسلامة الصدر وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان (227)، ويقول في موضع آخر : أدخل الظلمة بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن خطر خاخر (228)، أوجّد الهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم الزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق

²²⁴ الغنية (2/200).

²²⁵ الإمام عبد القادر الجيلي ص 634.

²²⁶ المصدر نفسه ص 636، 637.

²²⁷ الإمام عبد القادر الجيلي ص 639.

²²⁸ الإمام عبد القادر الجيلي ص 640.

والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك وأهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بانه من الشيطان اللعين (229). ومن تركيز الإمام الجيلي على أهمية التمسك بالكتاب والسنة أن جعلهما المقياس في ربط العلاقات الشخصية بالآخرين بقوله : إذا وجدت في نفسك بغض شخص أو حبه فأعرضه على الكتاب والسنة ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (230).

2- خلو خريقتيه من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة في عصره نتيجة ترجمه المعارف اليونانية وتأثيرها على العقول والأفهام، حتى وقع في حبالها كثير من المتصوفة فاستخدموا ألفاظها ومصطلحاتها مثل الهيولي (231) ، والعرض، والجوهر (232) .

3- تركيزه على الاهتمام بالجوانب العملية : وتجنب الإغراق في الأمور النظرية والمقدمات الجدلية العقيمة دليل ذلك ما خبقه في حياته وماربى عليه أتباعه وما وضعه من أصول لطريقته التي تعتمد على سبعة أصول هي : المجاهدة، التوكل، حسن الخلق، الشكر، الصدق، الرضا، الصبر (233) . وقد تحدثنا عن هذه الأصول بالتفصيل في مبحث المقامات والأحوال.

4- وضعه لمجموعة من الآداب والتعاليم التي يجب أن يتعامل بها المنتسب لطريقته سواء مع النفس أو مع الإمام أو مع الناس، وقد تكلمنا عن ذلك.

5- تأكيد على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها والبعد عن نواهيه واجتنابها والرضا باقدار الله والاستسلام لها يقول : رحمه الله : لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثله ونهي يجتنبه وقدر يرضى به، فاقبل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغي أن يلزم همها قلبه، ويحدث بها نفسه ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله (234) .

وقد شرح ابن تيمية - كلام الإمام عبد القادر واستحسنه بقوله : هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهي مطابقة لقوله تعالى : " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " (يوسف، آية : 90) ولقوله تعالى : " وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً " (آل عمران، آية : 120) . ولقوله تعالى : " وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم

²²⁹ فتوح الغيب الجيلي ص 640.

²³⁰ الإمام عبد القادر الجيلي ص 640.

²³¹ الهيولي ، لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وهو جوهر في الجسم.

²³² الجوهر ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع وهو مختصر في خمسة أشياء هيولي وصورة وجسم ونفس وعقل .

²³³ الغنية للجيلاني (182/2).

²³⁴ فتوح الغيب للجيلاني المقالة الأولى ص 6.

الأمور" (آل عمران ، آية : 186) فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور والصبر يتضمن الصبر على المقدور فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين ، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو خاعة الله ورسوله وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به في ذلك الوقت وخاعة الله ورسوله هي عبادته التي خلق لها الجن والإنس كما قال الله تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " (الذاريات ، آية : 56) وقال تعالى " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " (البقرة، الآية : 21). والرسول كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وقال تعالى : " ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين " (النحل، آية : 36). وقال تعالى : " وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن ءالهة يعبدون " (الزخرف، آية : 45) ثم مضى - رحمه الله - في توجيه كلام الإمام عبد القادر الجيلي وشرح مراده من تلك العبارات (235

تمثل رؤية الإمام عبد القادر للنفس الإنسانية، امتداداً خبيعياً للرؤية الصوفية السابقة عليه. فهي عنده أيضاً تمثل مجموعة الصفات السيئة التي يحملها الإنسان، بينما الروح تمثل الحسنة منها، وهو أيضاً يرى أن لا وجود لنفس وروح مستقلة أحدهما عن الأخرى، وإنما هنالك ، فقط ، حاجز وهمي يفصل بينهما ، فالنفس فيما لو صفت وتخلصت من الصفات الرديئة، فإنها ستؤول حتماً إلى أن تكون روحاً صافية خالية من الصفات الذميمة.

النفس إذن تُعدُّ عند الإمام عبد القادر، خصماً للإنسان وغريماً، وهو يحذر ميرديه منها، بكونها خداعة مكررة مراوغة، تظهر خلاف ما تبطن وتدعو إلى عكس ما تريد (1) ولذا فإن العلاقة معها - أي علاقة الإنسان مع نفسه - (2) لا بد من أن تكون علاقة تريض وعداء ، يصل إلى حدّ التشفي منها، فيما لو لحق بها أذى أو أصابها ضرر، إنها تشكل ثنائية العقبتين اللتين تحولان بين العبد وبين

²³⁵ فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (456/10).

(1) الجيلي - جلاء الخاخر من كلام الإمام عبد القادر الجيلي - ص41.

(2) على الضد من الفلاسفة ، يرى الصوفية أن الإنسان يتكون من وحدات متعددة، يعمل أحدها بشكل مستقل عن الآخر، وأنه يمكن التحكم ببعضها دون الآخر، وأيضاً تسليط بعضها على بعضها الآخر وكان الصورة تبدو أمامنا كعملية فصل للسلطات ، إذ يفصل الإنسان بين كل من نفسه وعقله وقلبه مما يتيح له مجالاً أوسع للتعامل مع ذاته فالإنسان لا يؤخذ كله ولا يترك كله، إذ أن فيه اجزاء بيضاء واجزاء سوداء، وأنه يمكن الاستعانة بتلك على تلك.

نجاته، فإما الأولى منهما فهي الدنيا. وأما إذا قطع العبد هاتين العقبتين فإنه سيكون حتماً قريباً من ربه وبعيداً عن مكان الخطر.

وقبل أن نستعرض مع وصف الإمام عبد القادر للنفس الإنسانية، لا بدّ من أن نشير إلى أن الحديث عن النفس بوجهها الكالح، ينطبق عنده، فقط، على المرتبة الأولى أو الدنيا من مراتبها، وهي التي اصطلح الصوفية على تسميتها بـ (النفس الأمّارة بالسوء) وهي قرينة السوء التي لا تامر صاحبها إلا بإتيان الشرور والمذكرات، والتي لا يمكن أن يتخلص الشخص من أذاها، إلا إذا تخطاها إلى المرتبة التي تليها وحتى آخر مراتبها وهي (النفس الكاملة)، عندها سوف تتخلص هذه النفس من الدور الشائن الذي تقمصته، وثم فإنها لن تعود ذلك الخصم المعاند أو العدو اللدود.

الفرق بين النفس والروح

ويمكننا أن نلاحظ هنا، إن الإمام عبد القادر، كان أكثر وضوحاً من سابقه في ترسيم الحدود بين النفس والروح، وهذا إشكال واجهه الكثير من المفكرين المسلمين، إذ ورد ذكر الإنسان في القرآن الكريم، مقروناً بالنفس مرةً وبالروح أخرى، فانقسم الناس بحسب ذلك على مذاهب، فمنهم من أقر بوجود الاثنين معاً ومنهم من قال بوجود النفس دون الروح، ومنهم من عدّ النفس خاصةً بالدنيا وهي تفنى بعد الموت وأما الروح فإنها تخص الآخرة وهي تبقى خالدة بعد فناء الجسد، وغير ذلك من المذاهب. الإمام عبد القادر، واجه هذا الإشكال، من جهته، بحلٍ ممتاز، فهو يتحدث عن النفس فقط وهذه النفس كلما ارتقت إلى مرتبة أعلى، اكتسبت اسماً جديداً، واكتست بخصال وصفات، هي حتماً، أحسن من سابقتها، فإذا كانت النفس في مرتبتها الأولى تسمى بالنفس الأمّارة بالسوء، فإنها بعد ذلك يمكن أن تسمى بالروح أو بالسّر، على أن الانتقال من مرتبة إلى مرتبة أخرى لا يتم إلا عبر متابعة مفردات السلوك الصوفي.

النفس عدوة الله

النفس، إذن، بوجهها الأول، هي ضدّ الله تعالى وعدوته، نعم أنها خاضعة لحكمه وقضائه، وهي له خلقاً وملكاً، ولكن ذلك لا يمنع كونها مشتملة على شرور كثيرة تدفعها إلى تقمص هذا الدور السلبي، ولكن، يؤكد الإمام عبد القادر، أن النفس عاجزة عن أتيان ما تشتهي وما تريد، حتى يوافقها الإنسان على ذلك ويلبسها ويطيعها، فإن فعل معها ذلك، كانت صاحبة إدعاء وتمنٍ

وشهوة، وأما أن خالفها وناهزها العداء، بموافقة لربه، فإنه سيكون عندئذٍ ، خصماً أمام ربه على نفسه.(1) .

وهنا يظهر لنا الإمام عبد القادر ، مكمّن التكليف وموضع الحرية في الوجود الإنساني فعوامل الشرّ الكامنة في هذا الوجود، ما هي في حقيقتها الا عوامل سلبية غير فعالة، وعاجزة عن اثبات أي فعل من تلقائها، وإنما هي تفعل ما تفعله ، فقط، في حالة انصياح بقية قوى الإنسان لها . أن الإنسان ، في حقيقته ، محمّل بجميع الامكانيات خيرها وشرها، وما عليه الا ان يرجّح احدها على الآخر، فإن رجّح اعمال الخير، كانت اعماله هو، واستحق عليها الثواب وان رجّح اعمال الشر، كانت اعماله هو ايضاً واستحق عليها العقاب.

يرى الإمام عبد القادر، إن النفس الأمّارة بالسوء، ما كانت كذلك إلا لجهلها، ولذلك فهي تحتاج إلى تعليم، إنها سيئة الأدب وتحتاج إلى تاديب، إنها - لجهلها - لا تفرق بين الداء والدواء أو بين الحلال والحرام، أو بين ما يصلح وما يفسد، وهي فوق ذلك تواجه الآخرين بالكبر والغضب والاحتقار. إنها، قبل أن يباشرها الإنسان بالمجاهدات، (فرعونية) خاغية، مهرة غير آمنة غير مروضة غير معلمة، وهي لا تقا تنازع ربها، لأنها مصنوعة من الكبر والعظمة، ولأجل ذلك ولصعوبة وخطورة موقف العبد الذي يبغى النجاة، فإن الإمام عبد القادر، ينصح بضرورة تسليم الإنسان نفسه، بيد راض الأيمان - أي الإمام الصوفي العارف - كي تتعلم وتتادب وتطمئن، فإن اخمانت تواضعت وذلت وحسن خلقها وعرفت قدرها واحتملت غيرها، وسعت بعد ذلك إلى عمل الخير والصلاح وهو المطلوب منها.(1)

التصوف وسيلة لإصلاح النفس

إذن فالسلوك الصوفي، كما يرى الإمام عبد القادر، هو الوسيلة الوحيدة لتحصيل المعرفة الحقيقية معرفة الإنسان لنفسه ومعرفة لربه، وعن هذه المعرفة تصدر الآداب وتُستحصل المراتب وتُنال الدرجات، ولكن هذه المعرفة ليست يسيرة المنال، ولا ممكنة التحصيل بالاعتماد على الذات وحدها، بل لابد لها من معونة خارجية، وهذه المعونة يجسدها الإمام المرشد الذي اختص بطبّ النفوس وتمرس بسياستها، وتجسدها أيضاً الرسالات السماوية التي علمت الإنسان أصول الحق والحكمة والفضيلة. هذه النفس الأمّارة بالسوء، لا يمكن أن يرخى لها العنان، إذ لا بد من إن

(1) الجيلي - رسالة في التصوف - مخطوطة - دار صدام للمخطوطات - تحت رقم - (11042).

(1) الجيلي - جلاء الخائر من كلام الإمام عبد القادر الجيلي - ص 39.

تستاس وثقتاد وتحجب عنها الرؤيا، حتى لا تنظر إلى ما حولها، فيكون نظرها هذا سبباً لهلاكها. إنها لا بد من أن تكون تابعة لغيرها، لمن هو أعلى درجة وأقرب إلى ربه منها، أي القلب ثم من بعد القلب السر الذي هو أعلى درجة من القلب، فإن أخاعتهما النفس وتبعتهما، ولم تخرج لهما عن رأي واتحدت معهما، عندئذ لا تعود تفترق معهما في المطلوب أو في المقصود، فتصير حينئذ تامر بما يامران به وتنهى عما ينهيان عنه وتختار ما يختارانه، وحينئذ فقط، تصير نفساً مطمئنة. (2) ومما سبق، يمكننا أن نستنتج: إن خاعة النفس للقلب والسر، تمثل الخطوة الأكثر أهمية في السلوك الصوفي بوجه عام، فهي تجسيد أولي لحالة الفناء الصوفي التي يطمح كل مريد إلى بلوغها، فالنفس بطاعتها القلب يعني إتباعها لأوامره، التي هي أوامر تتفق ومبادئ الشريعة والحقيقة، وهذا الأتباع سيخلصها حتماً من كثير مما علق بها من معاص وأثام، فهي إذن حالة فناء موضوعية تحدث داخل الإنسان، فتبدل محل خبائه السيئة خبائاً حسنة، وهذا ما ينسجم وتعريف الإمام عبد القادر للفناء الذي هو: ((إفناء الصفات الذميمة المغروسة في نفس الإنسان واستبدالها بصفات جيدة)) (1) وهو تعريف أخلاقي بحث سياقي تفصيل الكلام فيه في موضع لاحق من هذا البحث.

إن الاهتمام الملقط للنظر، الذي يوليه الإمام عبد القادر لموضوع النفس، والذي نراه واضحاً في أكثر كتبه الصوفية، متأت من اعتقاده الجازم - وهو اعتقاد ملازم للسلوك الصوفي بوجه عام - بأن السيطرة على نوازع النفس، يعني فيما يعنيه، إلغاء نصف المسافة التي تفصل بين المرید السالك و نيل مراده الأوحد، الذي هو بلوغ أعلى درجات القرب والوصول إلى حضرة (ملك الملوك)، تلك المسافة التي يقدرها الإمام عبد القادر، تهويناً، ب (قدمين)، فقدم تقطع به الدنيا والقدم الآخر تقطع به نفسك، ثم ((ها أنت وريك)) (2)

هكذا بكل بساخة في القول والادعاء وبكل صعوبة في الفعل والسلوك، تلك الصعوبة التي حدث بالإمام عبد القادر، إلى أن يضع (قطع) المرید السالك لنفسه في الكفة المقابلة لكفة قطعه للدنيا، بكل أهوالها وبلاياها وأحلامها ومغرياتها.

إن (قطع) المرید السالك لنفسه، لا يعني التخلص منها بخلعها وإلقائها جانباً، ولا يعني تخطيها وهي باقية على ما هي عليه، فذلك لا يكون، لأن النفس الإنسانية، بكل تفاصيلها غير المرغوب

(2) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحمانى - ص 230.

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة - دار صدام للمخطوطات تحت الرقم (9166).

(2) الشطنوفى - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 44.

فيها، ما هي في حقيقتها إلا جزء من التكوين الإنساني، إنها الطبيعة البشرية التي يستحيل الفكك عنها أو تخطيها بشكل نهائي، إن الذي يحصل، من جرّاء السلوك الصوفي والمجاهدات والرياضيات، هو: تغيير النفس الإنسانية وتحويلها من حالة إلى حالة أخرى، بحيث تبدو وكأنها بدلت خلقاً آخر وكأنها قُدت من معدن جديد، هو، ضرورةً، ائتمن وأجود من سابقه، لا بل إن ثمنه لا يقارن بسابقه، إذ إن النفس معه، تكون قد خرجت منها روح وجودها، وهي روح الأنانية والكبر والطمع، ودبّ فيها بدلاً من ذلك، روح الطمانينة والصفاء فاصبحت، حينئذ، مهياة لأن ترى، هي والقلب والسّر، ربها عز وجل، رؤية ذوق ومعنى، وهذه الرؤية وهذا التجانس، لم يتحققا للنفس، إلا بعد أن خضعت وأخاعت ربها فأخمّنت، فنفخ فيها ربها، روحاً غير الروح الأولى، إنها ((روح الربوبية روح العقل، روح الزهد في الخلق، روح الوجود بالحق عز وجل، روح الطمانينة إليه والنفور من غيره)). إن السلوك الصوفي على وفق هذا المنظور، يحتاج إلى قطبين: العبد من جهة والرب

من الجهة الأخرى، العبد يسعى إلى إعداد أرض نفسه وتنقيتها وتميئتها للغرس الجديد، والرب يدركه بغيث لطفه، فيحيلها من بقاء إلى خضراء لا تثمر إلا كل خيب مفيد. إن الإمام عبد القادر بوضعه هذه (المعادلة)، يبدو وكأنه قد حلّ إشكالية التوفيق بين سابق العناية الإلهية وسعي العبد وكسبه، فالعبد دون عناية ربه، لا يمكنه أن يرتقي ويفلح في السلوك، وكذلك فإن الذي ينتظر مدد ربه من دون أن يعمل له عمله ويسعى له سعيه، فهو بلا شك، خويل الأمل.

كيفية تغيير النفس

إن كل تغيير إيجابي، يطرأ على نفس المرید، لا يتم إلا بعد أن يفارق إياه⁽¹⁾ أي يفارق نفسه بالملخالفات والمجاهدات، وأن يتطارش عن أجابتهما لما تميل إليه من الشهوات واللذات وأنواع المطلوبات. إن الهبات الروحانية، الإلهية المصدر، لا تنال، أبداً، بالتمني والادّعاء وترديد كلام أهل الطريق وحفظ حكاياتهم، وإنما تُنال بالعمل المتواصل والجهد والجوع والسهر، والمحابة والمعاداة - مجابات الخير وأهله ومعاداة الشر وأهله - فلا يُحسب المرید أبداً في زمرة الروحانيين ما لم يعاد جملته ويباين جميع الجوارح وينفرد عن وجوده وحركاته وسمعته وبصره وعلمه وعقله.⁽²⁾ وجميع

(1) التونسي - رياض البساتين في اخبار الإمام عبد القادر الجيلي - ص 88.

(2) مباينة العلم والعقل، لا تعني دعوة الإمام عبد القادر إلى تعطيلهما أو الغائهما، لأن ذلك لو فهم من العبارة فانه يعني أيضاً الغاء السمع والبصر وتعطيل جميع الحواس. أن ما يعنيه الإمام عبد القادر من هذه العبارة هو: أن لا يشكل العلم والعقل حاجاً يحول بين المرید السالك و نيل مبتغاه، ولذا فانه يعتمد إلى توجيههما الوجه الصحيحة بأن يجعل منهما تبعاً للقلب، لا أن يكون القلب تبعاً لهما فيحجبا ويؤخره. أن القلب هو أداة المعرفة الأولى عند الصوفية، وأما المعرفة للدنية فهي المعرفة التي يسعى الصوفي أولاً إلى

ما كان منه قبل وجود الروح فيه، (3) وجميع ما أوجد بعد نفخ الروح فيه لأن جميع ذلك يشكل حجاباً يحجب الإنسان عن ربه، فإذا تجاوز ذلك، وعقد العزم على هذا التغيير، فإنه سيصير روحاً فريدة، سرّاً سرّاً، غيب الغيب، فيباين الأشياء في سره، عاداً الكل عقبةً وحجاباً وظلمة، حينئذٍ فقط، يصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه إنسان من الصفاء والنقاء والوجود السامي الذي يحاكي وجود الملائكة المقربين. فيؤمن على الأسرار الروحية والعلوم الربانية، ثم يُردّ إليه التكوين وخرق العادات. (1) وكأنه قد بعث بعد الموت ووجد في الآخرة، لما سيعمده في نفسه من القدرات الخارقة والصفات السامية والنقاء الذي لا تغيير له، وكل ذلك يعزّيه الإمام عبد القادر إلى: إن المرید في هذه الحالة سيكون بكلّيته ومجموعة قدره ربانية، فيسمع بالله ويبصر بالله وينطق بالله ويبطش بالله، ويفعل كل أفعاله بالله، وفي الوقت نفسه يعمى عن سواه فلا يرى لغيره تعالى وجوداً، على أن كل ذلك يتقيد عند الإمام عبد القادر، بشرط حفظ الحدود والالتزام بالأوامر والنواهي. (2) وهو الشرط الذي يؤكد دائماً، بحيث إن خرقه أو عدم التمسك به يلغي الهدف من السلوك الصوفي برمته، فالصوفي السالك، مهما بلغ من الدرجات الروحية العالية ومهما ظهر عليه من الكرامات البينة والقدرات الخارقة، وانحزم معها عنده شيء من الحدود فليعلم أنه مفتون مكمور به. وليعمل، إن كان صادقاً، على إعادة قياس أفعاله، على وفق تلك الحدود. إن الإمام عبد القادر بإحكامه لهذه العبارة، لم يترك المجال، لأي دخيل، بأن يدّعي القرب من الله تعالى، وهو مخالف أو حتى متكاسل عن إتيان شروط الشرع، فلا تصوف خارج حدود الله تعالى ولا وصول بغير أجنحة الشريعة.

التوحيد غاية مجاهدة النفس

إن الغاية الحقيقية، عند الإمام عبد القادر، من مجاهدة النفس، أو من السلوك الصوفي بوجه عام تكمن في بلوغ العبد مرتبة التوحيد الحق، والتوحيد الحق عنده يعني تلك العلاقة الاستثنائية والفائقة التي تربط العبد بربه، برباط تحكمه موازنة خردية دقيقة تجمع بين عبودية العبد وألوهية

تحصيلها، معتمداً على حدسه ودرجة صفاء نفسه، ولذا فلا دور للعلم ولا عقل في هذه المرحلة، وإنما يأتي دورهما في مرحلة أخرى أي في مرحلة تحصيل العلوم الشرعية والفقهية، وهي مرحلة سابقة على السلوك الصوفي.

(3) عبارة الإمام عبد القادر هذه، لا تعني اعتقاده بوجود حياة سابقة على هذه الحياة الأرضية كتلك التي تؤمن بها بعض الطوائف البوذية، وإنما هي تدلّ على نفخ الروح التي تأتي بدلاً عن النفس، بحيث أن الإنسان، في معية نفسه الأولى، يبدو كأنه ميتاً، فيحييه الله تعالى بهذه الروح النبيلة.

(1) التونسي - رياض البساتين في أخبار الإمام عبد القادر - ص 87.

(2) التونسي - المصدر نفسه - ص 88.

المعبود فكلما ازداد إحساس العبد بثقل عبوديته من جهة، ازداد إحساسه بعظمة ألوهية خالقه من الجهة الأخرى، وهذا الإحساس يتعزز، حصراً، عن خريق تكريس فعاليات العبودية التي أقرتها الشريعة وهذا التكريس يتعزز أكثر كلما عمل العبد على التخلي عن حظوظ نفسه وسحق وازع الأنانية فيها، وكبح جماح شهواتها ونزوعها المستمر نحو مباشرة لذائذها التي لا تزيد لها - في حالة الانغماس فيها - إلا غفلةً وانقطاعاً عن الإحساس بعظمة خالقها وعن الشعور بفقرها تجاهه وحاجتها المستمرة إليه، فإذا كانت عقيدة التوحيد تمثل جوهر الدين الإسلامي، وهي يمكن أن لا يترتب عليها أي عمل أو سلوك روحي، فإن التوحيد الحق، يمثل عند الإمام عبد القادر، مرتبة روحية لا ينالها العبد إلا بعد جهد مضمٍ وأعمال شاقة، ويمكن فهم ذلك من خلال زاوية تأكيد الصوفية المستمرة على النظر إلى معاني الأمور وفحواها، وعدم حصر النظر إلى المظاهر والحركات، فكما أنه يمكن فهم معنى للصوم هو فوق الجوع والعطش، فكذلك يمكن أن يكون للتوحيد معانٍ هي أكثر عمقاً من الإقرار باللسان والالتزام بالشرائع.

إن التوحيد الحق، هو الذي يجسد حقيقة وجود الإنسان، وليس شيئاً غيره، فالإنسان ما خلق إلا ليعبد ربه، ولا يمكنه أن يعبد بعبادة هي أصح وأقرب من هذا التوحيد الذي إذا ما بلغه المرید وتحقق به من غير تلفت ولا نظر إلى مخلوق قط، فإنه سيتشرب في جميع جوارح الجسم وأفاق النفس وفضاء القلب وعمق السرّ، وسيقلب كيان العبد رأساً على عقب، يقلبه خلقاً آخر، خلقاً جديداً وعجيباً، ولا عجب، فالإنسان لا يأتيه شيء من خارج نفسه، لأنه هو في ذاته، مستودع الأسرار الإلهية ومكمن العلوم اللدنية، وموضع النبوة، وصفي الخلافة⁽¹⁾

هذا الكائن المميز الذي أشتمل خلقه على غريب الحكم، وأودع فيه الصانع أئمن المعادن الروحية وأعظم الكنوز القلبية، والذي أشتمل كيانه على غرائب أسرار الغيب وجوامع أصناف العلم الرياني، والذي حمل ثقل الأمانة التي كَلَّت الجبال عن حملها، والذي علّم الملائكة ما لم يكونوا يعلمون. ولا ندري، بعد هذا الوصف، هل إن نور التوحيد الحق هو الذي يقلب كيان الإنسان العادي، فيعيدة إلى سيرته الأولى قبل أن يهبط إلى الأرض، أم إن ذلك هو من فعل السلوك الصوفي فيه أم من تأثير الزهد في الدنيا والإقبال على الله تعالى، أم من تأثير المداومة على الذكر والعبادة ولزم حدود الشرع، أم إن كل هذه العوامل، ما هي في حقيقتها، إلا أوجه متعددة لعملية واحدة، معدنها الإنسان الحقيقي النوراني الصوفي الزاهد في الدنيا والذاكر لربه والموحد بقلبه وعقله ولسانه وكل جوارحه.

(1) استناداً لقوله تعالى، " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة " البقرة- ص 30.

مخالفة النفس

يشكل اتفاق جميع الصوفية، وبكل الأزمان، وبمختلف مشاريعهم ومذاهبهم، على قاعدة (مخالفة النفس)، دليلاً واضحاً وأكيداً على ما لهذه (القاعدة) من أهمية كبيرة في تحقيق الفعل الصوفي

وفي إنجاح المناهج الصوفية العملية التي وضعها كبار مؤسسي الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، من الذين دأبوا، ومنذ باكورة تنظيراتهم الصوفية على دراسة حالات النفس الإنسانية دراسة دقيقة ومتأنية، معتمدين في ذلك على وسائل التأمل الباطني والاستبطان والمراقبة الذاتية تلك الوسائل التي أصبحت فيما بعد، مناهج علمية يعتمد عليها علماء النفس المعاصرون. إن الإمام العارف، في الطرق الصوفية، مثلاً، يؤدي دوراً مباشراً وفعّالاً، في معرفة آفات وعيوب وأمراض نفوس مريديه، فيصف لها ما يلائمها من الأدوية المتمثلة بأنواع المجاهدات والرياضيات والأوراد والأذكار، بغية تصفيتهما وتطهيرهما وتركيزتهما، وثم التقليل من تعلقها بالجسد لأجل إخلاصها، بعد ذلك في عالم الروح والولاية.

هذه القاعدة نفسها- أي قاعدة مخالفة النفس- يتخذها الإمام عبد القادر، أساساً لبناءاته الصوفية النظرية ومساراً لمناهجه الصوفية العملية، وهو يرى إضافة إلى ما سبق: إن ماهية وفحوى العبادات التي أمرت بها الشرائع السماوية، تتلخص في مخالفة العبد لنفسه وهواه.(1)

فالإنسان مهما بذل من جهد وشمّر عن ساعدي الجدّ وبالغ في عبادته لربه، من غير ما معالجة لهوى نفسه ومكافحة لنزواتها، فإن تلك العبادة قد تعطيه مفعولاً معاكساً، فتتقلب وبالأعلى عليه وتورثه الكبر والعجب وتولد لديه الشعور بالمنة على الخالق والشعور بالتفوق على بقية العباد، فيقسو عندها قلبه وتنتفخ نفسه، وقد يبلغ بها ذلك حدّ الانفجار الذي هو موت القلب المؤدي إلى التهلكة. لذلك كان لابد أولاً، من مبادرة الإنسان صوب نفسه، وسعيه إلى تاديبها ومحاولته لتزكيتهما وتصفيتهما فالتصوف ما سمي تصوفاً في تعريف الإمام عبد القادر له، إلا لأنه فعل تصفية للنفوس وتجليه للقلوب(2) وان القلب لا يتم جلاؤه حتى تتم تصفية النفس أولاً عن خريق تاديبها وترويضها فتصير عندئذٍ مثل كلب أهل الكهف، رابضة بلا حراك، على باب الرحمة وئنادي: (يا

(1) الجيلي - رسالة في التصوف - مخطوطة - دار صدام للمخطوطات تحت رقم (11042).

(2) يُعَدُّ بشر الحافي (ت-227هـ) أول من قال بهذا التعريف، فالصوفي عنده هو: من صفا قلبه لله تعالى - انظر - الكلاباذي - التعرف لمذاهب أهل التصوف - ص5. على أن هذا التعريف ينسجم تماماً ونظرية الإمام عبد القادر الصوفية التي أن الفعل الصوفي ما هو في حقيقته إلا فعل تصفية وتطهير وتخلص من مذمومات الاخلاق والصفات وتحلٍ بالمحمودات منها.

أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك⁽³⁾ ((فحينئذ يدخل القلب إلى الحضرة ويصير كعبة لنظرات الرب، ويكشف عن جلال الملك وكمال الملك، ويستوخن خيمة القرب، ويغرس في جوار الملك، وتظهر نجابته وتسلم إليه وراثته، ويسمع النداء من الرفيق الأعلى: يا عبدي كن عندي، أنت لي وأنا لك، فإذا خالت صحبته، صار بطانة للملك وخليفته على رعيته، وغمينه على أسرارته، وأرسله إلى البحر لينقذ الغرقى وإلى ابز لهدي الضال، فان مرَّ على ميتٍ أحياء أو على عاصٍ ذكره أو على بعيدٍ قريبه أو على شقيٍّ أسعده⁽⁴⁾)). (4) وكما نلاحظ، فان الإمام عبد القادر، يسمح، بين الحين والآخر لنصوصه، بان تسترسل فتفصح عن مخبآت ومكامن هي حتماً مما لا يرضى عنه الفقهاء، بينما هو عرف بحرصه الشديد على حفظ المقاربة معهم. ولعله في ذلك كان محكوماً بمقدماته الصوفية التي لا محيص عنها، فهنا مثلاً تمثل إمامنا صورة الإنسان الرباني الفائق، الكلي القدرة، الذي اخلص في نيته في إنقاذ نفسه، وصبر لأجل ذلك وقاسى أصناف الآلام والأهوال، وحين ظفر بممراده صار هو المنقذ والمغيث لغيره، فلقد اخذ الخلافة من الله تعالى على عبادة وهي الخلافة العظمى التي لا تكون في هذه الأرض إلا لواحدٍ من البشر.

ان تأكيد الإمام عبد القادر على، ان تنقية معدن النفس وتصفية مادتها، من العلائق الدنيوية والأوهام والأمراض، يجب ان يكون هو المنطلق الأول للراقي الروحي، متأتٍ من اعتقاده بان النفس هي الأمانة على الجوارح، فاذا ما انحرفت فقد أهلكت معها الكل، وأما إذا استقامت وصفت واخمانت، عندها سيسلم اليها مهمة حفظ الجوارح، لأجل ان يتفرغ القلب بعد ذلك للسفر إلى الحق عز وجل ويطلب ما عنده⁽¹⁾ (1) ويتقرب إليه ويتنور بنوره، وان كل ما يجنيه القلب من هذه الرحلة فانه ضرورةً سيفيض من فضله على النفس ومن النفس على الجوارح، فيصفو الكل ويتنور الكل وتحصل النجاة الدائمة. إذن فالتصوف عند الإمام عبد القادر، هو حصراً تصوف القلوب وكذلك الوصول، هو وصل القلب، وأما النفس فهي في بداية أمرها تشكل عقبة في الطريق، فإذا ما تجاوزها الإنسان صحت رحلته إلى ربه وأما إن فشل في ذلك، فلا خريق ولا وصل ولا تصوف.

أطوار النفس

⁽³⁾ الفجر / 27.

⁽⁴⁾ الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 78.

⁽¹⁾ الجبلي - الفتح الرباني والفيض الرحمانى - ص 245.

من النفس المطوعة المروضة، فقط، يكون انطلاق المرید نحو هدفه، فهي التي يعمل عليها أولاً ويتعمدها بالشدة والصبر والمكابدة، حتى تصفو وتطمئن وتتنور، فنكون له عندها، كالنجم الذي يهتدي به السائرون وسط ظلمة الليل، وأما السرّ، فإن الإمام عبد القادر، يشبهه، بعد الصفاء بالشمس الساخنة وليست الشمس كالقمر وليس القمر كالنجوم، ومن غير نور الشمس لا يكون نهار ولا رؤية يقينية، فهي مراتب اذن، والصدارة فيها تكون للسر، وفي تشبيه آخر، فإن السرّ، هو الملك المتربع على عرش مملكة الإنسان وأما القلب فهو وزيره وأما النفس واللسان وبقية الحواس والجوارح، فهي خدم بين ايديهما.(2) لا تملك الا الطاعة والخضوع لهما، ولكي لا نستغرب وصف الإمام عبد القادر، للنفس، هنا بالطاعة والخضوع، فإننا نودّ ان نذكر بان مجرد سطوع شمس السرّ، داخل الإنسان، بعد جلاء نور القلب، يدلّ على تغيير معدن النفس، ضرورةً، فلولا ذلك التغيير، لما وصل الإنسان، إلى هذا الترقّي الروحي.

معارف النفس

على أساس هذا التقسيم (الطبيقي) لعناصر الإنسان، يقسم الإمام عبد القادر، معارف البشر على ثلاثة أصناف وهي: الحكمة والعلم والمعرفة، وهذه المعارف تتدرج رقباً وبالتتابع، فنجم الحكمة أولاً، وهي مما يتعلق بامور النفس والدنيا، وهي معرفة ظنية يبلغ الشك فيها مستوى أعلى من مستوى اليقين، ويسمّيها الإمام عبد القادر بـ ((مظنة التهمة)) (1)

ولعل مردّ هذا التدني في درجة اليقين، يعود إلى اعتماد هذه (الحكمة) على الحواس، مصادر للمعرفة، والحواس، كما هو معروف لا تتعامل إلا مع الأشياء المادية، وهذه لا تملك من الوجود، عند الصوفية، إلا المرتبة الثانية بعد الروح. بعد هذه (الحكمة) يأتي دور قمر العلم، وهذا الشك من المعارف الإنسانية، متعلق بامور الآخرة، وهو من اختصاص القلب، والمعرفة فيه تكون مصطبغة بصبغة الشبه، أي انه يستوي فيها الشك مع اليقين، وأما مقام القلب هنا، فهو مقام الشبه أيضاً، وذلك لتوزعه بين وجهين، فوجه ينظر صوب النفس، فيورثه هذا النظر، العلم الظني، أي الشك،

(2) الجيلي - الفتح الرياني والفيض الرحمانى - ص 223. ويمكننا ان نلاحظ هنا، عدم تأكيد الإمام عبد القادر على ذكر العقل من بين مصادر المعرفة أو مصادر (القرار) وذلك لاعتقاده، بان العقل ما هو في حقيقته، الا أداة محايدة، تميل إلى الخير أو الشر، حسب الأمر الذي يتأمر عليه، سواء أكان هذا الأمر نفساً خائشة أو روحاً -> قدسية، فالعقل، وفق هذا التصور يعدّ مطية للخير والشر على حدّ السواء، ولتأكيد هذا الرأي انظر، الشطنوفى - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 67.

(1) الشطنوفى - المصدر نفسه - ص 77.

ووجه ينظر به صوب السرّ، فيورثه هذا النظر المعرفة اليقينية. أخيراً تأتي مرتبة المعرفة، وهي تاج السرّ، وشمس المعرف، وهي مما ينظر به إلى المولى عز وجل (2)، إنها من صنف اليقين الخالص، (عين اليقين)، الذي لا يتطرق إليه الشك من قريب أو من بعيد، وأما وسيلتها، فالحدس الفائق مضافاً إليه فيض المواهب الإلهية أو ما يسمى بـ (المعارف اللدنية). هذه المعرفة، لا تجنى إلا بعد صفاء السرّ، فإذا صفا السرّ أتت منه العجائب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال بشر، حيث عالم الملكوت الأعلى، عالم القدس والخلود والقرب الأبدي.

السلوك الصوفي، اذن، على وفق هذا التشبيه، يمكن عدّه وسيلة من وسائل المعرفة البشرية وليست اية معرفة، بل المعرفة اليقينية التي تعتمد على الذوق والمشاهدة. وهذه المعرفة لا تُنال دفعة واحدة، بل لا بدّ من ان تتدرج صعوداً، ابتداءً من المعلومات الظنية التي تعتمد على الحدس والاستدلال والاستقراء، وهي مما ينطوي تحتها العلوم الدنيوية، بما فيها العلوم الشرعية، ثم بعدها في المرتبة، تأتي (العلوم) وهي مما يتعلق بالأمور الغيبية، وهذه تحتاج إلى أسس عقلية وحجج وبراهين، ولكنها تعتمد أساساً على التصديق القلبي بالأمور الغيبية والأيمان بها، الذي هو أساساً من عمل القلوب والسرائر. أما المعارف، وهي المرتبة الأخيرة، فانها تتجاوز كل ذلك داخلة بصورة مباشرة إلى عالم اليقين الذي لا يتطرق إليه شك أو حتى اشتباه، وكون المعرفة لدنية، أي إنها ربانية المصدر، ولكن كونها تأتي من خارج نطاق مدارك الإنسان فان ذلك لا يلغي دور الإرادة الإنسانية في تحصيلها، فالعبد الذي لم يهيئ وعاء قلبه لاستدراج فيضها، لا يمكن ان ينال منها قبساً واحداً، لا بل إنها تُعدّ من أصعب المعارف على الإخلاق، لأنها تحتاج إلى جهد ومثابرة عظيمين.

مما سبق، يمكننا ان نفسّر مقولة الإمام عبد القادر: ((ان السير إلى الله عز وجل - يكون - على قدر نور المعرفة)) (1) أي نور المعرفة بالنفس أولاً ثم نور المعرفة به تعالى، وبغير ذلك لا يتحقق وصول ولا يستحصل قرب، ثم إن هذه المعرفة، كما تفصح العبارة تقع على درجات، وإن هذه الدرجات تختلف باختلاف المصادر التي تنبع منها، وإن أرق درجة من درجاتها، هي تلك التي تتعلق بالسرّ، وإن هذا السرّ، إذا ما تمكن منه نور المعرفة، فسيصبح كالشمس التي تنير ما حولها، فيملئ على القلب ثم يملئ القلب على النفس المطمئنة، وهذه بدورها تملئ على اللسان واللسان أخيراً يملئ على الخلق، ومن يتكلم على الخلق ((فعليه أن يتكلم

(2) التادفي - فلائد الجواهر في مناقب الإمام عبد القادر - ص 51. ويمكن القول ان عبارة الإمام عبد القادر هذه تصلح ان تكون أساساً

لبحث مستقل يتناول نظرية المعرفة عنده.

(1) الشظنوفي - بهجة السرار ومعدن الأنوار - ص 72

بهذه الصفة (وَألا فلا يتكلم)) (2) إذ إن الكلام في الحقائق الصوفية والمراتب الروحية ، لا يمكن أن يباح لكل متكلم ، بل هو يوقف حصراً على أهله المتمرسين بحقائقه ، المجاهدين أنفسهم والحافظين أصول شرائعهم

الجدل الصاعد والجدل النازل

إن الطريق الصوفي الذي ينبغي السالك اجتيازه ، والذي ينتهي به إلى درجة القرب من المولى تعالى ، لا يمكنه قطعه دفعه واحدة ، ولا اعتماداً على الوسيلة نفسها ، بل أن هذا الطريق ، يقسمه الإمام عبد القادر على ثلاث مراحل ، وفقاً للتقسيم الثلاثي لبأخ الإنسان، المرحلة الأولى منها، يمكن للمريد السالك أن يقطعها اعتماداً على نفسه التي استتارت بعد أن تخلصت من أدراؤها وصفته، وصارت مطيعة للقلب ساعية لفعل الخير. هذه المرحلة تنتهي عند تخوم باب (الحضرة). (1) وفي هذا (المكان) تبلغ النفس منتهى مراقبها ومراتبها ، فلا وجود للنفس - بصورها كافي - فيما بعد هذه المرحلة، إذ يبدأ بعدها دور القلب ، الذي يمكنه أن يبلغ بصاحبه إلى مقام (الحضرة). أخيراً يأتي دور السر الذي وحده يمكن أن يصل إلى مقام (المخدع)، قائماً بين يدي الحق تعالى ، وهذا هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه أو يناله بشر. ولكن الإمام عبد القادر لا يوقف (مسيرة الروح) تلك، مع نهاية مطاف (جدله الصاعد) ، إذ تبدأ عنده، بعدها ، رحلة (الجدال النازل)، أو رحلة العودة من السماء إلى الأرض، فالسر بعد أن يتمكن من مقامه و ينعم بالقرب والخطوة ، وتتكشف أمامه مخبات العلوم الإلهية، يعود فيلقن القلب من معارفه الربانية (الجديدة)، فيحوّله إلى قلب جديد وهذا القلب بدوره يلقي النفس ويعيد صياغتها ، وهكذا.

الخلاص الجماعي

وهكذا يمكننا أن نلخص ، مما سبق ، إلى نتيجتين مهمتين ، تسلطان الضوء على فحوى المنهج الصوفي العملي ، أو مضمون خريقته الصوفية التي حاول أن يرسّي دعائمها وأن يبثها في الآفاق.

(2) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني - ص 54

(1) الحضرة : وهي الحقيقة الكلية الجامعة للحضرات الخمس الإلهية : حضرة الغيب المطلق وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية وفي مقابلها حضرة الشهادة المطلقة وعالمها عالم الملك وحضرة الغيب المضاف وهي تنقسم على ما يكون أقرب من الغيب المطلق وعالمها عالم الأرواح الجبروتية والملكوتية، أي العقول والنفوس المجردة، وعلى ما يكون أقرب من الشهادة المطلقة، وعالمها عالم المثل، ويسمى بعالم الملكوت، والخامسة الحضرة الجامعة للحضرات الأربع المذكورة، وعالمها الإنسان الجامع بجميع العوالم - انظر - الجرجاني - كتاب التعريفات - ص 93. وتجدر الإشارة هنا، إلى هذا التعريف ينهل من القاموس الاصطلاحي لابن عربي، الشيء الكثير، إضافة إلى أنه يحتاج إلى تعريفات كثيرة أخرى كي يصل مضمونه إلى أذهان الناس، فهو مليء بوفرة من المصطلحات التي لا تقل غموضاً عن المصطلح الأم (الحضرة). ولعل كل ذلك لم يكن حاضراً في قصد الإمام عبد القادر، الذي تعودنا منه دائماً، البساطة والوضوح.

الأولى منهما تتعلق برؤية الإمام عبد القادر للإنسان بكونه وحدة عضوية واحدة، لا تقبل التجزئة أو التفريد على الحقيقة، فالإنسان يصلح كله أو يفسد كله، ولا يمكن أن نرى في الشخص ذاته، نفساً صافيه وقلباً آثماً، أو سرّاً منوراً بنور المعارف الإلهية ويازائه روح متمرده غارقة في ظلام الجهل، بل ان مجموع الأجزاء الصالحة، تشكل إنساناً صالحاً، وان أي خلل أو نقص في احد أجزاء الإنسان، سواء أكان يمثل هذا الجزء، نفساً أم قلباً أم روحاً أم سرّاً، لا يمكن أن يعطينا إلا إنساناً ناقصاً.

الملاحظة الثانية تتعلق بنظرة الإمام عبد القادر للمجتمع البشري بكونه، أيضاً، وحدة عضوية واحدة، لا تقبل التجزئة في الواقع، فلا خلاص لإنسان بمفرده دون بقية أبناء جنسه، بل أن الصوفي الحقيقي، يكون لازماً عليه- بعد وضوح الرؤية أمامه، وبعد تمكنه من خريقته- إن يدلّ الناس على أكثر السبل نجاةً وأقربها إلى الباري عز وجل، فالنجاة، على وفق هذا المنظور، لا تكون الاجتماعية، وكذلك الإصلاح، فهو جماعي أيضاً، فلا مجال، إذن، والحالة تلك، لانطواء الصوفي على نفسه واعتزاله عن الناس بصورة دائمة. أن الصوفي الذي استطاع ان يقطع شيوخه في الصعود بنجاح، ثم توقف بعد ذلك، لا يمكن عدّه صوفياً على وجه الكمال، اذ ان هذه الصفة، لا تنال الا من خلال رحلة العودة والنزول، ثم الاندماج بالناس من اجل اصلاحهم.

معرفة النفس الأمانة بالسوء

فيما سبق، تابعنا، مع منهج الإمام عبد القادر، الصوفي، مراحل تصفية النفس الإنسانية ووسائل تحسين صفاتها، ومراقبي سمو مراتبها، وكيف انه يمكن لهذه النفس أن تغدو صالحة مطمئنة، مهيأة لان تلج إلى غرفات رضوان الآخرة من أوسع أبوابها. وهنا، لا بدّ لنا من العودة إلى نقطة البداية وإلى الخطوة الأولى من خطوات السلوك الصوفي وإلى الحالة الأولى من حالات هذه النفس. أما الخطوة الأولى فهي معرفة الإنسان نفسه، وأما حالة النفس الأولى فهي: النفس الأمانة بالسوء.

يرى الإمام عبد القادر: إن معرفة النفس الأمارّة بالسوء، يُعدّ ركناً أساسياً ومهماً من بين أركان المجاهدات والرياضيات وسلوك سبيل القوم بوجه عام.⁽¹⁾ إذ إن هذه المعرفة تدفع بالمريد السالك إلى أن يضع نفسه الأمارّة بالسوء في الموضع الذي وضعها ربها عز وجل فيه ويصفها بما وصفها به، من قبل إن تخادعه وتظهر له خلاف ما هي عليه.

ولكي لا يترك الإمام عبد القادر، كيفية هذه المعرفة مبهمّة، أو عرضة لاجتهاد المجتهدين وتاويل المتأولين، فقد وزعها على شقين:

يتضمن الأول منهما متابعة كلامه تعالى، فقد ورد فيه الكثير من الأوصاف للنفس الإنسانية، ولا يخفى ما في هذه المتابعة من تأكيد منهج الإمام عبد القادر، الذي يحث على ضرورة الالتزام بحدود وأوامر الشرع ونواهيه وإن الخطوة الأولى من مرحلة السلوك الصوفي، لا بد من أن تبدأ من خط شروع الشريعة.

أما الشق الثاني، فإنه يعتمد بالدرجة الأساس على الجهد الذاتي للمريد وعلى صبره وإخلاصه في مسعاه، فهو يتمّ عن خريق الاستبطان والرصد الداخلي والمتابعة الدقيقة لخطرات وحركات النفس، وعن خريق هذه الخطوة، يمكن للمريد من أن يعرف الكثير من خبايا نفسه وأسرارها، فلا يشق عليه بعد ذلك أو يخفى، كيفية ملاحقتها ومقارعتها وترويضها وثم حسن سياستها.

صفة النفس الأمارّة بالسوء

هذه النفس الأمارّة بالسوء، هي - كما يراها الإمام عبد القادر - أعدى للإنسان من أي عدو آخر حتى ولو كان إبليس ذاته، وإنما يقوى إبليس على الإنسان بهذه النفس ويقبولها منه، ولذا فإن على المريد إن يعرف، أولاً وقبل كل شيء، ماهية خبايعها وما رادتها، وألام تدعو وبم تامر وكيف هو تكوينها وخلقها. هذه النفس جُلِبَت بطريقة عجيبة، فهي موحن لكثير من الصفات والطبائع المتناقضة، إنها مخلوق ضعيف بذاته، ولكنها في الوقت نفسه، قوية الطمع، شرهة مدّعية، خارجة عن خاعة الله تعالى، متملكة، متمنية. إنها إن خافت، فهذا يعني في حقيقة الأمر أنها

⁽¹⁾ الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3 - ص 1326. وهذا الركن هو واحد من بين أربعة أركان يشترط توافرها في المريد السالك، فيما لو عقد العزم على انتهاج سبيل القوم وهي: أولاً معرفة الله تعالى وثانياً معرفة عدو الله إبليس وثالثاً معرفة النفس الأمارّة بالسوء، ورابعاً معرفة العمل لله تعالى أو تحري سبل الخلاص. هذه الأركان كما يرى الإمام عبد القادر، هي الطريق الصحيح وان كل ما عداها جهل وتخبط.

أمنة، وهي إن صدقت، فهذا يعني إنها كاذبة، رجاؤها أمانى ودعواها باخلة وكل شيء منها غرور، وليس لها فعل محمود ولا دعوى حق. (1)

ولولا أن الإمام عبد القادر قد ابتدأ بوصف هذه النفس بالضعف لبدا لنا إن مصير الإنسان معها محكوم لا محالة بالهلاك. ولعل ذلك (الضعف) لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، فالرهان صعب وواقع حياة البشر أصعب، أو لعل الإمام عبد القادر، كان يبغى، من وراء إظهاره لقتامة موقف الإنسان، إن يبين لنا مدى خطورة السبيل الذي يضع المرید نفسه فيه فالذي يبغى النجاة ويهدف إلى انتشال ذاته من ذلك المصير، لا بدّ عليه من إن يشمرّ عن ساعدي الجدّ وإن يشد العزم على اجتياز العقبات كافة ولو كلفه ذلك تغيير بعض خبائه والتخلص من بعضها الآخر.

إذن فعلى المرید السالك، والحالة هذه، إن لا يغتر بما يظهر له من نفسه من خاعة وخضوع، وإن لا يرجو منها خيراً أو يطمح في صواب، بل أن يبقى معها في دوام المراقبة والمخالفة والمحاسبة فهو إن حلّ عنها قيودها شردت، وإن أخلق وثاقها جمحت وإن أعطاه سؤلها هلكت وإن غفل عن محاسبتها أدبرت وإن عجز عن مخالفتها غرقت وإن اتبع هواها تولت إلى التهلكة. (1)

وعليه، فليس للنفس الأمارة بالسوء حقيقة ولا صدق ولا رجوع إلى صلاح أو خير، وهي رأس البلاء ومعدن الفضيحة وخزانة إبليس وماوى كل سوء ولا يعرفها أحدٌ غير خالقها، فهي في الصفة التي وصفها به. (2) وإضافة إلى ذلك، فإن النفس لا توصف بمنقصة أو رذيلة، إلا وهي في حقيقتها، أكثر مما توصف به، وهي لأجل كل ذلك صارت صديقة إبليس ومستراحه ومسامرته ومحدثته، فإذا عرفها المرید على هذا الوجه، فقد عرفها وهانت عليه وذلت وقوي هو عليها بالله تعالى وبمعرفته هو بها. (3)

إذن فالقصد من وراء معرفة المرید بنفسه هو: اكتساب الخبرة والدراية بها وبقدراتها ونوازعها وخبائعها، وكذلك مكامن القوة والضعف فيها لأجل التمكن منها والسيطرة عليها ولأجل الاستعداد والتأهب لمكائدها ومصاددها. فأنها إن كانت عدوة، فهذا يعني أن المرید السالك في حالة حرب مستعرة معها، فإن كان قد عقد العزم على كسب الجولة في هذه الحرب، فإن عليه إن يتبحر جيداً في معرفة عدوه وإن يعمل جاهداً على كشف أسرارته. ولكن معرفة هذا العدو (النفس) ليست

(1) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3-ص1330

(1) الجبلي - المصدر نفسه - ج/3-ص1330

(2) يشير الإمام عبد القادر هنا، إلى قوله تعالى: "وما أبريء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء" سورة يوسف - آية/53.

(3) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3-ص1330.

شعاراً يردده المرء مع نفسه، بل هي عمل دؤوب وشاق يتبعه سعي إلى تغيير دوافع النفس وتوجيهها الوجهة الصحيحة.

ويسأل الإمام عبد القادر، بعد كم وكف من المجاهدات والأفعال الشاقة والجوع والعطش، يمكن لهذه النفس، التي جبلتها وحقيقتها الأمر بالسوء، أن تماربها بامر به القلب؟ أي بمعنى آخر، إن تتهذب خباها فتصدر عنها أفعال مغايرة تماماً لما كان يصدر عنها في سابق عهدها. إنها في هذه الحالة، ستكون بحاجة إلى عملية تزويب وإفناء، فهي ((إذا ذابت وفنيت، اخمانت إلى القلب، ثم يأتي دور القلب بعدها، فيطمئن إلى السرّ، ثم يطمئن السرّ إلى الحق تعالى، فيكون شرب الجميع- أي النفس والقلب والسرّ- من هنالك(4) أي من منبع الحق والذوق والمشاهدة، وهو منبع علم اليقين الذي ما بعده علم يفوقه.

1- إن عمليتي التزويب والإفناء، لا تدلّان عند الإمام عبد القادر على قلع أو إزالة النفس بكل خباها وأهوائها ونوازعها، وإنما هما تدلّان على عملية تمثيل أخلاقي لصفات القلب وخباها الحسنة، فالنفس التي تعتاد التطلع إلى مقام القلب، لا بدّ من أن تقتبس من نوره الشيء الكثير. على أن عملية التزويب والإفناء هذه، لا تتم بنجاح إلا بعد أن يكون المرید قد امتلاً إرادة وعزماً على أن يخالف نفسه في موافقته ربه وموافقته لنفسه في خاعته ربه، في الوقت نفسه الذي يكون فيه قد خالفها في معصيتها ربه، فكل الأعمال التي ياتيها المرید، لا بدّ أن تكون مقرونة بمرواة الله تعالى وخاعته، وألا فانها لا تحسب من أعمال القلوب ولا تعدّ من فقرات السلوك الصوفي وهذا النهج- أي اقتران الفعاليات الصوفية بنية مرواة الله تعالى - يُعدّ الدليل الوحيد على صحة النهج الصوفي ومشروعيته، ويُعدّ أيضاً، الحدّ الفاصل بين صدق أم كذب هذا الفعل⁰

التصوف وطول الأمل

إذن فعملية الترقّي بطباع النفس وأهوائها ترتكز بالدرجة الأولى على الإنسان ذاته فالإنسان هو حتماً أشفق شخص وأحرصه على حفظ نفسه وإنقاذها وتجنّبها الضياع، لأنه إن ضيع نفسه فكيف يرجو من غيره أن يوليها عناية أو يحفظها له؟ ويرى الإمام عبد القادر، أن خول الأمل والحرص على الدنيا، هما أنكى ما يمكن أن يصيب الإنسان من داء يودي بنفسه إلى التهلكة والضياع، ولذا فهو ينصح مریديه وسالكي الطريق الصوفي بوجه عام، أن يجتهدوا من أجل تقصير الأمل وتقليل الحرص على الدنيا عن خريق الإكثار من ذكر الموت (هادم الذات) وعن خريق مراقبة الله عز وجل

(4) الجبلي - الفتح الرباني والفيض الرحمانى-ص174.

والتداوي بانفاس الصديقين وكلماتهم وهم شيوخ التصوف المتمرسون بطبّ النفوس وأخيراً عن خريق الذكر الصافي من التكدر، سراً وجهرأ وفي جميع الأوقات.(1)

وهذا (العلاج) الأخير، يعدّ من أهم العلامات التي تميز جماعة الصوفية من غيرهم من الجماعات، وهم في الوقت نفسه ، يعدّونه ، فيما لو صاحبه جماد النفس، من أفضل وسائل نيل درجات القرب من الله تعالى .

يعرف الإمام عبد القادر خويل الأمل بانه : من يظن إن بإمكانه أن يقترب من مولاه ، وإن ينجح في سلوك خريق القوم ، قبل أن يتمكن من تزكية نفسه وتنقيتها من الاكدار وإذابة شرورها ، وقبل أن يتمكن من تغذية قلبه بالغذاء الحقيقي ، وهو ذكر الله تعالى وخاعته(1) إن الاكدار التي تعلق بالنفس والغفلات التي تحجب القلب عن ذكره ، تعد من قبيل النجاسة الباخنية وعدم الطهارة الروحية في الإنسان، ومن كانت هذه صفته، فلا يطمعن في قرب أو وصول، إذ لا وصول، على الحقيقة، من دون يقظة القلب وصفاء النفس وقصر أملها، وإن من قصر أمل نفسه ، فإنها سوف تطيعه إلى ما يريد منها، وهو حتماً، بعد أن أصبح سالكاً، لا يريد منها، إلا الاستزادة من وهج الأنوار القدسية. إن النفس خويلة الأمل، لا تعدو كونها حجاباً، بحجب بصيرة الإنسان عن النظر إلى الحقائق الربانية اليقينية، لا بل إنها تحجب الإنسان عن خالقه وذلك بتعلقها بالدنيا، أو حتى تعلقها بالآخرة ، فالدنيا والآخرة كلتاهما مخلوق، وإن من تعلق بمخلوق حجب عن الخالق إذ إن (مالك ومملوك لا يجتمعان) (2) على إن عبارة الإمام عبد القادر هذه، لا تشكل مانعاً يمنع المريدين من الأخذ بنصيبتهم من الدنيا، فهذا ما يؤكد دائماً، بل إن الذي يمتنع عنده فقط، هو اجتماع الدنيا والآخرة في القلب، فالقلب هو موطن الذكر والعلم والحب الإلهي، وهو أيضاً، موضع نظر الرب فإذا ما التزم القلب بهذا الحد واخلص في ولائه لمولاه، عندها، سوف لا يكون هنالك خوف على العبد فيما لو نال من الدنيا نصيبه، عبر المفاض المباحة في الشرع .

مجاهدة النفس

إن مجاهدة النفس الأمارة بالسوء ، هو الشعار الذي لا يكل الإمام عبد القادر عن ترديده في أكثر مناسبات حديثه، فهو يرى أن الهداية الحقيقية تكمن في مجاهدة المرء نفسه، وأنه لا هداية من غير

(1) الجيلي -الفتح الرباني والفضل الرحماني -ص174

(1) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني -ص174

(2) الجيلي - المصدر نفسه - ص174

تلك المجاهدة ، وقوله (جاهد نفسك حتى تهتدي) (3) وإننا إذا أردنا أن نسلط الضوء على هذه العبارة، فسيمكننا القول أنه يستحيل علينا تصور بلوغ الإنسان سبل الرشاد، وهو مسلوب الباطن وموزع بين أهواء متضاربة ونوازع شتى تدفعه بعيدا حتى عن مجرد النظر إلى تلك السبل والهداية إذا ما فسرت بمعنى الاهتداء والوصول الذي يتم بعد التيه والضياغ، فإنها ستحتاج حتماً إلى حواس سليمة وبصيرة نافذة، وهذه لا تكتسب إلا بعد تصفية النفس من خلال فعل المجاهدة.

والمجاهدة لصعوبتها وشدة وخاتها على نفس المرید، فإن الإمام عبد القادر يشبها بالموت الإرادي الذي يسعى إليه الإنسان بنفسه في مقابل الموت الطبيعي الذي يأتي حتف الأنف، فالمجاهدة إذن تعني أن يميت المرید نفسه قبل أن يدممها الموت الطبيعي وهي على حالها الأول فتحرم الحرمان الأبدي، وتعذب وتبعد، فلا قرب لها بعد ذلك ولا جزاء، أن يميئها بين يدي الحق عز وجل، بالصبر والمخالفة ((فعن قريب محمد عاقبة ذلك، إذ أن صبره يفنى وأما جزاؤه فلا يفنى)) (1)

ولأجل هذه (الاماته) يضع الإمام عبد القادر، لمريديه، خطة عملية، يعلمهم من خلالها - تعليم خبير متمرس - كيفية تعاملهم مع نفوسهم الأمارة بالسوء فيقول: لا ترخص لها - أي لنفسك - ولا تطعها، كي تفلح، ولا تتبسم في وجهها، وجاوبها عن كل ألف كلمة بكلمة واحدة، إلى أن تنهذب وتطمئن وتقنع، فإذا ما خلبت منك الشهوات واللذات، فماخ لها وأخرها وواعدها في الآخرة، إذ إن لها فيها نعيماً دائماً وملكاً لا يزول، صبرها على مرارة المنع، حتى يجيئها العطاء الحقيقي الذي ما بعده منع. إذن فلا حظ للنفس في هذه الدنيا، وأما الحظوظ التي هي نصيب المرید من دنياه والتي لا بدّ له من تناولها، فإنه لا يمكنه من أن يتناولها، إلا بعد أن يميت أهواء نفسه بحيث يُقبل بعدها على الدنيا من غير إستلاب نفسي أو غفلة قلبية.

ولأجل أن يُحكم المرید، ضرب خوقه حول عنق النفس، فإن الإمام عبد القادر، ينصحه، إضافة إلى ما سبق، بان يحرس على التزام الصمت، وأن يمسك عن الإدعاء، وأن لا يكون له كلام و لا فعل وهو في (الطريق)، حتى يخرج من بيت خبعه وهواه ووجوده وحتى يخرج، أخيراً، عن

(3) الجيلي - المصدر نفسه - ص174

(1) الجيلي - المصدر نفسه - ص176. وفي هذه الصفحة يذكر الإمام عبد القادر قصته مع الموت فيقول : أنني مت ثم احياني الله عزوجل ، ثم أمانني فغبت، ثم أوجدني من غيبيتي . هلكت معه، ملكت معه، جاهدت نفسي في ترك الاختيار والإرادة ، حتى حصل لي ذلك ، فصار القدر يقودني والمنة تنصرنني والفعل يحركني والغيرة تعصمني والإرادة تطيعني والسابقة تقدمني والله عز وجل يرفعني . أي أنه بعد إماتته لنفسه، صار مطلق التسليم لله تعالى فصار لا يفعل ولا يتحرك ولا يقدر الا بالله تعالى .

نفسه، بان ((يترك نفسه وهواه وخبعه على الباب كي يُسرِع إلى الأساس، لأنه إذا أحكم الأساس، أُسرِع في البناء، وأنجز ما عقد عليه العزم، فكان من الواصلين، وما الأساس إلا الشريعة، وما مادته إلا الفقه في الدين)). (2)

ويستدرك الإمام عبد القادر، هنا، فينبه، إلى أن قصده من الفقه في الدين في هذه المرحلة، هو فقه القلب، (1) وليس فقه اللسان، لأن فقه القلب هو الذي يقرب العبد إلى الحق عز وجل، وأما فقه اللسان فإنه لا يُقرب إلا من الخلق وملوكهم. (إن فقه القلب يتركك في صدر مجلس القرب من الحق عز وجل، يصدرك ويرفعك ويقرب خطاك إلى ربك عز وجل). (2)

ولكن ليس علينا أن نعتقد، بناءً على سبق، بان للنفس عند الإمام عبد القادر، كيانها المستقل عن باقي التكوين الكلي للإنسان، لكونها قد بدت أمامنا، وكأنها عبد مارق أعجز سيده، فبدا له ضرورة تطويعه وترويضه بأقصى الوسائل. إنه يعاملها بإحتقار وتشفٍّ، بحيث يفرح لحزنها ويحزن لفرحها. إن النفس الإنسانية، عند الإمام عبد القادر، إذا كانت جزأ لا يتجزأ من القلب أو السرِّ، أو الإنسان بوجه عام بكونه وحدة عضوية لا تقبل التجزئة، فإنها في الوقت نفسه، تبدو لنا كجهاز يعمل على وفق آلية خاصة، لها نوع من الاستقلال عن باقي (أجهزة) الإنسان الأخرى، بحيث أنه يمكنه العمل بما يخالف مراد الإنسان ومبتغاه، وعلى هذا الأساس، تكمن مجاهدة المرید في تحويل آلية هذا الجهاز وثم تشغيله عبر آلية جديدة تعمل في تناغم تام مع بقية أجزاء (المجمّع) الإنساني.

حقيقة النفس

إن حديث مشايخ التصوف، بعامّة، عن النفس الإنسانية، بهذه اللهجة التي تغلب عليها نبرة الكراهية والمعاداة، لا يشمل هذه النفس، بمراتبها ومقاماتها كافة، وإنما يشمل منها، فقط، النفس الأمّارة بالسوء، التي لا تمثل، في حقيقتها، إلا وجهاً واحداً من بين أوجه النفس الإنسانية

(2) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني - ص 177

(1) فقه القلب عند الإمام عبد القادر، يعني العلم بمراتب النفس وخواصها ومواطنها وأمراضها وكيفية التعامل معها. وهو هنا لا يفاضل بين هذا الفقه والفقه الظاهري أو الشرعي، فلأخير أهميته التي لا غنى عنها لأي سالك، وهذا الموضوع قد تمّ البتّ فيه في الفصل السابق، ولكنه يؤكد، على أن حاجة المرید المرحلية - أي وهو في خور المجاهدة - تكون إلى الفقه القلبي أكثر منه إلى أي علم آخر، لأنه لو ضلّ في فقه الظاهر قبل أن يعامل نفسه بالمجاهدات، فإنه سيقع حتماً فيما يقع فيه الكثير من الفقهاء، وهو أنه سيكون حبيس رأي أهل الدنيا فيه.

(2) الجيلي - المصدر نفسه - ص 177

المتعددة، التي سياطي تفصيل الكلام فيها، فيما بعد. أما لماذا أولى الصوفية، وبخاصة منهم الإمام عبد القادر النفس الأمارة بالسوء، كل تلك الأهمية، بحيث أنهم، أشبعوها، دون بقية الأنفس، بحثاً وتاملاً واختباراً، فإن ذلك يعود، إلى اعتقادهم، بأن هذه النفس، تشكل فى خريق السالكين، مرحلة صعبة وعقبة كاداء، بحيث إذا ما استطاع المرید تجاوزها، فانة سيتيسر عليه بعد ذلك، الإسراع صعوداً فى مراقى النفس التالية، فيستحق عندها تسمية الصوفي. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الإمام عبد القادر، لا يعني بإحصائه لأوجه النفس المتعددة، وجود كثرة من الأنفس فى الإنسان ذاته، منفصلة إحداها عن الأخرى، بحيث تخلع وتُستبدل، كفعل المرء مع قطع ثيابه، وإنما هي عنده، نفس واحدة، ولكنها تكثرت باعتبار صفاتها الغالبة، وهو يرى أن هذه النفس، بمجموع صفاتها هي: النفس الناقصة وهي القلب، ولكن ليس المراد، هنا، بالقلب هو تلك المضغة اللحمية القابعة فى جوف الإنسان، وإنما هو، اللطيفة الربانية، أو الجوهر المجرد عن المادة فى ذاته، المقارن لها فى أفعاله. (1)

ولا يخفى على القارئ، أن هذا التعريف ينسجم ومعطيات النظرية الأفلاخونية فى النفس، فهذه النظرية تضع للنفس الإنسانية وجوداً مجرد ومستقلاً عن المادة، لا بل حتى وجوداً سابقاً عليها، على أن هذه الإشارة، لا تعني ضرورة، تاثر الإمام عبد القادر، المباشرة، بآراء هذه المدرسة، إذ لم نجد فى فكره، أي تقارب أو تعامل مع الفلسفة بوجه عام، هذا بالإضافة إلى أنه يمكن القول: إن اعتقاد مفكري الإسلام، باستقلال وجود النفس أو الروح عن وجود الجسد وكذلك قولهم بأسبقية هذا الوجود، هو أقرب إلى معطيات العقيدة الإسلامية منه إلى المدرسة الأفلاخونية، إذ إن لهم فى أسسهم الشرعية أسانيد كثيرة تؤكد لهم ذلك.

أسماء النفس

هذه النفس، كلما إتصفت بصفة، سميت، لأجل إتصافها بها، باسم من هذه الأسماء، فإن صادفت ما وافقها من الشهوات وصارت تحت حكمها، سميت أمارة، وإن سكنت تحت الأمر

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة - دار صدام للمخطوطات تحت رقم - 9166 -.

التكليفية وأذعنّت لإتباع الحقّ ولكن بقي فيها ميل للشهوات، سميت لوّامة فإن زال عنها هذا الميل، وقويت على معارضة الأهواء الشهوانية، سميت نفساً ملهمة فإذا ماسكن اضطرابها، ولم يكن للنفس الشهوانية حكم فيها ولا سلطان أصلاً، سميت عندئذٍ بالنفس المطمئنة فإن ترقّت عن جميع ذلك، وأسقطت كل المقامات والمراتب من عيها، وفزيت عن جميع موادها، سميت نفساً راضية، فإن زاد حالها هذا، وتطبعت به بحيث لم تطلب الرجوع عنه، صارت نفساً مرضية، عند الحق وعند الخلق، وأخيراً فإن هذه النفس، إذا ما أمرت بالرجوع إلى العباد، من أجل هدايتهم وارشادهم وتزكيتهم وتكميلهم، سميت نفساً كاملة (1). لأن الله عز وجل، كمّلها ببلوغها أعلى المقامات والمراتب المرجوة، وهو مقام الخلافة العظمى (2) وهداية العباد.

إننا إذا ما أحصينا عدد هذه (الأنفس) التي ذكرها الإمام عبد القادر، وجدناها سبع أنفس، وهذا (العدد) كبير نسبياً، يكاد ينفرد به دون من سبقه من الصوفية، فالغزالي مثلاً، وهو (آخر) الشيوخ السابقين عليه، إكتفى، كما مرّ بنا في بداية هذا المبحث، بخمس أنفس فقط 0 ولعل عدد الأنفس عند الإمام عبد القادر، متعلق بعدد مآحصاء فيها من صفات ومراتب ومقامات، فهو قد توسع في ذلك، وأولاه كثير عناية وأهتمام، أنسجماً مع توجهه التربوي والأصلاحي. وعلى العموم، فإن تقسيم النفس الإنسانية على عدة أنفس، سواء عند الإمام عبد القادر، أو عند غيره من شيوخ التصوف، ما هو في حقيقته، إلا تقسيم أجرائي، يخدم أغراضهم التربوية والتعليمية، وأما في واقع الحال، فإنهم جميعاً متفقون، على أن هذه النفس، ماهي في حقيقتها إلا وحدة واحدة وكيان متماسك، له صفات متعددة، تتدرج من المستويات السيئة أو الدنيا إلى المستويات الحسنة أو العليا وعند الإمام عبد القادر، فإن أدنى مستوى لهذه النفس، هو مستوى النفس الأمّارة بالسوء، ثم يأتي بعدها مستوى النفس اللوّامة ثم النفس الملهمة ثم النفس المطمئنة ثم النفس المرضية ثم النفس الراضية، ثم أخيراً مستوى النفس الكاملة، وهو مطمح جميع الصوفية ومبتغاهم، أما تفصيل الكلام في ذلك فهو كما يأتي،

أولاً: النفس الأمّارة بالسوء

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

(2) الخلافة في اصطلاح الصوفية تعني الإمامة، وهي على قسمين: خلافة صغرى وهي الإمامة أو الرئاسة الظاهرية، وخلافة كبرى وهي الإمامة والرئاسة الباطنية 0 أنظر معجم مصطلحات الصوفية - د عبد المنعم الحفني - ص 91.

هذه النفس تولد مع كل إنسان، فهي قدره الذي لا يستطيع عنه فكاكاً، إلا إذا تعهد بها بالتأديب والرياضات، وهي نفس ذات حجب ظلمانية، لونها أزرق (3) ومحلها الصدر، يكون الصدر في عرف الصوفية، هو محل الوسواس والهواجس، ومنه تنطلق الرغبات والأهواء الدوافع الحسية كافة وعالمها الشهادة، وهو العالم الحسي المحض الذي لا يخالطه غيب، وواردها الشريعة، (1) إذ لا بد لصاحب هذه النفس من أن يتفقه في علوم الدين وحدوده، لكي يعرف ماله وما عليه، ولكي لا يقترب المحارم والمناهي عن جهالة. هذه النفس تشتمل على تمام دائرة صفات الكفر والعناد والإنسان معها يكون تابعاً لهوى نفسه، ولذا فهو يحتاج إلى الرياضة (2) المتواصلة وإلى تصفية النفس والإشتغال بالذكر، وخصوصاً منه ذكر (لا الله إلا الله)، فلهذا الذكر في اعتقاد الإمام عبد القادر، خاصية عجيبة تتمثل في القدرة على التطهير، أي تطهير النفس، ولو كانت سيئاتها مثل زبد البحر في الكثرة والتتابع. ولأجل إحكام القبضة على هذه النفس، فإن الإمام عبد القادر، ينصح مريده، صاحب هذه النفس، بأن يتذكر أسباب الخوف، لأنه، في هذه المرحلة، أنفع له من الرجاء ولكن شرط أن لا يوصله هذا الخوف إلى حالة القنوط أو يلقي به في ظلمة اليأس من النجاة من الهلكة. وهنا، يؤكد الإمام عبد القادر، كما في مواضع كثيرة على ضرورة الموازنة بين الأحاسيس والدوافع الدينية المختلفة، كي لا يصل المرید، من جزاء إفراجه في التشبث بحاله، إلى حالة الشعور بالإحباط الديني الذي كثيراً ما يصاب به السالكون.

وعلى صاحب النفس الأمارة بالسوء، أيضاً، أن يعتاد على التذلل والخضوع والتضرع إلى الله تعالى، لأن في ذلك علاجاً لهذه النفس من الشعور بالكبر والاستعلاء على الآخرين والأنانية المفرخة. وليكن هم المرید في هذا (المقام)، الخلاص من ضيق النفس والتوجه إلى فضاء الروح وأن يكون ديدنه المستمر ومطلبه الأوحد، هو التخلي عن الأوصاف الذميمة والتحلي باضدادها

واستبدال أخلاقه السيئة، بالأخلاق الحميدة التي أوصت بها الشريعة المحمدية. (1) ولعل الإمام عبد القادر، يريد أن يخبرنا من وراء ذلك، أن لا جديد ولا ابتداء في كل ما يأمربه النهج الصوفي

(3) هو معنى قول الإمام عبد القادر، أن الإنسان لا يمكنه أن يتخطى حدود إنسانيته. ثم أخيراً تأتي النفس السابعة (الكاملة) وهذه ليس لها لون، لأنها تسمو على جميع المراتب والصفات وتسمو على جميع ما تدركه الحواس.

(1) الجيلي - الفيوضات الربانية - ص 15

(2) الرياضة في إصلاح الصوفية تعني: تهذيب الأخلاق النفسية وتخليصها من خلطات الطبع ونزعاته. إنظر - الجرجاني - كتاب

التعريفات - ص 119

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

الصحيح، إذ أن الذي يدعو إليه، لا يخرج قط عن مظلة الشرع الإسلامي، لا بل إنه هو الشرع بعينه، وإن كل ما عداه، هو مما يقصر عن بلوغ مراد وحقيقة الشرع.

يرى الإمام عبد القادر، أن هذه النفس الأمارة بالسوء، كانت في الأصل نفساً صافية، ولكنها لما تدنست بالميل إلى الطبيعة والركون إلى الشهوات، وصادفت الدوافع الشهوانية والميل والطبائع الغريزية، انخرخت في السلوك الحيواني، وتبدل صفاءها كدراً ومحاسنها معائباً، وصارت لا تتميز عن الروح الحيواني إلا بالصورة، وصار الشيطان من جندها، فهي التي تامرة وهي التي توجهه وهو لا يستطيع إن يفعل شيئاً من دون رغبتها أو إرادتها وفي هذه النقطة الأخيرة، يشير الإمام عبد القادر إلى مسالتين مهمتين: الأولى، اعتقاده الصريح بثنائية الإنسان، وبإسبقية وجود الروح على وجود الجسد، والثانية إعطاؤه مزيداً من الدفع لحرية الإنسان ومسؤوليته عن أعماله، وذلك بتقليصه لدور قوى الشر، التي خلما يعزو البشر أسباب خطاهم إليها.

أما عن صفات هذه النفس، فإن الإمام عبد القادر، لم يبق ولم يذر شيئاً من الصفات السيئة إلا وألصقها بها، فهي تتصف بالبخل والحرص الشديد والغل وسوء الخلق، والخوض فيما لا يعني من كلام وغيره، وكذلك الاستهزاء بالآخرين والبغض لهم وايداؤهم، إنها النفس الخبيثة، وذلك لأنها واقعة تماماً في ظلمة الطبيعة، فلا فرق عندها بين الحق والباطل ولا بين الخير والشر، ولذلك كان الشيطان لا يقدر على الدخول إلى الحرم الإنساني إلا بواسطة (2) ولذلك أيضاً، كان الإنسان مع هذه النفس، أبعد ما يكون عن مرتبة الإنسانية الحقة، لأن نفسه في هذا المقام، تكون محجوبة بالحجب الظلمانية الكثيفة، أما ما عداها من النفوس التالية، فهي محجوبة بحجب نورانية بعضها أرق من بعض، ولذلك فإن السالك لا يستحق تسمية المرید إلا إذا تجاوز حدود أرض هذه النفس.

نخلص مما سبق، إلى أن النفس الإنسانية، ما هي في الأصل إلا روح خاهرة نقية خيرة، لا يربطها بمكان الشر والغرائز والأهواء أي رابط، وهي لا ينالها ما ينالها إلا من جرّاء إتصالها بالجسد مكمن النقائص والشهوات، إذن، فلا داعي للياس والقنوط فالسبيل غير مغلقة أمام الإنسان لإصلاح حاله، بل إن الخير والصالح هما حقيقته الأصلية وأما ما عداها من الشرور، فإنها أمور خائرة، يمكنه تجاوزها فيما لو عقد العزم على ذلك. الإنسان إذن خير بطبعه نقي بسريره، ولا يحتاج منه العمل على العودة إلى الصلاح (المفقود) إلا عقد العزم والصبر على الشهوات، وليس في الأمر تغيير للطباع وإنما سيطرة عليها واستعادة لما فقد منها في السابق.

(2) الجيلي - المصدر نفسه - مخطوطة.

ثانياً، النفس اللوامة

وهي المرتبة الثانية من مراتب النفس الإنسانية، لون نورها أصفر، ومحلها القلب، يكون القلب هو موضع اللوم والتبكيك والمحاسبة والمراقبة، وأما عاملها فهو عالم البرزخ (1) وواردتها الطريقة، بما يتضمنه هذا الوارد من الأخذ بالرياضات والمجاهدات والخوض في ضروب التجويع والتزهد في الدنيا والمداومة على الأذكار، وكل ذلك يُعد من العوامل التي تعين النفس على ترجيح كفة الخير فيها.

تميل النفس اللوامة إلى الحلال ونفع الناس وحمل الأذى عنهم، وهي تتحرى كسب الحلال ومتابعة الأخلاق الحميدة وحب الإصلاح والإخلاص في الأعمال، ويحدد الإمام عبد القادر لفظ الجلالة (الله) ورداً لهذه النفس، وذلك لأن سيرها لله عز وجل وحالها المحبة، وهذا الورد، فيما لو أخلص المرید في ذكره، قلباً ولساناً وحالاً، فإنه سيقترّب كثيراً من رحمة الله تعالى (2).

ولا تعدم النفس اللوامة بعض الصفات السيئة، فهي تتسم بكثرة اللوم والفكر والعجب وكثرة الاعتراض على الخلق والرياء الخفي وحب الشهوات وطلب الرئاسة. ولكن مع كل هذه النقائص التي تحملها، إلا إنها ترى الحق حقاً والباطل باطلاً، وتعلم أن هذه الصفات مذمومة، لكنها في الوقت نفسه لا تقدر عليها فكاكاً. ومن جهة أخرى فإن لهذه النفس رغبة في المجاهدة وموافقة الشرع ولها أعمال صالحة، رغم أن هذه الأعمال يخالطها دائماً العجب والرياء الخفي، إذ يحب صاحبها أن يطلع الناس على ما هو عليه من الصلاح، رغم أنه يخفي ذلك عنهم. على أنه في الوقت نفسه يكره هذه الخصلة أيضاً، ولكن لا يمكنه قلعها بالكلية عن قلبه (3).

مما سبق، يبدو أن الإمام عبد القادر، قد أفلح، وبشكل ملحوظ، في تصوير هذه النفس وهي في حالة إنقسام مطلق، فهي مليئة بتناقضات متوازية لا نهاية لها، إن صاحب النفس اللوامة يكون قد شرع تَوّاً في المجاهدات الصوفية، بينما باخنه لا زال مليئاً بالترسبات التي لحقت به من المرحلة السابقة، إنه موزع بين مستوى الطموح العالي وواقع الحال المتردي، ومن هنا سبب قلقه وعدم

(1) البرزخ في اللغة هو الحاجز والفصل وهو في اصطلاح الصوفية يعني: ستر القطب عن الأفراد الواصلين فانهم خارجون عن دائرة تصرفه، لأنه في الأصل واحد منهم متحقق بما تحققوا به في القرب والبسط، غير أنه أختير من بينهم للتصرف والتدبير. أنظر - د.

عبد المنعم الحنفي - معجم المصطلحات الصوفية - ص 240

(2) الجيلي - الفيوضات الربانية - ص 22-23

(3) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

استقراره وشعوره بالخطر، ولأجل ذلك، عُدت هذه المرحلة من أصعب مراحل السلوك الصوفي وأشدّها وخافةً على النفس.

تُعد النفس اللوامة، مقاماً ثانياً بالنسبة للسالكين المقربين الطالبين للفناء عن نفوسهم وللوجود بربهم وأما الأبرار، أصحاب اليمين، فهي آخر منازلهم وأعلى مقاماتهم، فهم لا يطلبون إلا ثواب الآخرة وتجنب عقابها، وهذا ما يحقّقه لهم هذا المقام فهو يغنيهم بالحلال عن الحرام وبالطاعات عن المعاصي. المقربون من جهتهم، وضعوا لأنفسهم هدفاً بعيداً، فهم لا يقرون أو يريحون، إلا ببلوغه، ولأجل ذلك قيل: إن حسنات الأبرار، سيئات المقربين.(1)

فأما ما يحدو هؤلاء المقربين فهو إحساسهم بالخطر العظيم والتعب المقيم الذي يرون إنه محيط بهذا المقام، فهو يتركز على أعلى درجات الإخلاص، والحقيقة نقول: إن المخلصين على خطر، ولا منجاة من هذا الخطر إلا بالفناء عن شهود الإخلاص، بشهود إن المحرك والفاعل على الحقيقة، هو الله تعالى شهود ذوق وحال، لا شهود عقل وقال: هذا الشهود متوقف على سلوك خريق المقربين، الذي لا تشم له الأبرار رائحة ولا ترى منه قبساً، لأن المقربين هم وحدهم فقط، الذين نظروا ببصائرهم إلى ربهم ولم ينظروا إلى أعمالهم وعباداتهم، موقنين إن المنة له تعالى عليهم، إذ فتح لهم أبواب الطاعات ومكنهم من الدخول في زمرة عباده وأهلهم للقبول منه، ومن كانت هذه أحواله، فهو ضرورة لا يحتاج إلى تحري الإخلاص لأن ذلك لا يخطر بباله أبداً، لأنه مخلص بسجيته، وهو لا يرى لنفسه فعلاً حتى يخلص فيه، ولا يرى لغير الله تعالى قدرةً حتى يتجنب التضرر منها، وهو ما يعد تجاوزاً لعمل الأبرار الذين لم يصلوا إلى هذا الحال ولم يبلغوا هذا الشهود، فطولبوا بالإخلاص لأنهم لم يشهدوا شهود قلب، بأن الله تعالى هو خالق الأفعال كلها، إذ لا يقين إلا بهذا الشهود ولأجل ذلك فقد تضرروا من بعض أفعالهم ووقعوا بسببها، في التعب والعناء، ((وصار أحدهم لو دخل في حجر ضرب، لقيض الله تعالى له من يؤذيه، وذلك لما فيه من البشرية المقتضية للعجب

والتكبر والحقد والحسد وسوء الخلق والعداوة والبغض والانهماك في خلب الرزق وما شابه ذلك)).(1)

إذن فيكفي عوام الناس من أهل الإحسان التوقف عند هذا المقام، حيث تبيكيت الضمير ولوم النفس وحثها على الاستزادة من فعل الخيرات وتجنب اقتراف الشرور، فأما السالكون من ذوي

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

الطموح الروحي، ممن لا يرضون بغير القرب مغنماً، فهؤلاء يعملون جاهدين على التخلص من (ربقة) هذا المقام الذي يحكمه التذنب والتارجح بين صوبي الخير والشر وناحيتي الفجور والتقوى، فاما الإخلاص الذي هو تاج الأبرار فانه عند هؤلاء، يعد مصيدة قد تذهب بأعمال العبد، اذ هي توكله إلى نفسه وتجعله يشعر بالملنة .

يعزو الإمام عبد القادر، السبب الذي يقف وراء قلق واضطراب، صاحب هذه النفس رغم تحريره الإخلاص في أعماله، بالدرجة الأولى، إلى أن مرآة قلبه، تكون في جهة منها، متوجهة صوب الخلق، فينتقش فيها لأجل ذلك، صور الخلق وأفعالهم ومحاسنهم وقبائحهم وحركاتهم وسكناتهم، وهو يكره ذلك من نفسه ويحاول أن يدفعه فلا يقدر إلا إذا اجتهد في الإعراض عن جميع الخلق، بحيث لا يرى لهم صورة ولا يسمع لهم كلاماً وأن يعزف عن جميع الذات، فلا يرى لهل خعماً ولا فائدة، وينصح الإمام عبد القادر، مريده، ممن بلغ هذه النفس أو توقف عندها، إلى أن يسعى سعياً حثيثاً من أجل تكميل نفسه وتزكيتها، وتصفية قلبه وجلي مرآته - أي مرآة قلبه - ليصير قلباً حقيقياً ويصير به صاحبه إنساناً حقيقياً(2) ، والقلب لا يكون قلباً حقيقياً، إلا إذا تخلص من ميله إلى الشهوات، ومن تلفت مرآته، صوب الخلق والدنيا، إذ انه بخلاصة من كل ذلك ، يكون قد تصفى وأصبح خالصاً لربه، فلا يرى غيره ولا يتوجه إلى سواه ، وهذا هو معنى وجودة الحقيقي أو حقيقته الأصلية، وكل ما سوى ذلك وهم وخداع. فاما إذا ما تحقق القلب ، فان حامله سيكون إنساناً حقيقياً لا تنازعه الأوهام ولا تتجاذبه الهواجس.

إضافة إلى ما سبق ، ينصح الإمام عبد القادر ، صاحب النفس اللوامة بالخلوة والاعتزال وتجنب مخالطة الناس ، وسنرى فيما بعد ، أي في المراحل المتقدمة للنفس انه يعود فيؤكد ضرورة العودة إلى معايشرة الناس والاختلاط بهم، لأجل منفعتهم الأخروية، وأما السبب في التفاوت بين هذين

الموقفين، فيمكن أن يُعزى، أولاً، إلى ضعف حال المرید وهو في مراحل الأولى، وعجزة عن تحمل أذى الخلق، بينما في المراحل المتأخرة، فانه سيكون قوي الحال وقادراً على احتمال ذلك منهم، وثانياً، لأن المرید المبتدئ، هو ضرورة، قليل الخبرة في خرق التعامل مع نفوس الآخرين وعلاجها، وإن نفسه تكون أحوج إليه من غيرها، فاما بعد أن يقوى حاله ويصلب عوده، فانه سيصبح خبيراً في علاج أمراض النفوس، لأنه عاناها جميعاً وخبرها.

ثالثاً، النفس الملهمة،

(2) الجيلي - المصدر نفسه - مخطوطة

هذه النفس لونها أحمر، ومحلها الروح لأن الروح هي موطن الألهام، وحالها العشق الذي يأتي بعد الحب وقبل الفناء في المرتبة، وعالمها الهياج، إذ يعتريها باستمرار، ومن جرّاء تلذذها بحالة الصفاء، الشوق العارم للأنعتاق من قيود الجسد والتوق للتخفيف من أثقاله وعلائقه، وأما وارد هذه النفس، فهو المعرفة، التي هي من إختصاص القلوب والأرواح، والمعرفة عند الصوفية أرفع منزلة من العلم لآصالها بالحقائق الإلهية والأسرار الربانية.

هذه النفس، هي كسابقتها، أيضا، تحتاج إلى أن تعامل بالرياضات والمجاهدات والأذكار، وتحتاج إلى دوام المراقبة والمراجعة والتذكير، والورد الذي يصفه الإمام عبد القادر، لصاحب هذه النفس هو أسمه تعالى (ياهو)، وهو أسم يدلّ على الذات العليا ويشير إلى الهوية، بحيث لا ينظر الذاكر معه، إلى أية صفة أو فعل، من صفاته وأفعاله تعالى، فاذا ما داوم المرید على ذكر هذا الأسم، فني عن ذاته وتجرد عن صفاته وإرادته، وأستعد بعد ذلك لتلقي الهبات والعطايا الإلهية المتمثلة بالوجود الجديد الذي يعقب حالة الفناء.

إن المرید في نطاق هذه الدائرة، أي دائرة النفس الملهمة، يتحرى تتمّة نقصان عقله ودينه وتصحيح معتقده، ومتابعة الحق والشرع والتخلص من الرياء، (1) فتخوم هذه الدائرة، تعد أولى مراتب الكمال والتميم وآخر مهاوي التردّي والنقص على أن الغلبة فيها تكون لكفة الكمال، إذ يطغى على هذه النفس الأفعال الحسنة والصفات الحميدة، فهي تتصف بالسّخاء والقناعة والعلم والتواضع، وهي لأجل ذلك صار يتعاقب عليها حالا القبض والبسط، (1) فاما حال القبض، فانه يأتي أولا كي يُذهب الفرح الزائف والأقبال على الدنيا، واما البسط فانه يأتي بعد ذلك، كي يزحزح المرید عن حالة اليأس، وكي يفعم قلبه بمزيد من الحب لمولاه، وكي يدفعه أيضا نحو مزيد من الرقي الروحي، خمعا في مزيد من القرب.

سميت هذه النفس بـ (الملهمة) لأن الحق عز وجل ألهمها سبيلي الصلاح والصلاح وهو معنى قوله تعالى : (ونفسٍ وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها). (2) وكون هذه النفس ملهمة، فهذا يعني أنها أصبحت تسمع، بغير آلة، أي بالألهام

(1) الجبلي - الفيوضات الربانية - ص24.

(1) القبض والبسط، هما حالتان تغشيان العبد بعد ترقيه عن حالة الخوف والرجاء، والقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف والقبض والبسط متعلقان باللحظة الآتية أما الخوف والرجاء فمتعلقان بالأجل من الزمان - للتفصيل حول ذلك - أنظر - الرسالة القشيرية - ص55.

(2) سورة الشمس - الآيات - 7، 8، 9، 10.

المباشر، نداء الرحمة ووسوسة الشيطان، بعد أن كانت وهي في المقام الذي قبله، لا تسمع شيئاً، لأقترابها من مستوى خباج الحيوانات، وهنا يتجلى، وبوضوح تام، اعتقاد الإمام عبد القادر، بأن النفس الإنسانية، واحدة بحقيقتها، وإنما الذي يتغير منها، فقط، هو خباعها وأهوائها ومبولها.

هذه النفس، لأجل أنها تسمع ((لمة الملك ومة الشيطان)) (3) صار المرید معها، أيضاً، في مقام خطروصعب، فهو يحتاج هنا كذلك، إلى من يأخذ بيده - والأشارة هنا صريحة إلى ضرورة السلوك على يدي الإمام المرشد العارف - ليخرجه من ظلمة الشبهات إلى نور الحقائق اليقينية لأنه، وهو في هذا المقام، لا يزال ضعيف الحال، لا يفرّق بين الجلال والجمال، ولا بين الوسالوس والألهامات لعدم خلوصه تماماً من الطبائع الرديئة، إضافة إلى أنه يُخشى عليه، فيما لو ترك من غير دليل، أن يغفل عن نفسه، أو يعجز عن المحافظة عليها، فيعود القهقري، إلى المقام الأول وتعود له نفسه الأمارة بالسوء، فيكون عندها من الخاسرين، ولا يصح له بعدها سلوك، ولا تنفع معه خريقة.

إذن فالجاهدات تستمر مع هذه النفس، وكذلك ملازمة السهر والجوع والأعتزال عن الخلق والأقلال من الكلام، مع التمسك بأذيال الإمام العارف وأخلاقه على جميع هواجس القلب وخطراته، حسنة كانت أم قبيحة، على أن يكون ذلك مصحوباً بالثقة التامة والطاعة العمياء للشيخ والمرید كلما زادت ثقته بشيخه وقوي اعتقاده به، قوي أنجذابه نحو عالم القدس، وضعفت قوة البشرية لديه، لأنه بهذه الطاعة، سيستقي من أنوار شيخه القدسية المصدر، ولأنه كلما ازداد أنجذابه نحو شيخه، سيحقق له بذلك نوعاً من التوحد القلبي الذي ينبله بعض أحوال شيخه. أن تأكيد الإمام عبد القادر، على ربط سلوك المرید بإرادة الإمام العارف، إنما هو يؤسس لسيادة نهج الطرق الصوفية، على بقية أنواع السلوك الصوفي الفردي التي كانت سائدة قبل ذلك، والتي أدت إلى ظهور الكثير من المروقات والشطحات وأنواع الخروقات الشرعية، مما عمل على تنفير الناس من السلوك الصوفي برمته.

إن الطريقة عند الإمام عبد القادر، تسعى إلى تحري الأنضباط في سلوك المریدين، وتسعى أيضاً إلى تحقيق المراقبة الشديدة والمباشرة من لدن شيخ الطريقة، على جميع حركاتهم وحتى خطراتهم.

(3) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

وكون المرید (ذا) النفس الملهمة، جامعاً في باطنه، لنزعتي الخير والشر، لا يمنع من وجود علامات أكيدة، تدلّه على غلبة إحدى هذه النزعات على الأخرى فاما علامات غلبة نزعة الخير لديه، فتتمثل في أن يرى باطنه معموراً بالحقيقة الأيمانية، وظاهره بالشرعية الإسلامية، وأن يكون وجدانه محققاً، بأن جميع ما في الوجود، جارٍ على وفق إرادته تعالى، مقدوراً بقدرته، وأن تكون جميع جوارحه متلبسة بالطاعات ومنخلعة عن جميع كبائر الذنوب وأكثر صغائرها. وأما علامة غلبة نزعة الشر لديه، فتتمثل في أن يرى في نفسه القدرة على شهود الحقيقة الأيمانية، مع بقاء شيء من علائق بشريته الدنيوية، وأن لا يكون ظاهره معموراً بالشرعية، فيترك الطاعات ويرتكب بعض المعاصي، ويحدث له ذلك خاصةً، عندما يقوى عود بصيرته، مع بقاء علائقه السابقة، على شهود الحقيقة الأيمانية، ويرى أن أفعاله هو، جارية على وفق إرادة الله تعالى، فتحجب بصيرته بانوار الحقيقة عن النظر إلى أسرار الشرعية، ((فيطرد عن أبواب الحضرة الجامعة للضدين - أي الظاهر والباطن - وعن شهود الواحد الحقيقي اثنين - منكثراً بالشرعية وواحداً بالحقيقة - فيقف حينها عند البوارق التي وافقت خبئه))⁽¹⁾ وهي بوارق وحدة الشهود وفناء الإرادات، التي إذا ما خالطها شيء من علائق الطبع، فانها ستؤدي حتماً إلى هجر الشرعية وأسقاط التكليف. ولا يخفى على المطلع هنا، أن الإمام عبد القادر، كان دقيقاً جداً في ربطه بين جانبي الشرعية والحقيقة بحيث إن المرید السالك، حتى وهو متماء مع حالة شهوده، لا يمكنه من أن يخلع عنه رداء الظاهر، وإلا فسيخرج عن نعمتي الظاهر والباطن معاً، والسالك الذي تبعده البوارق والمطالع عن متابعة الشرع، فان ذلك يدل على ثقل خبئه وعدم صفاء نفسه، لأن مجانبه حدود الشرع، فيه دلالة أكيدة على الميل إلى الكسل والدعة والتذرع بالواهي من الذرائع، وهي من أهواء النفس التي أمر أصلاً بالتجرد عنها.

صاحب النفس الملهمة، هو أيضاً على خطر، لأنه في تلفت مستمر صوب مقاميه السابقين، فاذا كان من شيمة الطبع أن لا ينبي عن التغالب مع التطبع، فان من خبع النفس الإنسانية أن تقترب غفلة من صاحبها، فمتى ما غفل عن سوقها وزجرها، عادت مرة أخرى إلى ما ألفته وأعتادته، فاما ما يصفه الإمام عبد القادر، من علاج لهذه النفس في هذه المرحلة، فهو: أن يجتهد المرید في أن يلهب نفسه بالعشق والهيمن والشوق للوصال وإلى الاجتماع مع الأحبة والتطلع إلى النظر إلى وجه المعشوق، فان هذه الدوافع تشدّ من عزيمة السالك، وتقويه على السير في خريقه، وخاصة إذا

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

لمس من نفسه الميل إلى الانتكاس والتقهقر. إذن فليس الخوف من العقاب أو تذكر (هادم اللذات) هو الحافز المثالي للمريد في هذه المرحلة، فالنفس في مقام الألهام تبدو وكان البواعث أمامها قد تعادلت، والأحتمالات قد توازنت، فهي تبدو وكأنها مشدودة إلى جميع أوتارها الداخلية المتقابلة فهي والحالة تلك، في حاجة إلى وازع جديد وجذب خارجي مختلف يحرك ركودها ويدفع بها نحو كسر الحياد والاندفاع نحو مزيد من الرقي الروحي، ولا أنفع لها في ذلك ولا أنجح من العشق والأشتياق الذي أكتفى به (أرسطو) دافعا لتحريك سكون الأفلاك والأكوان.

رابعاً، النفس المطمئنة

هذه النفس لون نورها أبيض، وهو لون الصفاء والنقاء، والاستعداد للنقش الجديد، كما أنه يدل على الفناء الذي يسبق الوجود الفائق، وأما عالمها، فهو الحقيقة الجامعة لكل الحقائق، ما ظهر منها وما بطن وما كان منها متعلقاً بالدنيا أم بالآخرة، وأما محلها فهو السر، الذي يدل على الكمال والوصول، وأما واردها فهو الحقيقة، لإكمال تحققها بالشرعية، فاصبحت لا تأتي حركة أو فعلاً ظاهراً كان أم باخناً، إلا وهو مطابق في مقصودة مطلوب الشرعية.

الحال الغالب على هذه النفس هو: الطمانينة الصادقة، وهذا ما يميزها من حال الطمانينة الكاذبة التي مرت علينا في النفس الملهمة، والتي كانت تخزي صاحبها بالاكْتفاء بأنوار الحقيقة دون الشرعية، وقد علمنا أن هذا هو مكمّن عدم الطمانينة والخطر فيها.

تتصف هذه النفس بالجود والحلم وحسن التوكل وكثرة العبادة والصدق في شكر وخاعة الله تعالى وكذلك الاستقامة وخهارة القلب وصفاء النفس. (1) الورد الذي يضعه الإمام عبد القادر لصاحب هذه النفس هو أسمه تعالى (الحي) (2) والذي يدل على اكتساب الحياة الجديدة الطيبة والأبدية المفعمّة بالمعارف الربانية والعلوم الدنيوية والمتطلعة إلى الارتشاف من الحضرات الشهودية. إذن فلا يمكننا من أن نحصي في هذه النفس إلا صفات الخير والصلاح، لأن المرید في هذه المرحلة يكون قد خطا خطواته الأولى في بر الأمان وذلك بعد تخلصه من كثير من أثقال خبائعه وأوزار أهوائه.

يرى الإمام عبد القادر، أن النفس المطمئنة تمثل الطور الأول من أخوار النفس الكاملة إذ يبلغ المرید معها أولى درجات الكمال الروحي، وذلك بعد أن تكون قد هبت عليه نسيمات القرب والوصال، التي تنقله من حال التلوين - وهو حال التذبذب والتقلب - إلى حال التمكن - وهو حال الاستقرار والثبات -، وأن من علامات بلوغ وصحة هذا المقام، هو: أن يغلب خير المرید شرّه وأن يكون باخنه

(1) الجيلي - الفيوضات الربانية - ص25.

(2) الجيلي - المصدر نفسه - ص17.

معمورا بالحقيقة الإيمانية وظاهرة منورا بالشرعة الإسلامية، أي ((متلبسا بالطاعات متجنباً عن جميع الكبائر وأكثر الصغائر، سواء أكان بين الناس أو كان في خلوة)). (3) وأن كل هذا الأفعال تصدر عن صاحب هذه النفس بيسر وبصورة خبيعية وتلقائية، أي من غير كلفة أو مشقة، وذلك لأخمتنان النفس، بعد تحققها وتيقنهما بان جميع ما في الوجود، جارٍ على وفق إرادته تعالى، مقدورا بقدرته. وأما المقامات التي يحوز عليها صاحب النفس المطمئنة، فهي مقام التوكل والصبر الشكر والرضا، فلا يمكن أن نتخيل نفساً مطمئنة إلا وهي متوكلة على ربها صابرة على بلائه، شاكرة لنعمه، راضية بعطائه.

سميت هذه النفس بالطمئنة، لأن صاحبها لا يفارق حدود الأمر التكليفي ولو قليلاً، ولا يلتذ إلا بالتخلق باخلاق المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ولا يطمئن إلا باتباع أقواله وأفعاله وأحواله لأنه (صلى الله عليه وسلم) هو وحده

على الحقيقة، صاحب مقام التمكين وعين اليقين والأيمان الكامل، ولأن حقيقته (صلى الله عليه وسلم) هي الحقيقة العظمى الجامعة لكل الحقائق، ولأنه (صلى الله عليه وسلم) أصل الوجود وعين الشاهد والمشهد، ولأنه (صلى الله عليه وسلم) أول الأوائل وأدل الدلائل ومنتهى العروج الكمال والمثل الأعلى الألهي.

ويظهر على صاحب هذه النفس بعد اخمئنانها، مزايا وصفات، لم تكن لتظهر على من لم يلتحق بهذا المقام، فتربى الخلق، مثلاً، ينجذبون إليه، وتلتذ به أعين الناظرين وأسماع السامعين، حتى لو تكلم خول الدهر، فلا يمل كلامه، لأن لسانه سيصبح ترجماناً لما يلقيه الله تعالى في قلبه من حقائق الوجود وأسرار الشرائع، فهو لا يتكلم بكلمة إلا وتجيئ مطابقة لما قاله تعالى أو قاله رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم)، من غير مطالعة في كتاب أو سماع من غير. (1) إنه يسمع في داخله نداء: ((أنا سرّك أيها الحبيب وأنت سرّي)) (2) فيطمئن ما كان يعتمل فيه من الاضطراب، ويغرق في بحر الحياة الروحية والخلق المحمدي وتلازمه الخشية والهيبة، وتخلع عليه خلع الوقار

(3) الجبلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(1) يشير الإمام عبد القادر، من خلال هذه العبارة إلى أمرين: الأول هو أن المعارف الصوفية هي معارف لدنية ربانية تنال بالمجاهدات والرياضات وليس من خلال القيل والقال، والثاني هو أن العبد إذا صفت نفسه وأخمانت جاءت أفعاله موافقة لما أمر به الشرع.

(2) الجبلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة

والقبول، وتظهر له حقيقة عالم الكون والفساد، فيرى رؤية بصيرة، حقيقة قوله تعالى : (وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام). (3)

إذن فهذه المميزات التي حصل عليها المرید، سواء في هذا المقام أو في سواء، ما هي إلا حاصل جهد مضمّن وعمل شاق مع حرص شديد على الموازنة بين شقي الشريعة والحقيقة، من غير إفراط في أحدهما أو تفريط في الآخر. وهذا هو خلاصة ما كان يرمي الإمام عبد القادر لأن يوصله إلى سامعيه. أخيراً، ينصح الإمام عبد القادر، المرید، صاحب النفس المطمئنة، رغم تنعمه بالأمان بان يتحرى الحذر في علاقته مع الآخرين، فهو إن كان عليه أن يجتمع معهم ليرشدهم ويدلهم، وليفيض عليهم مما أنعم الله تعالى عليه، ولكي يترجم لهم عمّا في قلبه من درر الحكم، فان عليه، من جهة أخرى، أن يترك لنفسه، أوقاتاً مخصصة يختلي بها مع خالقه، ويسعى من خلالها إلى زيادة في الصفاء والقرب، لأنه، وهو في هذا المقام ما يزال في أدنى درجات الكمال الروحي، فلا يناسبه، مع هذه الحالة، مخالطة الخلق في جميع الأوقات، كي لا يحرم نفسه الترقّي إلى المرتبة التي تليها. (1)

خامساً: النفس الراضية

يضع الإمام عبد القادر، لهذه النفس اللون الأخضر، وهو أسعد الألوان وأقربها من الرحمة الإلهية والعطاء الرباني، وأما عالمها فهو اللاهوت، إذ لا مجال في هذه المرتبة لعالم الناسوت، بشقيه الذات والآخرين ولا عالم الخلق بشقيه، الدنيا والآخرة، إذ أن توجه الهمة يكون خالصاً لبارئها. وارد هذه النفس، هو المعرفة أيضاً، ومحلها هو سر السر، وهو آخر المراتب الوجودية للنفس إذ لا يكون بعدها إلا المحق، وأما سيرها فهو في الله، الذي هو أرفع منزلة من السير إلى الله تعالى إذ أن السير في الله يدل على ذوبان الإرادة الإنسانية في الإرادة الإلهية. وأما حالها فهو الفناء وهذا ما ينسجم وجميع الخصائص التي ذكرت لهذه النفس، وأما دلالتها، فانها تدل على كمال العقل وتتامه وحب التقرب إلى الله عز وجل. (2) ونلاحظ هنا أن الإمام عبد القادر، قد منح لهذه النفس الكمال العقلي، فاما كمال الروح، فان أوانه لم يحن بعد، لأن حال الروح هنا هو الفناء، وهو ليس آخر المقامات ولا أعلاها، إذ يتبعه البقاء الجديد الذي ما بعده فناء.

(3) سورة الرحمن - آية / 26.

(1) الجبلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(2) الجبلي - الفيوضات الربانية - ص 17.

في هذه المرتبة، تزول جميع الطباع السيئة والأهواء الرديئة عن النفس، حتى لا يبقى لها أثر يذكر، فيكون السالك معها فانيا بالله عز وجل لا باقيا بنفسه، كما كان قبل ذلك، ولا باقيا بالله عز وجل، كما سيكون عليه الحال في المحطة الأخيرة، وهذه الحالة - يقول الإمام عبد القادر - لا تدرك إلا ذوقا، وهو بذلك يقطع السبيل أمام المعترضين، ممن هم من غير المشتغلين في الحقل الصوفي، فكون المرء جاهلا بامر ما فان ذلك لا يلغي وجود هذا الأمر ولا يدل على خطئه، ثم إن الحقائق لا تستحصل كلها عن خريق الاستدلال والاستنباط والقياس، أو النظر العقلي بوجه عام بل إن هناك حقائق، يرى الصوفية إنها لا تنال إلا بالتجربة والذوق والمشاهدة القلبية، وهذا هو موضع الخلاف الأصلي بين الصوفية وغيرهم من المشتغلين بحقول المعرفة المختلفة.

يغلب على النفس الراضية، صفات الزهد فيما سوى الله عز وجل، وهي إشارة إلى الزهد في الدنيا والآخرة على حد السواء، ويغلب عليهما الأدب معه تعالى، والإخلاص والورع والنسيان، أي نسيان الأذى وسيئات الآخرين، وكذلك نسيان حظوظ النفس والدنيا، وكذلك الرضا بكل ما يقع في الوجود من غير أختلاج ولا اعتراض ولا قصد أو توجه لرفع المكروه منه، لأن المرید مع نفسه الراضية يكون متفرقا، غارقا في شهود الجمال المطلق، وقلبه مشغول بعالم اللاهوت وسر السر.(1) وأما نفسه فغريقة في بحر الأدب مع الله تعالى. ومن العلامات الدالة على صاحب النفس الراضية هي كونه عزيزا عند الخلق بصورة منقطعة النظير، لأنه قد نودي عليه من حضرة القرب (أنك اليوم لدينا مكين أمين)(2) فصار تعظيم الخلق له قهريا، فلا يعلمون لماذا يعظمونه أو يجلون، وهو كلما أعرض عنهم واشتغل بربه، زاد شوقهم إليه. ومن جهة أخرى فان المرید مع هذه المرتبة، يكون قد أشرف على سلطنة الباخن، التي تكون الظواهر، خاضعة لسلطتها الواقعة تحت قهرها.(3) فهو مع هذه الحالة، لا يكون له ركون أو اعتماد، على أي مخلوق، بل يكون ركونه إلى الله تعالى وحده. الورد الذي يصفه الإمام عبد القادر، للمرید في هذه المرتبة، هو أسمه تعالى (الواحد) بلفظة (يا واحد)، إذ إن الأكثر من ذكر هذا الأسم، يعجل في زوال حال الفناء عن النفس الراضية، كي يحل

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(2) سورة يوسف - آية / 54.

(3) يشير الإمام عبد القادر هنا، إلى أنه في هذه المرحلة يبدأ ظهور الكرامات وخوارق العادات على يدي الصوفي وهي تتمثل في خاعة الأشياء له وخضوعها لأمره، حتى لو كان في هذا الخضوع تغييرا لطبائع الأشياء وقلب لقوانينها الداخلية، كما حدث مع نار إبراهيم (عليه السلام) مثلا.

محله حال البقاء بالله تعالى. (4) كما أنه يدل على الوجدانية المطلقة المؤيدة بشهود قرب أنسه والدالة على وجوده في ذاته وألوهيته المتعالية. (5)

وأخيرا فإنه يمكننا أن نلمس هنا بوضوح، نبرة التصعيد الروحي المتناغم، الذي يمثل فحوى النهج الصوفي عند الإمام عبد القادر، والذي يبدأ من النفس الأمارة بالسوء الموجودة بنفسها وملتصقة بالجسد والشهوات والأهواء وملتعلقة بالملخوقات دون الخالق والمفرخة بالشرعية والحقيقة معا، ثم يصل تدريجيا إلى النفس الراضية التي لا تامر إلا بالخير والتي ليس لها وجود إلا بريها والتي لا تربطها أية علاقة بالشهوات والأهواء والتي تجمع في داخلها، حقيقتي الشرعية والطريقة، على السواء.

سادسا: النفس المرضية

هذه النفس لونها أسود، وهو اللون الجامع لكل الألوان أي أنه يدل على احتواء جميع المراتب والكمالات والأحوال والمقامات، وجامع أيضا لنوري الشرعية والحقيقة، ولحبي الخالق والخلق وأما عالمها، فهو عالم الشهادة لأنها قد أتمت رحلتها في عالم الغيب، ولم يبق أمامها إلا العودة إلى موضعها السابق، وأما محلها فهو الخفاء، ودائرتها الفناء والنور، تميزا لها عن دائرة الفناء المحض الذي تلفعه الحجب الظلمانية، وسيرها عن الله عز وجل، وهو يختلف عن السير في الله تعالى كاختلاف الصبر في الله تعالى، عن الصبر عن الله تعالى، والسير عن الله تعالى فيه دلالة على بداية ظهور علامات الخلافة العظمى التي ستتحقق في المرتبة اللاحقة. وأما حالها فهو الحيرة المتولدة عن مطالعة الغيب ومتابعة الشهادة، وأما واردها فهو الشرعية، لأن صاحب النفس المرضية يحتاج إلى الشرعية للحكم بين الناس، ولكي يكون لهم قدوة في ذلك.

تنصف هذه النفس بحسن الخلق وترك كل ما سوى الله عز وجل، واللطف بالخلق - وهو مقام الإمام المرشد - وحملهم على الصلاح، والصفح عن ذنوبهم وحبهم وأميل إليهم من أجل أخراجهم من ظلمات خبائهم وأهواء أنفسهم، إلى أنوار أرواحهم، ولكن ليس ميله إلى الخلق، هو

(4) الجيلي - المصدر نفسه - مخطوطة.

(5) الجيلي - الفيوضات الربانية - ص 17.

كامليل الذي في النفس الأمارة بالسوء، فإن هذا الأخير هو ميل شرك وحاجة وخضوع.(1) ومما يتصف به صاحب النفس المرضية، أنه يجمع بين حبي الخالق والخلق، ويرى الإمام عبد القادر، إن ذلك أمر عجيب لا يشير إلا إلى أصحاب هذا المقام، ولذا كان صاحب هذه النفس، لا يتميز من عوام الناس من حيث ظاهرة، وأما من حيث باطنه، فإنه يعد معدن الأسرار وقدوة الأخيار، وليس في شهوده شئ من الأغيار من حيث هي أغيار، بل من حيث هي خلق وعباد لله عز وجل، ويتصف صاحب هذه النفس بالوفاء بالوعود والعهود، ووضع كل شئ في موضعه الصحيح، فتراه مثلاً ينفق الكثير من المال إذا صادف محله، فإذا لم يصادف له محلاً، فإنه يحجم عن ذلك، وهو يتصف أيضاً، بأنه لا يغادر حالة الموازنة أو الحالة الوسطى التي هي بين الإفراط والتفريط. وهذه الحالة لا يقدر عليها إلا من كان في هذا المقام، فهي خفيفة على اللسان ثقيلة عند الامتحان، وأن كل شخص يحب هذه الخصلة ويحب من يتصف بها، إلا أنها صعبة المنال.(1) لأن الإنسان مجبول بطبعه على الميل إلى ما يحب ويشتهي بحيث لا يمكنه أن يعتاد على الأتزان المحايد إلا بعد مجاهدات شاقة يتجاوز من خلالها الكثير من الأهواء والميول النفسية.

ينضوي صاحب النفس المرضية، ضمن دائرة العلم الألهي (الحالي)(2) لا علم الرسوم المقلالي وهنا يكمن مصدر خاعة الناس له وتقبلهم منه، إذ أن من ميزة العلم الألهي إنه يلج إلى القلوب والأرواح قبل أن يطرق الأسماع والعقول، والمريد، منذ البواكير الأولى لبلوغه مرتبة النفس المرضية، فإنه تلوح عليه بشائر الخلافة الكبرى، وأما في نهاية المطاف، فإنه تخلع عليه خلعتها وهي خلعة: كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.(3) ويلاحظ هنا الإمام عبد القادر، يسترسل كثيراً في توضيح حال هذه النفس، وهو يستعين في ذلك بأقوال مستمدة من الشرع، وهو يفعل ذلك خشية اللبس في فهم الآخرين لمقاصده فتراه يقول

(1) الجيلي - الفيوضات الربانية - ص 18.

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(2) العلم الألهي الحالي، أي نسبة إلى الحال الصوفي، والحال هو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وإن من صفته

عدم الدوام، وقد قيل أن الحال هو الذكر الخفي - أنظر - الطوسي - كتاب اللمع في التصوف الإسلامي - ص 40.

(3) يستند الإمام عبد القادر هنا إلى الحديث القدسي الشريف: لا يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت

سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده فبني يسمع وبني يبصر وبني ينطق وبني يعقل وبني يبطش. أنهى. وهو حديث متفق عليه رواه

البخاري عن أبي هريرة. أنظر - المغني عن حمل الأسفار ج / 1 - ص 77 - وكذلك نيل الأواخر - ج / 2 - ص 62.

مثلاً؛ إن هذا التأثير الخارق للعبد، لا يكون إلا بالاستعانة بقوة الحق عز وجل، ولا يمكن أن يرى السالك أنه هو الحق جلّ أسمه، كما فهم ذلك بعض الملاحدة عن أكابر الصوفية.(4)

أما كيفية بلوغ وتحقيق هذا الحال فهو ما يأتي؛ أن السالك إذا وصل إلى مقام الفناء، وهو المقام الذي تبلغه النفس في مرتبتها السابقة، أي مرتبة النفس الراضية، فستتمحق صفاته الذميمة وأخلاقه البشرية الرديئة التي هي محل الأنفعال والشقاوة، وهذا يتم بسبب تقربه إلى مولاه عز وجل بالنوافل التي تشتمل على أنواع العبادات، بما فيها الرياضات الروحية ومجاهدة النفس والذكر المستمر، فيهبه الله تعالى، كرماً منه ومئة، صفات بديلة عن صفاته السابقة بحيث سيبدو أمام الناس وكأنه قد من معدن جديد لا مثيل له بين البشر، وإن هذه الصفات الجديدة التي تلحق به، تكون مؤثرة في جميع المخلوقات من بشر وغيرهم وبأذن ربها، وأما علومه ومعارفه فان منبهما يكون من (حق اليقين)(1) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

سميت هذه النفس بالمرضية، لأن الحق تعالى رضي عنها وسيرها عنده، فاخذت ما تحتاج إليه من العلوم، من حضرة الحي القيوم، ورجعت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، بأذن الله تعالى، لتتفع الخلق مما أنعم الله تعالى به عليها. وهذا هو دورها الذي خلقت لأجله، وهذا هو في الوقت نفسه الدور الإيجابي الذي يميز التصوف الإسلامي من سواه في الأديان الأخرى.

سابعاً: النفس الكاملة،

مع هذه النفس يكون المرید قد بلغ آخر مرتبة من مراتب الكمال وأرقاها، وهي لا تكون إلا لخاصة الخاصة من البشر، ممن أدركتهم سابق العناية الإلهية. ليس لهذه النفس نور، وليس في ذلك دلالة على عتمتها، وإنما هو يدل على درجة فنائها الفائقة في الذات الإلهية، ويدل أيضاً على شدة فقرها وذلها وخضوعها لربها، بحيث لا تمثل أمامه بأي سمة تميزها. وأما عالمها فهو الحيرة، وذلك لأقترابها من حضرة الجلال والعظمة الإلهية التي تُعجز العقول وتحير الألباب، وأما حالها، فهو البقاء الذي يلي الفناء وليس البقاء الذي هو قبله، ومحلها الأخفى الذي نسبته إلى الخفي، كنسبة الروح إلى الجسد ونسبة القلب إلى بقية الأعضاء. وارد النفس الكاملة، هو جميع الأسماء الحسنی وصفاتها

(4) يؤكد الإمام عبد القادر هنا موافقته على مقوله الحلاج (أنا الحق)، وهو يلقي باللائمة على سوء فهم بعض (الملاحدة) لمثل هذه الأحوال.

(1) حق اليقين؛ هو عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، لا علماً فقط - أنظر - الجرجاني - كتاب التعريفات - ص 95. وحق اليقين يطلق أيضاً على ما كان بنعت العيان، فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف - أنظر - الرسالة القشيرية ص 74.

هي جميع ما ذكر من الصفات الحسنة. وهي تنضوي تحت دائرة الرحمة والإخلاص بمعرفته تعالى والتصديق بشرائعه.(2)

مع هذه النفس، يكون الصوفي قد بلغ أعلى مراتب الكمال الروحي التي يمكن أن يبلغها مخلوق لأنه قد كملت فيه سلطنة الباخن، وتمت به المكابدات وجميع أنواع المجاهدات ومع النفس الكاملة يكون الإنسان قد استعاد الصورة الأدمية الأولى التي كانت قبلاً للملائكة ومصدراً لعلومهم، والتي كانت حقيقتها هي (الحقيقة المحمدية) وهي سر الله الأعظم واللطفية الإلهية التي لا ثاني لها. ومع كل هذه الصفات، يكون الصوفي قد بلغ أقصى درجات القرب المتاحه من الحضرة الإلهية، فإذا ما بلغها، تحقق بالعبودية المحضة والعجز والذل، فعرف نفسه بهذا الوصف وعرف ربه بنقيضه.(1) إذن فالنهج الصوفي عند الإمام عبد القادر، يهدف إلى استعادة الإنسان سيرته الأولى، وهي سيرة أبيه آدم (عليه السلام) من حيث درجة قربه من ربه تعالى، واتصاله به من دون واسطة أو وسيط، وكذلك درجة صفائه النفسي وعدم خضوعه للحاجات والأشياء المادية، وسيادته المطلقة على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة.

ليس لصاحب النفس الكاملة مطلوب، سوى رضوان ربه تعالى، فهو، رغم علو مقامه، لا يفتر عن الذكر والشكر والعبادة بكله، أي بقلبه ولسانه وجميع جوارحه، ولذلك ترى أن حركاته حسنة وأنفاسه قدرة وحكمة وعبادة، وهو إن رآه الناس ذكروا ربه. على أنه لا يرى إلا في حبور ظاهر مادام الناس متوجهين إلى ربه تعالى، ولكنه يحزن أشد الحزن ويغضب لإدبارهم عن ربه. وليس في قلبه كراهية لمخلوق، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يفتر عن ذلك أو يمل، وإنه ليضع كل شئ في موضعه الصحيح، وهو متى ما وجّه همته إلى كون من الأكوان، أوجده الله تعالى على وفق مراده، لأن مراده في مراد الحق ومن مراده، فإذا ما أراد شيئاً وتوجه في قلبه من الله تعالى، فإنه لا يخيبه، وهذه الميزة تسمى الدعوة المستجابة، وهي من أخص خصائصه وأوفر كراماته.(2)

(2) الجيلي - الفيوضات الربانية - ص 27.

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(2) الجيلي - نفس المصدر - وتجدر الإشارة إلى أن الإمام عبد القادر، يضع في مقابل الأنفس الست الأولى ستة خواهر للقلب، وهي: خاخر النفس وخاخر الشيطان وخاخر الروح وخاخر الملك وخاخر العقل وخاخر اليقين. الخاخر الأول والثاني مضمومان لأنهما لا يأمران إلا بالتمرد وترك الطاعات واقتراف الآثام، وهما لعموم المؤمنين، وأما خاخر الروح والملك، فهما محمودان إلا بالحق وهما لخواص الناس، وأما خاخر العقل فإنه يميل تارة إلى جهة الخير وأخرى إلى جهة الشر، وإن في ذلك لحكمة من الله تعالى، لكي يكون فعل العبد

ومع صفات النفس الكاملة، نكون قد اقتربنا كثيرا من صفات الوريث المحمدي أو الإنسان الكامل أو صاحب الخلافة العظمى، الذي سيرد عنه الكلام مفصلا في الفصل التالي، ويمكننا أن نلمس مما سبق، فضل الريادة والسبق، اللذين تميز بهما الإمام عبد القادر، من خلال توسعه في ذكر أنواع الأنفس وصفاتها، وبهذه الدرجة من الدقة والتفصيل، ويمكننا أن نلمس أيضا ما أشتمل عليه وصفه للنفس الإنسانية، من حدس فائق واستبطان دقيق، سلطا الضوء على زوايا كثيرة من هذه النفس، كانت خافية قبل ذلك.

النفس والمنهج الاصلاحى

إن توسع الإمام عبد القادر، في بحثه في النفس، يمكن القول، أنه متأت أولا من خبيعة منهجه الاصلاحى، فهو قد عمل جاهدا على جعل التصوف الإسلامى العملي وسيلة فعالة من وسائل إصلاح الأفراد والجماعات، وثانيا، لأنه أمل في نشر مبادئ خريفته الصوفية بين أكبر عدد ممكن من الناس، كمنهج بديل لتترك هؤلاء لجوهر التعاليم والمبادئ الإسلامية وتشبثهم بالظاهر من رسومها، وكذلك إنغماسهم في الشهوات ورزوحهم تحت نير ظلم بعضهم لبعض، وتسلط أعدائهم عليهم. فكان التوسع في الحديث عن النفس، مع التبسيط المقصود، في أحصاء مراتبها وأحوالها وأنفعالاتها، خير وسيلة لتقريب معناها من أفهام الناس وثم مساعدتهم على معرفة نفوسهم، وهذه هي الخطوة الأولى والأهم في جماع الفعل الصوفي بوجه عام.

يبقى هنالك تساؤل مهم لابد من خرحه قبل الانتهاء من هذا الموضوع، وهو: هل إن تصور النفس عند مفكرى الإسلام، كان مرتبكا ومائعا وغير محدد الملامح، بحيث أنهم تخطبوا كثيرا في تحديد ماهية النفس وفي التفريق بينهما وبين الروح أو العقل، وبحيث أنهم ظلوا حبيسين للتصورات الجاهلية الخرافية عن النفس وللجذر اللغوي القديم الذي ربط بين النفس والدم وذات الإنسان، كما يذهب إلى ذلك بعض المستشرقين المعاصرين ومن تبعهم من المفكرين العرب؟ (1)

مقرونا بحضور عقله وموزونا بميزانه، وهذا هو موضع التكليف. وأما خاخر اليقين، وهو منبع روح الأيمان فانه لخواص الأولياء من أصحاب اليقين. - أنظر - الجيلي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 67.

(1) حول تفصيل هذه الآراء، يراجع كتاب - يوسف شلحد - بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام - تعريب د. خليل أحمد خليل - دار الطليعة بيروت. أما عن الجذر اللغوي لكلمة (نفس) - فانظر - لسان العرب لأبن منظور - ج/8 - ص 119 وما بعدها وكذلك - تاج العروس للزبيدي - ج/4 - ص 260 فما بعدها.

إننا لو بحثنا في الناتج الفكري لمفكري الإسلام، وبخاصة منه ما يتعلق بموضوع النفس، لوجدنا إن هؤلاء المفكرين سواء أكانوا فلاسفة أم متكلمين أم صوفية، كانوا هم الأوفر بحثًا والأكثر عمقًا من مفكري الحضارات والأديان الأخرى، في بحثهم ودراستهم للنفس الإنسانية، ويتجلى ذلك بوضوح أكثر، لدى الطائفة الأخيرة، فهؤلاء لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة لها علاقة بالنفس، إلا وأحصوها لا بل أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فوضعوا مناهج، يمكن أن نقول عنها (علمية)، في كيفية التعامل مع النفس وكيفية علاجها والترقي بها نحو مدارج الرقي الروحي، ولنا فيما سبق من كلام الإمام عبد القادر، خير مثال على ذلك.

ثانياً : المقامات عند الإمام عبد القادر الجيلي

تقديم :

يعدّ موضوع المقامات، من الموضوعات الأساسية في الفكر الصوفي الإسلامي، فلا يمكن لأي شيخ صوفي أو دارس للتصوف الإسلامي، أن يتجاوز هذه الموضوع، بل هو لا يستطيع إلا أن يقف معه خوياً، إسهاباً وتفصيلاً، لأهميته من جهة، ولتغلغله في جميع مفاصل التجربة الصوفية - بوجه عام - من الجهة الأخرى.

كذلك الحال عند الإمام عبد القادر، إذ يمكن للدارس، أن يرى بوضوح، أن موضوع المقامات عنده، وبكافة مفرداته وفقراته المعهودة، كالشكر والصبر والإخلاص والتوكل والرضا والصدق، قد أخذ مساحات واسعة من مؤلفاته الصوفية، بحيث أنك لا تجد، صفحة واحدة من تلك المؤلفات خالية من إحدى هذه المفردات.

عدد المقامات وأسمائها

قبل الدخول في صلب موضوع المقامات عند الإمام عبد القادر، لابد، إبتداءً، من تثبيت ملاحظتين مهمتين: الأولى منهما تشير إلى أن عدد المقامات وتسلسلها، غير محدد عنده بشكل قطعي وثابت كما هو الحال عند بقية الصوفية، فهي تتفاوت، زيادة ونقصاناً، تقدماً وتأخراً، حسب الموضوع الذي يرى (الشيخ) توضيحه في حينه، ولعل الأمر يتعلق، أساساً، برأيه الذي يربط فيه المقامات فيما بينها بعلاقات عضوية، متفاعلة ومتداخلة، بحيث أنه لا غنى لصاحب مقام الخوف مثلاً، عن مقامي الشكر والرجاء، وكذلك فلا غنى لصاحب مقام التوبة عن مقامي الزهد والإخلاص ، وهكذا وعليه، فإن المقامات عند الإمام عبد القادر، تشكل، في مجموعها، الخيوط التي ينسج منها بساخه الصوفي، من غير عزل وتمييز لهذه اللوحة أو ذاك السدى. وما كان تصنيف هذه المقامات وتبويبها، إلا لأسباب توضيحية، لا علاقة لها بهيكلية التجربة الصوفية عنده. أما الملاحظة الثانية فهي تشير إلى أن مؤلفات الإمام عبد القادر، قد اشتملت على تصنيفات متعددة للمقامات، غير تلك التي عهدناها في كتب التصوف الإسلامي بوجه عام، والتي لم يغفل هو أيضاً، عن ذكرها. فنراه مثلاً، يذكر في كتابه (الفتح الرباني): الإسلام والأيمان والأيقان والمعرفة، مقامات ودرجات للراقي الروحي وأن هذه المقامات، هي أيضاً مرتبط بأحد الآخر برباط عضوي، وأن أحدها متعلق

بصحة ما سبقه، وهكذا. وكالمعتاد أيضا فان الإمام عبد القادر، لا ينسى تذكير مريديه، بان أي صفاء روحي أو تدرج معرفي، لا يتم، في هذه المقامات، إلا مع حفظ حدود الشرع وملازمة آدابه. (1) وأما في كتابه: (الغنية لطالبي الحق عز وجل)، فانه يضع ترتيبا آخر للمقامات يختلف عن سابقه، فهو يبدأ أولا بالزهد والمجاهدة، اللذين ما أن تركز النفس إليهما حتى ينقلها الله عز وجل، إلى ملك الجبروت، وبسلطان الجبروت، تقمع النفس وتقهّر، فاذا ما إستجابت وخشعت، نقلت منه بعد ذلك إلى ملك السلطان، لتهدب وتذوب فيها تلك الغدد العالقة التي هي أصول الشهوات، ثم تنقل بعد ذلك إلى ملك الجلال، فتادب ثم إلى ملك الجمال فتتقى ثم إلى ملك العظمة فتطهر ثم إلى ملك البهاء فتطيب ثم إلى ملك البهجة فتوسّع ثم إلى ملك الهيبة فتربى ثم إلى ملك الرحمة فتترخّب وتقوى وتُشجع ثم إلى ملك الفردية حيث تُفرد وتعاد إلى موضعها الأول. (2)

أما المرید السالك، فانه في جميع هذه المقامات، من أشدها وخاة على نفسه وحتى أيسرها وأهونها عليه، يتقلب في رحمة الله عز وجل، إذ يعتقد الإمام عبد القادر، بانه لولا رحمة الله تعالى وفضله لما أستطاع الإنسان أن يغير ولو قليلا من خبايا نفسه. إن اللطف الإلهي هو الذي يعذب نفس المرید - أي يزيد لها عذوبة بان يزيل عنهما ظلمة الكدورات - والرافة هي التي تجمععه وتكتنفه والمحبة تقويه والشوق بدنيه والمشيئة تؤديه إليه تعالى، والجواد العزيز يقلبه فيقربه ثم بدنيه ثم يمهله ثم يؤديه ثم يناجيه ثم يبسطه بمنه ثم يقبض عليه، فاینما صار المرید السالك، وفي كل مكان جال وفي كل حال لربه دان، فهو في قبضته عز وجل وأمين من أمثائه على أسرارته وما يؤديه من ربه إلى خلقه. (3) فاذا صار إلى هذا المحل، فقد أنقطعت الصفات وأنقطع الكلام والعبارات - وهو حال الفناء - وهذا هو منتهى العقول والقلوب، وغاية ما تبلغه حالات الأولياء وتؤول إليه، وأما ما وراء ذلك، فهو مختص بالأنبياء والرسل دون غيرهم. (4)

يمكننا أن نخلص مما سبق، إلى أنه لا وجود لشيء من المغايرة و(الابتداع) في تصنيفات الإمام عبد القادر، لتلك للمقامات، وإنما هو اختلاف في الصياغة واختصار في التعبير، بينما مراحل

(1) الجبلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني - ص 147.

(2) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3 - ص 1275.

(3) يلاحظ هنا، إن كافة مراتب النفس الإنسانية، والغاية من المقامات الصوفية باصنافها كافة تؤدي عند الإمام عبد القادر، إلى نتيجة

واحدة، وهي بلوغ مرتبة الخلافة العظمى، ومن ثم هداية الخلق وأرشادهم.

(4) الجبلي - المصدر نفسه - ج/3 - ص 1276.

السلوك عنده، واحدة لا تتغير، فمثلاً، المرید الذي يجتاز المراحل أو المقامات الصوفية، إبتداءً من الزهد

وحتى الفناء، فإنه حتما سيمر بمراحل: الإسلام والأيمان والإيقان والمعرفة، وهو أيضاً، سيتقلب حتما بين ملك الجبروت وملك السلطان وملك الهيبة وملك الجلال... الخ. إذن فلا وجود، عنده، إلا لتصنيف واحد للمقامات، وهو ما سنذكره بالتفصيل فيما بعد.

الفوائد الروحية للمقامات

إن بلوغ المقامات الروحية، عبر السلوك الصوفي، لا يعد في نظر الإمام عبد القادر، هدفاً أو غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة، يراد من خلالها، تجاوز عقبة نفسية أو إزالة ظلمة من ظلمات هذه النفس المليئة بالحجب الكثيفة المانعة لها من التمكن من مقام العبودية الحقّة، وأن أعظم غنيمة يمكن للإنسان أن يجنيها من وراء بلوغه هذا المقام، هو إكرامه نفسه، التي كرّمها الله عز وجل إبتداءً وإن أعظم ما يُكرم به السالك في سلوكه، أو من خلال مجاهداته وعباداته، هو: أن تبدّل أوصافه الذميمة، بأوصاف هي حميدة عند مولاه تعالى وهي مقبولة في الشرع والعرف وهي منجّية له من المهالك، فال مقصود من هذا السلوك هو، ((الوصال مع ملك الملوك، والوصل لا يكون إلا برفع الحجب، وأن الحجب في حقيقتها، هي عدم مناسبة بين الطالب والمطلوب، وأن تبديل الصفات تقرّب المناسبة)) (1) وتجدر الإشارة، إلى أن هذه الحجب، ترجع في نظر الإمام عبد القادر، إلى العبد وحده دون المعبود، لأن الله تعالى، لا يحجبه شيء، لأنه لو كان له حجاب، لكان له قاهر، والله تعالى، (هو القاهر فوق عباده) (2) إذن فال محجوب على الحقيقة هو العبد، وأما المقصود من الحجب عند التحقيق، فهي الذنوب والمعاصي والغفلات، على أن تبديل العبد أوصافه الذميمة، بصفات مولاه الحميدة، لا يعني سعيه لاكتساب صفات الألوهية والقدرة والعظمة، وإنما الصفات الحميدة التي وصف بها المولى تعالى نفسه، وأمر عباده بالتحلي بها، مثل الأيمان والكرم والصدق... الخ.

لقد عمل الإمام عبد القادر جاهداً، على أن يجد للمقامات الصوفية غايات عملية، تسلط الضوء على المقصود الرياني الذي يمكن أن يتحقق من خلالها، وأولى هذه الغايات وأهمها، هي تعلم آداب الخضوع للحضرة الإلهية، ويتم ذلك إقتداءً بصاحب الخلق العظيم، محمد (صلى الله عليه

(1) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملوك - مخطوطة.

(2) سورة الأنعام - آية / 18.

وسلم). ثم، إكتساب الشعور بالعجز عن الإدراك، أي إدراك كل ما يتعلق بالذات الإلهية أو القدرة أو العظمة، وهذا الشعور بالعجز، إذا تحقق، فإنه يرتقي بالعبودية إلى المستوى الحق المرجو منها، وكذلك فإن السلوك يدفع إلى التوجه للمعارف عامة، إهتداءً لعالمي الغيب والشهادة، فبغير العلوم والمعارف، لا يمكن الولوج إلى عالم الغيب ولا التعامل مع عالم الشهادة، وكذلك يعلم السلوك المرید أن يتخذ الجوع وسيلة للوصال وأستعجالاً للقاء في الدنيا قبل الآخرة، ثم يعلمه كيفية إنفصال الأرواح عند المناجاة، حالا يحاكي فيه الملائكة بتجردهم وصفائهم، ثم الوقوف مع التوحيد، وضعا ثابتا لا يمازجه خاخر من شرك خفي أو ظاهر، ثم يعلمه كيفية التواصل مع ذكره تعالى وتلاوة كلامه سرا وخفاءً، زيادة في الإخلاص . وكلما أتم العارف مقاما من هذه المقامات، فتح الله تعالى له في كل آخر مقام، بابا من أبواب مواهبه الرحمانية، فيفتح له مثلا، من تعلمه آداب الحضرة إقتداءً، باب البسط في الملك والملكوت والجبروت، فاما في الملك فيكون في العلم والجسم وأما في الجبروت فيكون في الحال والقلب وأما في الملكوت فيكون في الروح والسر، إذ تظهر له أسرار المقامات وحقائق الأحوال، فاذا ما تم للمرید ذلك، فإن روحه ستجد نسيم القرب فلا تالف إلا نسبته، وهذا هو سر العرفان المتولد عن التقوى، وهو أولى حقائق العارفين في أول مشاهدتهم ومبادئ منازلتهم.(1) إذن فما يطمح المرید للوصول إليه، هو أن يكون عبدا حقيقيا ملولا، وأن يكون ذكره خالصا لربه وان يكون صافي النفس نقي القلب آمينا على حدود الله تعالى ، ناصحا لعباده، أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وهذا هو عين ما تبغي الطريقة بلوغه وهو عين ما تامر به الشريعة.

المقام لغة واصطلاحا

وقبل الدخول في تفصيل الكلام عن المقامات عند الإمام عبد القادر، لابد أولا، من التذكير ببعض دلالات كلمة (مقام) اللغوية، والاصطلاحية، من أجل تسليط مزيد من الضوء على جوانب هذا الموضوع.

المقام في اللغة هو موضع الإقامة، واما مفرداته فهي: قام، يقوم، قوما، قياما، قومة، قامه وقام، أي ثبت ولم يبرح ومنه قولهم: أقام بالمكان، ويقال قام اماء، إذا ثبت متحيرا لا يجد منفذا أو إذا جمد والمقامة بالضم تعني الإقامة، وقيل المقام بالفتح هو المنزل الحسنه، وأقام الشيء: أدامه،

(1) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص46.

وقام الشيء وأستقام أي اعتدل وأستوى.(2) فال مقام في اللغة إذن، لا يخرج عن معنى الثبات والأستقرار

والدوام، وهذه هي المعاني نفسها التي ألتزم بها الصوفية في أصطلاحهم.(1) عند الصوفية يشير المقام إلى: مقام العبد بين يدي الله تعالى، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل(2) ويذكر القشيري أن المقام هو ما يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب، بما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف - أي أن المقام يعتمد على سلوك العبد وجهده - فمقام كل أحد، هو موضع أقامته عند ذلك، وما هو مشغول بالرياضة له، وشرحه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر، مالم يستوفي أحكام ذلك المقام، فان من لا قناعة له لا يصح له التوكل ومن لا توكل له لا يصح له التسليم وهكذا. والمقام هو الإقامة كامدخل بمعنى الإدخال والمخرج بمعنى الإخراج، ولا يصح لأحد منزلة مقام، ألا بشهود إقامة الله تعالى أياه بذلك المقام، ليصبح بناء أمره على قاعدة صحيحة.(3) إذن فالقشيري يرى أنه لا يجوز الانتقال إلى مقام جديد مالم يتم التمكن من المقام الذي سبقه، وهذا مالا يؤيده الإمام عبد القادر، كما مرّ بنا سابقا.

الحال

ومن ذكر الشيء بالشيء، فلا بد من أن نعرّج هنا على بعض ما قيل في رديف المقام الذي يذكر معه في أكثر الأحيان، وهو الحال؛ والحال في اللغة ماخوذ أصلا من التحول والتغير، فيقال حال الشيء حولا، وحولا. وأحال، بمعنى تحوّل، وحال الشخص يحول إذا تحول. والتحول يعني التنقل من موضع إلى آخر، والحال يعني أيضا الوقت الذي أنت فيه.(4) وأما في أصلاح الصوفية،

(2) ابن منظور - لسان العرب - ج/12 - ص497 فما بعدها.

(1) وردت في القرآن الكريم تصريفات كثيرة لكلمة (مقام) تفيد في أغلبها معاني: المكان والثبات والاستعداد والمباشرة بالفعل.

(2) الطوسي - اللمع - ص65. ولابد من الإشارة هنا إلى أن الباحث لم يجد كتب الإمام عبد القادر أو الكتب التي نقلت عنه، تعريفا محددا للمقام أو الحال سوى قوله، إن المؤمن صاحب حال والحال يحول والعارف صاحب مقام والمقام ثابت، المؤمن خائف من انتقال حاله وزوال أيمانه، فحزنه دائم في قلبه وبشره دائم في وجهه - أنظر الفتح الرياني والفيض الرحمانى - ص229. ومن هذا (التعريف) يمكن أن نفهم أن المقام عند الإمام عبد القادر، أرفع منزلة من الحال وأدوم وأثبت في القلب وهو كذلك في نظر أغلب الصوفية.

(3) القشيري - الرسالة القشيرية - ص54.

(4) ابن منظور - لسان العرب - ج/11 - ص190.

فيعني الحال؛ كل ما يرد على القلب - من غير تصنع ولا أجتلاب ولا اكتساب - من خرب أو حزن أو بسط أو هيبة أو شوق. والحال يزول بظهور صفات النفس، أي بزوال صفاتها، فإذا مادام وصار ملكاً، سمي مقاماً. فالأحوال إذن مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل الجهد، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترقٍ عن حاله. (1) وقال بعض العارفين أن الأحوال كاسمها، يعني أنها كما تحل في القلب تزول في الوقت وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها، وقالوا أنها إذا لم تدم ولم تتوال فهي لوائح وبوادة. (2) ولم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال. فإذا ما دامت تلك الصفة، فعند ذلك، فقط، تسمى حالاً. ويضيف القشيري بأن الحال هو: منازل العبد في الحين - أي ما يطرأ عليه في حينه - فيصفو له في الوقت حاله ووقته. (3) وخلاصة ما يمكن أن نخلص إليه، من تعريف المقام والحال، يمكن أن نجد ما في قول الإمام عمر السهردوري (ت 632 هـ) وهو من أشهر تلامذة الإمام عبد القادر وذلك في معرض تفريقه بين المقام والحال، فيقول: إن اللفظ والعبارة عنهما - أي المقام والحال - مشعر بالفرق. فالحال سمي حالاً لتحوله والمقام مقاماً لثبوته وأستقراره، وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً. (4)

أما عم عدد المقامات عند الصوفية، فيمكن القول، إنها كثيرة وغير ثابتة العدد، بحيث أنها قد تكثر فتصل إلى مائة مقام كما هو الحال عند الهروي الأنصاري (ت 481 هـ) في كتابه منازل السائرين، وقد تقل فتصبح سبعة مقامات، كما نجد ما عند أبي بكر الطوسي (ت 378 هـ) في كتابه الشهير (اللمع) أما عن الإمام عبد القادر، فقد أحصى لنا سبعة مقامات، هي على عدد الأنفس التي مر ذكرها سابقاً. وهذه المقامات هي ما يأتي:

أولاً: - مقام التوبة

الأصل في التوبة، قوله تعالى (وأنني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) (5) وقوله تعالى

(1) الجرجاني - التعريفات - ص 85.

(2) اللوائح والبوادة: تعني هنا الأشارات والأرهاصات، وأما دوام الحال فيعني به التكرار وليس الثبات، لأنه لو ثبت لأصبح مقاماً.

(3) القشيري - أربع رسائل في التصوف - تحقيق. د. قاسم السامرائي - مطبعة المجمع العلمي العراقي - 1969 - ص 45.

(4) عمر السهردوري - عوارف المعارف - ص 469.

(5) خه - آية 82.

(ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا)(1) وقوله تعالى (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه)(2) والتوبة هي أول المقامات عند الإمام عبد القادر، وهي نقطة البداية في سلوك خريق القوم الموصول إلى حق اليقين، والتوبة تعني التبني من الذنوب التي هي ظلمات القلوب وحجب الأنفس، وهي باب يظل مفتوحا، مادام العبد في الحياة، فإن مات أغلق دونه، (3) وكما نلاحظ، فإن الإمام عبد القادر، يعمل على أن يقدم للتوبة تعريفا مقبولا من لدن الصوفية والفقهاء على حد سواء، وهذا هو جوهر رسالته الفكرية.

التوبة إذن، واجبة على كل أنسان، سواءً أكان سالكا أم غير سالك، لأن حقيقتها هي اللجوء إلى الله تعالى، فالعبد إذا ما تاب إلى ربه، فهذا يعني أنه قد لجأ إليه، وفي اللغة يقال: تاب فلان من أمر أي رجع عنه، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيه، وهي كذلك تعني الندم على ما فات من الذنوب وتعني التوبة أيضا: الرجوع إلى الله تعالى، بحل عقدة الأصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب، والتوبة النصوح هي: توثيق العزم على أن لا يعود بمثله ولا يبقى على عمله أثرا من المعصية سرا وجهرا. وقيل: التوبة هي الاعتراف والندم والأقلاع.(4) أما إذا أريد للتوبة أن تكون مقاما من بين المقامات الصوفية، فإن للشيخ عبد القادر فيها رأيا آخر، فالمرید هنا، لابد من أن يتحقق بالتوبة ويتمكن منها ويتلبس بها، بحيث إنها تسري على ظاهرة وباطنها وعلى جميع جوارحه، فتبدو وكأنها، قلب دولة، أي أن يتبعها تغيّر جذري ملحوظ على المرید التائب بكليته. ويشترط في التوبة (الصوفية) أن تكون مجردة، لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء وهي ما تسمى بالتوبة النصوحة الخالصة لوجهه تعالى، التي لا تعلق لها بترجي مكافأة أو خلب مدح أو جاه في الدنيا أم في الآخرة ويشترط لصحة هذه التوبة، أن يكون العبد معها، مستقيما على الطاعة غير مائل إلى المعصية، ((لا يروغ كما يروغ الثعلب، ولا يحدث نفسه بعود إلى معصية ولا ذنب من الذنوب، وأن يترك الذنب لله خالصا، كما أرتكبه للهوى خالصا)) (5)

من العبارة السابقة يتبين لنا ملامح الأسلوب الصوفي في التعامل مع مفردات الحياة، الدنوية منها و الآخروية، إذ إن الصوفي لا يرضى من المعاملات والعبادات، ألا ما كان جوهريا في تأثيره

(1) سورة الفرقان - آية/71.

(2) سورة المائدة - آية/39.

(3) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحمانى - ص28.

(4) الجيلي - الغنية لطالبي الحق عز وجل - ص537 - ج/3.

(5) الجيلي - المصدر نفسه - ج/2 - ص538.

في كيانه باجمعه، فهو لا تكفيه النية الخاوية ولا ترديد الكلام المحفوظ، وإنما النية المقرونة بالفعل المستمر والمقصود، والمتغلغل في جميع مفاصل الحياة، فالتوبة بهذا المعنى، تهدف إلى إجراء تغيير ملحوظ في حياة الإنسان الداخلية وفي علاقته مع ربه والآخرين، وأما ما عدا ذلك فإنها ستصبح رسماً من بين الرسوم التي يمارسها الناس، ولا يكلفون أنفسهم مشقة فهمها وأستنباط معانيها. أن الصوفي لا يرضى من العبادات إلا بمعانيها الحقيقية، على أنه لا يفرط في الوقت نفسه بما يظهر منها من شعائر وحركات.

إن التوبة إذا ما وصلت إلى هذه النقطة من الفعل والتأثير، فإنها ستقترب كثيراً من حدود الورع فيمتزج الأثنان ويتداخلان، ويكون صاحب التوبة ورعاً ويكون الورع في توبة دائمة، (1) وهنا يمكننا أن نلمس التداخل الذي سبقت الإشارة إليه، بين المقامات الصوفية عند الإمام عبد القادر ولأهمية التوبة، سواء في السلوك الصوفي أم في الحياة الاعتيادية، فقد عدها الإمام عبد القادر فرض عين في حق كل إنسان، إذ لا يخلو أحد من معصية، سواء في الجوارح أم في القلوب، فإن خلا منها بهذين الوجهين، فإنه لا يخلو من الوسواس والخواخرا التي تذهله عن ذكر ربه، فإن خلا من هذه أيضاً، وهو نادر الوقوع، فإنه لا يخلو حتماً من ريبة وحيرة في عقيدته الدينية، مما له علاقة بعلم الصفات والأفعال. والإمام عبد القادر، هنا يعمل على غلق جميع المنافذ، أمام أتهام الصوفية، بادعاء العصمة والحفظ المطلق، في أي مرحلة من مراحل سلوكهم الصوفي، وهو ما يحاول أن يُلصقه بهم خصومهم، فالصوفي، إذن، مهما ارتقى في مراحل الكمال الروحي، فإنه يبق في حاجة ماسة لسدّ نقصه الطبيعي الذي هو وليد بشريته.

مراتب التوبة

والتوبة عند الإمام عبد القادر، ليست واحدة في حق كل الناس، وإنما هي تتفاوت وتتنوع على قدر منازلهم وأحوالهم ومقاماتهم، إذ إن لكل حال يناله الصوفي، مثلاً، خاغات وذنوباً وحدوداً وشروخاً، فحفظ الحال خاغة وتركه والغفلة عنه ذنب يحتاج إلى توبة، والتوبة هنا تعني الرجوع عن الزلة التي وجدت، إلى سبيل الطريق المستقيم الذي شرع له والمقام الذي أقيم فيه والمنزلة التي مهّدت له. فكل الناس، في نظر الإمام عبد القادر، يفتقرون للتوبة، حتى لو بلغوا أرفع درجات

(1) يعرف القشيري الورع بأنه: ترك ما يريبك ونفي ما يعيبك والأخذ بالأوثق وحمل النفس على الأشق - الرسالة القشيرية - ص 61.

الولاية.(1) وإنما هم يتفاوتون في مقادير هذه التوبة، فتوبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلات وأما توبة خواص الخواص، فإنها تُستوجب من ركون القلب إلى ما سوى الله تعالى.(2)

مما سبق، يمكننا ان نخلص إلى أن التوبة كمقام، لا يمكن للمريد ان يتعدّاها صعوداً، إلى المقام الذي يليها، بل هي تظل ملازمةً له كظله، منذ باكورة سلوكه وحتى مراقبه النهائية إنها سلوك يومي يدرأ به عن نفسه مهاوي الزلات والغفلات، وعليه فلا مجال لأي سالك يدّعي الوصول إلى برّ الأمان، وثم يتخلّى عن الواجبات الشرعية، إذ انه حتى خواص الخواص من الأولياء، يحتاجون إلى للتوبة، أي بمعنى إنهم يحتاجون إلى إتيان فعل الطاعات خوال حياتهم.

لا تصحّ التوبة، عند الإمام عبد القادر فتصبح مقاماً، إلا إذا استوفت شروطاً ثلاثة؛ أولها الندم(3) على ما اقترف من المخالفات، وعلامة صحة الندم هي: رقة القلب وغزارة الدمع. وثانيها: ترك الزلات في جميع الأحوال والأوقات، وثالثها: عقد العزم على عدم العودة إلى ما اقترف من المعاصي والخطايا. فان تمت هذه الشروط، نصحت التوبة وأصبح المرید بعدها، لا يبالي كيف أمسى أو كيف أصبح، إذا أن الندم الذي انتابه، سيورثه عزمًا وقصدًا على أن لا يعود لما أسلف من المعاصي، لعلمه المستفاد من ذلك الذي مفاده: أن المعاصي تحول بينه وبين معبوده.

وكما تختلف التوبة باختلاف الناس واختلاف مراتبهم الروحية، فإنها تختلف أيضاً، باختلاف الأزمنة وهي: الحاضر والماضي والمستقبل، فأمّا ما يتعلق منها بالزمن الحاضر فهو يعني: ترك كل محظور وأداء كل فرض، وأمّا ما يتعلق بالماضي، فهو: تدارك ما فرط، وأمّا ماله علاقة بالمستقبل، فهو: المداومة على الطاعة وترك المعصية إلى الموت.(1) على أن هذه التوبة، لا تكون من العبد تجاه ربّه فقط، بل ان لها وجهاً يتعلق بالعباد، ويعالج باداء حقوقهم والإحسان إليهم وإرضائهم،

(1) يذهب الإمام عبد القادر، إلى أنه حتى الانبياء لا غنى لهم عن التوبة، وهو يستند في ذلك إلى الحديث النبوي الشريف: انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله عز وجل في اليوم الواحد واللييلة سبعين مرّة. انتهى. ومعنى يغان أي يغشى ويغطي. وهو حديث صحيح رواه الإمام احمد ومسلم وابو داود والنسائي. وحول سند الحديث - انظر - المغني عن حمل الاسفار - ج/4-ص10. وقد ذكر الإمام عبد القادر هذا الحديث في كتابه : الغنية لطلبى خريق الحق عز وجل - ج/2-ص545.

(2) الجيلي - المصدر نفسه - ج/2-ص544-545.

(3) الندم في اصطلاح الإمام عبد القادر هو: توجع القلب عند علمه بفوات محبوبه، فتطول حسراته واحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته، فيعزم على أن لا يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من العلم بشؤم ذلك. انظر - المصدر نفسه - ج/2 - ص558.

(1) الجيلي - الغنية لطلبى خريق الحق عز وجل - ج/2-ص558.

بينما الوجه الأول الذي هو إزاء الرب تعالى ، فانه يعالج بالاستغفار باللسان والندم بالقلب وإضمام
النية على عدم العودة إلى ما تاب العبد منه.

مصدر التوبة

ولنا أن نسال، أخيراً، هل التوبة هي من سابق عناية الله تعالى لعباده، أم إنها فعل خالص
لإرادة العبد وقصده ؟ علماً أن ما يصح على التوبة من جواب على هذا السؤال، يصح على الفعل
الصوفي برمته. يتميز جواب الإمام عبد القادر عن هذا السؤال، بانه يجمع كل الأمرين في مزيج
واحد متجانس. فالتوبة تبدأ من التوفيق وسابق العناية الإلهية، وان بداية نزوع العبد نحو صدق
التوبة، يبدأ من عند الله عز وجل ((فالتوبة لا تخرج عن كونها نظر الحق تعالى إلى عنايته السابقة
القديمة لعبده، وإشارته بتلك العناية إلى قلب عبده، وتجريده آياه بالشفقة، مجتذباً إليه قابضاً،
فإذا كان كذلك، انجذب القلب إليه عن كل همّة فاسدة وتابعه الروح ووافقه العقل، فصحت التوبة
وصار الأمر كله لله تعالى)).(2) فإذا ما استجاب العبد لهذه الدعوة، وسعى لها سعيها، خبعت
بطابعه

وكانت له فعلاً خالصاً وصادراً من محض إرادته وقصده، وفوق ذلك، فانه يستحق لأجله الثواب.
وهكذا هو الفعل الصوفي عامة إذ انه في الوقت نفسه دعوة ربانية وتلبية بشرية، فإذا ما اختلطت
هذه التلبية، بصدق العبد وإخلاصه فانه سيصل معها إلى ابعد المرامي وأعلى الرتب.

علاقة التوبة بالورع

فإذا ما نصحت التوبة، واستوفى العبد شروخها، وتشرب بها قلبه وروحه وعقله وكل جوارحه
وصارت لنفسه خبوعاً مستفاداً دائماً، تطورت فاستحالت ورعاً. أي إنها صارت حذراً إيجابياً ملازماً
للمريد في جميع حركاته وسكناته، أو بالأحرى صار الخوف من اقتتراف المحذور، والخشية من
مباشرة الشبهات، خبوعاً من خبوع النفس، يعلم من خلاله المرید، وبفطرته السليمة التي استعادها
((ان سلوك خريق الحق، متعذر على من هبط إلى سجين الطبيعة وأسفل السافلين، وانحبس في

(2) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص122. ونلاحظ هنا، ان الأمر الإلهي الذي مادته الايمان والمغيبات، يكون القلب هو محله
الأول، ثم بعد ذلك تتبعه الروح، التي تقف بين الغيب والشهادة، ثم العقل أداة الشهادة، فاما اذا كان الامر تعلق بالاوامر والنواهي، فان
العقل هو اول من يستجيب، لانه ما خلق الا لاجل ذلك، ثم بعد ذلك يتبعه الروح ثم القلب، وعلى أساس هذا التقسيم للواجبات، فاننا
يمكن ان نضع العقل في مقام الاسلام والروح في مقام الايمان واما القلب فهو في مقام الاحسان بدلالة كونه موخن الفعل الصوفي.

قفص العادات، واصطيد بشبكة المخالفات)). (1) فإذا ما عكسنا هذا القول فإن النتيجة هي: إن خريق الحق متيسر لكل من ارتقى فوق خبائعه الدنيئة وتحرر من قفص عاداته وشبكة أهوائه.

الورع اذن، هو الخطوة التالية التي تكمل مقام التوبة، فتمنحه صفة الديمومة والثبات (2)، والورع بايسر معانيه، يعني ترك الشبهات (3) وهو بهذا المعنى، يدل على أنه فعل شرعي محض، وما دامت التوبة تُفضي إلى الورع والورع يفضي إلى التوبة، فهذا يعني أن الحقيقة تفضي إلى الشريعة والشريعة تفضي إلى الحقيقة، أو بالأحرى فإنه لا وجود لفواصل حقيقية بينهما، وهذا هو جوهر ما يرمي الإمام عبد القادر إلى بيانه. وأما الورع بمعناه الموسع فهو: إشارة إلى التوقف في كل شيء وترك الإقدام عليه إلا باذن شرعي، فإن وجد للشرع فيه فعلاً لتناوله فيه مساعاً، والا تركه. والورع هو ملاك الأمور كلها. (4)

مستويات الورع

يقسم الإمام عبد القادر - كعاداته في تقسيم الموضوعات - الورع على ثلاثة مستويات: ورع العوام وهو ورع عن الحرام والشبهة، وورع الخواص وهو ورع عن كل ما للنفس والهوى فيه شهوة وورع خواص الخواص، وهو ورع عن كل ما للنفس فيه إرادة ورؤية، فالعام يتورع في ترك الدنيا، والخاص يتورع في ترك الجنة العليا وخاص الخاص يتورع في ترك كل ما سوى الذي خلق وبرا. وغير هذا التقسيم، فإن الورع عند الإمام عبد القادر، ينقسم على قسمين، ورع ظاهر وورع باطن، فاما الظاهر فهو أن لا يتحرك العبد إلا بالله عز وجل، وأما الباطن، فهو أن لا يدخل قلبه سوى الله تعالى. (1) وكان الإمام عبد القادر، يريد أن يخبرنا، بأن الورع هو اختصار لفعل الصوفي برمته، فبه تتحقق الطاعة الحق لله تعالى، وهو الذي يفضي إلى التوكل الصحيح، وهو الذي لا يبقى إرادة

(1) الجيلي - فتوح الغيب - هامش كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 80.

(2) يعد الإمام عبد القادر، من بين أكثر مشايخ الصوفية اهتماماً بموضوع الورع، فهو كثيراً ما يتطرق إليه وفي أغلب كتبه، ولعل مرد ذلك يعود إلى اعتقاده بأن الورع هو عماد الدين والحافظ للقلب من التردى في مهاوي الغفلات، لأن الورع عنده يعني الخوف من اتیان الذنوب وتجنب الخوض في الشبهات.

(3) هكذا ورد تعريف الورع عند القشيري - انظر - الرسالة القشيرية - ص 90.

(4) الجيلي - الغنية لطربي خريق الحق عز وجل - ج 2 - ص 583. وكذلك ورد التعريف في بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي - ص 66. وقلائد الجواهر للتادفي - ص 81.

(1) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 66.

للعبد مع إرادته تعالى ، وهو فوق ذلك يؤدي إلى بلوغ العبد أعلى درجات العبودية والتوحيد، وذلك بان يمنع أي داخل إلى قلبه سوى ذكر مولاه تعالى .

إن من بين أهم وأنبيل آداب السلوك للمريد، عند الإمام عبد القادر، هو عدم ترك الاحتياط في الورع، في حال ضيق اليد، فلا يخرج المرید السالك إلى ما لا يحلّ في الشرع متذرعاً بفقره فيتحول من العزيمة إلى الرخص. إن الورع هو ملاك الدين والطمع هلاكه وتناول الشبهات فسادة وإن من لم يصحبه الورع خوال مسيرته الصوفية، أكل الحرام وهو لا يدري، فعليه إذن أن لا يخلد إلى التاويلات في دينه، في حال فقره، بل يركب الأشق والاحوط الذي هو العزيمة. وفوق ذلك فإن من لم ينظر في دقائق الورع، فلن يحصل على نفائس العطاء الروحي.

والورع إذا ما دُقق النظر فيه، صار متنوعاً ومتفاوتاً، فهو يختلف من موضوع لآخر، فالورع في الكلام، أشدُّ منه في الذهب والفضة، والورع الذي يكون في الزهد في خلب الرئاسة، هو أشد من الورع الذي يصدر عن الزهد في المال، لأن المال قد يبذل في خلب الرئاسة. والزهد هو أول الورع، إذ إن من لم يعتد على الزهد في خلب اللذات لا يمكنه التواصل مع الورع. ويرى الإمام عبد القادر، إن الورع يمثل شرحاً أساسياً للنجاة في الدنيا والآخرة، وإلا فإن من ترك الورع، فإن الهلاك سيلازمه حتماً، إلا أن يتغمده ربه برحمته.(2) أي أن العبد، إذا ما احتكم إلى ميزان العدل الإلهي، فإن تركه الورع سيؤدي به حتماً إلى الهلاك، لأنه سيقترف بهذا الترك، إحدى المعاصي لا محالة، ومن هنا، جاء الإمام عبد القادر على ضرورة أن يكون الورع مصاحباً للسلوك الصوفي في مراحل كافة وللإنسان الاعتيادي في أخواره المختلفة .

وللتمثيل على تطبيق قواعد الورع، في الحياة العملية، يذكر الإمام عبد القادر، الطعام واللباس أمثلة يتجلى فيها الأخذ بمبدأ الورع، بشكل ملحوظ ففي الطعام يكون الناس على ثلاثة أضرب: متقٍ وولي محق، وبديل عارف. فحلال المتقي فيما ليس للخلق عليه تبعة ولا للشرع عليه مطالبة، وهو ما تعارف عليه الناس بالاكل الحلال. وخعام الولي المحق الذي هو الزاهد الزائل الهوى، ممّا ليس فيه للهوى موضع، بل هو إلتمار بامرّه تعالى ، وخعام البذل الذي هو العارف، المفعول فيه، زائل الإرادة، كرة القدر. وهو مما لم تكن فيه همّة ولا إرادة، بل فضل كله من الله تعالى ، يرزقه ويحفظه ويربيه بمقدرته الشاملة ومثّته العامة ومشيدته النافذة، كالطفل الرضيع في حجر أمّه الشفيقة. على أن من لم يتحقق بالمقام الأول لا يصل إلى الثاني، ومن لم يتحقق بالمقام الثاني، لا

(2) الجبلي - فتوح الغيب - هامش بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص82.

يصل إلى الثالث. وعلى أساس هذه المراتب، فإن خدام التقى (1) يعدّ شبهة في حق زائل الهوى وخدام زائل الهوى يعد شبهة في حق زائل الإرادة والهمة وكما قيل، فإن سيئات المقربين هي حسنات الأبرار، وإن الحلال المطلق هو الذي لا يعصى الله تعالى به ولا بشيء فيه، وهذا لا يتحقق إلا للأنبياء فقط. (2)

أما في اللباس، فإن الناس فيه على ثلاثة أضرب أيضاً، فلباس التقياء هو عينه الحلال المتقدم ذكره، سواء أكان كثناً أم قطناً أم صوفاً، أم غير ذلك ولباس الأولياء هو ما وقع به الأمر، وهو أدنى ما تستربه العورة وتدعو إليه الضرورة ويتحقق به زوال الأهوية، وأما لباس الأبدال، فمما جاء به القدر، ثميناً كان أم زهيداً، ولكن مع شرط حفظ الحدود. (3) إذن، فليس التخشن في الماكل والملبس هو المطلوب في السلوك الصوفي، بل إن المطلوب، هو تخلص كل ما يتعلق به الإنسان أو يتناوله، من الأهواء والعلائق والشبهات، فمّا إن تمكن الخير والصلاح من نفسه، فلباس عليه بعد ذلك فيما تناول من الطيبات، إذن، فليس هذا من الرهبانية في شيء، وإنما هو دعم لأنسانية الإنسان وتوسيع مساحة حريته، فالشخص الذي لا تأسره الأهواء ولا تستعبده الحاجات هو حتماً أكثر إنسانية من سواه.

شروط صحة الورع

وأخيراً، فإن المرید، عند الإمام عبد القادر، لا يكون ورعاً، إلا بعد أن يستوفي عشر خصال فريضة على نفسه، وهي حفظ اللسان من الغيبة والاجتناب عن سوء الظن والثالثة تجنب السخرية، والرابعة غض البصر عن المحارم والخامسة صدق اللسان والسادسة أن يعرف منة الله تعالى عليه لكيلا يعجب بنفسه والسابعة أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباخل والثامنة، أن لا يطلب لذسه العلو والكبر، والتاسعة، المحافظة على الصلوات الخمسة في مواقيتها، بركوعها وسجودها،

(1) التقوى عند الإمام عبد القادر تتوزع على ثلاثة أوجه، تقوى العامة في ترك الشرك بالحق وتقوى الخاصة في ترك الهوى والمعاصي ومخالفة النفس في سائر الأحوال وتقوى خاصة الخاصة من الأولياء في ترك الأرادات في الأشياء والتخير في النوافل من العبادات والتعلق بالأسباب والركون إلى ما سوى المولى، بل لزوم الحال والمقام وامتثال الأمر في جميع ذلك مع أحكام الفرائض وتقوى الأنبياء (ع) أن لا يتجاوزهم غيب في شيء فهم من الله وإلى الله، يامرهم وينهاهم ويوفقهم. ويستدل على التقوى بثلاث، بحسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر على ما قد فات. وإن من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة - بهجة الأسرار ومعن الأنوار - ص 65-66

(2) الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج 2 - ص 596

(3) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعن الأنوار - ص 66

والعاشرة، الاستقامة على السنة والجماعة (1) والإمام عبد القادر، يدعم جميع هذه الخصال، بايات قرآنية، ليؤكد الترابط البالغ بين جناحي الايمان : الشريعة و الحقيقة، علماً أن هذه الخصال التي لا بد للمريد من أن يتحلى بها، هي في حقيقتها، خصال أساسية، لا بد على كل مسلم من أن يسعى إلى نيلها والتحلي بها، فهي من بدائه الايمان التي لا يمكن أن يختلف عليها اثنان .

ثانياً - مقام التوكل :-

التوكل بايسرو أوضح معانيه، يعنى الثقة بما عند الله تعالى ، والياس ممّا في أيدي الناس.

(2) والتوكل هو ا مقام الثاني بعد التوبة، على أن كثيراً من مشايخ الصوفية يرى فيه ا مقام الأول، لما له من تاثير بالغ في تقويم السلوك الصوفي لدى المرید، فهو بالتوكل، يستطيع التقرب من مولاه عز وجل، وذلك بانسلاخه عن حوله وقوته وعن جميع الخلائق، وهو بالتوكل، يستطيع أن يتقوى على ازالة الكثير من الصفات السيئة. الأصل في التوكل، هو قوله تعالى : ((وعلى الله فتوكّلوا ان كنتم مؤمنين)) (3) ويبدو الربط واضحاً في هذه الآية، بين التوكل و الايمان، وكذلك ورد التوكل في قوله تعالى : ((ومن يتوكّل على الله فهو حسبه)) (1) وتدل هذه الآية على كفاية ا متوكلين بربهم عن كل من سواه. وأمّا في الحديث الشريف، فقد ورد قوله (صلى الله عليه وسلم): ((لو توكّلتم على الله حق توكّله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)) (2) وكذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) من ضمن حديث خويل: ((من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله)) (3) وأمّا تعريف التوكل عند شيوخ التصوف، فقد عرفه ذو النون المصري (ت245هـ) بأنه: ترك تدبير النفس و الانخلاع من الحول والقوة. (4)

والتوكل عند حمدون القصار (ت-270هـ) هو الاعتصام بالله عز وجل. (5) وعند سهل بن عبد الله التستري (ت283هـ) هو: الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد. (6) واما عند الجزيري

(1) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/2-ص600.

(2) الجرجاني - التعريفات-ص74.

(3) سورة المائدة- اية/23.

(1) سورة الطلاق- اية/3.

(2) رواه احمد في مسنده- المغني عن حمل الاسفار-ج/4- ص239.

(3) حديث ابن عباس- رواه الحاكم والبيهقي- المغني عن حمل الاسفار- ج/4-ص239.

(4) الطوسي- اللمع- ص49.

(5) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3-ص1339.

(ت-297هـ) فهو؛ ان تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه.(7) ويمكننا ان نلاحظ، ان ما جاء به كبار المتصوفة عن التوكل، يتفق تماماً مع ما جاء في الكتاب والسنة، والذي مفاده اجمالاً ان التوكل هو ثقة العبد بما في يد ربه وعدم ثقته بما في يديه أو في ايدي الناس، وكذلك فالتوكل هو سرّ قوة العبد المؤمن، الحقيقية، وأما ما عداه، فوهم وخداع.

التوكل عند الإمام عبد القادر

وأما عند الإمام عبد القادر، فيمكننا ان نفهم التوكل من خلال التعريفات الأربعة التي عرفه بها وهي؛ أولاً- التوكل هو ترك الأسباب والأرباب والخروج من الحول والقوة، من حيث القلب والسرّ وخلق المسبب وحده، مع خروج القلب عن التعلق بالخلأئق، على ان كل ذلك، يجب ان يكون مصحوباً بالمعرفة بالله عز وجل والعلم به. وأما ثانياً، فالتوكل يعني؛ تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي عن ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير، بحيث يقطع العبد، ان لا تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته وما لم يقدر له لا يناله، فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاة فيأخذ بعدئذٍ من مولاة.(1) وفي التعريف الثالث يعني التوكل؛ اشتغال السرّ بالله عن غير الله، فينسى ما يتوكل عليه لأجله، ويستغني به عمن سواه، فترفع عنه حشمة الغنى في التوكل. وأخيراً، فالتوكل هو؛ استشراف السرّ بملاحظة عين المعرفة إلى خفيّ غيب المقدورات، واعتقاده، حقيقة اليقين، بمعاني مذهب المعرفة، فانها محتومة لا يقدح فيها مناقص.(2) انتهى. فاذا ما تتبعنا هذه التعريفات، لوجدنا انها تدور على أربعة محاور هي؛ الإيمان بحتمية تقسيم الأوقات والأرزاق والحظوظ، مع التيقن بان ما كان للعبد لا يكون لغيره، وما كان لغيره لا يكون له أبداً. ثم تفويض الأمور إلى الله تعالى مع ترك الاختيار والتجرد عن الإرادة، ثم ترك التعلق بالخلق وحصره بالخالق فقط. ثم أخيراً، تعويد السرّ على الاشتغال بالله تعالى والاستغناء به عن سواه. وهذه (المحاور) هي مما يطمح إلى الاعتقاد والعمل به، كل المؤمنين، السالكين منهم أم غير السالكين، والإمام عبد القادر، وان صاغ هذه التعريفات الأربعة، بلغة صوفية ملحوظة، الا انه في الوقت نفسه، حافظ على ثوابته المنهجية، اذ جعل من كلا المطلبين، الشرعي والصوفي، مطلباً واحداً، وهو ما يمكن ان نسميه بـ (التوحيد) أي التوحيد الحالي الذي

(6) الطوسي - الملح - ص49.

(7) الجيلي - المصدر نفسه - ج/3-ص1340.

(1) الجيلي - المصدر نفسه - ج/3-ص1337.

(2) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار-ص122.

يتلبس في قلب وعقل وروح المرید بعد خول مراس نفسي ومعرفي وبعد مكابدات ورياضيات لا يصبر عليها الا الخالص من العباد.

درجات التوكل

وعند الإمام عبد القادر فان مقام التوكل، لا يتحقق دفعة واحدة وعلى الوتيرة ذاتها، بل هو يتوزع على ثلاث دفعات وفي وتيرة تصاعدية، تبدأ بالتوكل ثم التسليم ثم أخيراً التفويض. المتوكل يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه تعالى بحاله وصاحب التفويض يرضى بحكمه تعالى فيه وفي غيره، وعليه فان التوكل يُعدُّ صفة للعوام وهو البداية والتسليم هو صفة الخواص وهو الوسط والتفويض هو صفة خواص الخواص وهو نهاية المطاف في هذا المقام.(3)

وتجدر الإشارة هنا، إلى ان التوكل بكونه صفةً للعوام، لا يعني انه توكلٌ على كمال الحقيقة، لانه لو كان كذلك، فانه سيغدو تفويضاً، وهذا ليس من فعل العوام، ويضرب الإمام عبد القادر لنا مثلاً عن التوكل على كمال الحقيقة بقصة نبي الله إبراهيم(عليه السلام) مع جبريل(عليه السلام) وذلك حين ساله الأخير أثناء إلقاء إبراهيم(عليه السلام) في النار: ألك حاجة؟ قال: أما أليكَ فلا. وما أجاب الخليل(عليه السلام) بهذا الجواب لأنه غابت نفسه حتى لم يبق لها اثر، فلم يَرَمَ مع الله تعالى غيره.(1) كذلك فكون التوكل صفة للعوام فهذا لا يعني انه يقع خارج دائرة السلوك الصوفي، بل هو يعدّ المرحلة الأولى فيه، ولكن هذا التوكل ذاته يترقى فيصبح تسليماً ثم تفويضاً، وإننا لو دققنا النظر في (مراتب) التوكل الثلاثة تلك، أي التوكل والتسليم والتفويض، لوجدنا انها جميعها لها علاقة بإرادة الإنسان، فالمتوكل يؤجل العمل بإرادته، وبخاصة ما يتعلق منها بإعمال الباطن، وأما صاحب التسليم فانه يجمّد العمل بإرادته، معتمداً بدلاً من ذلك على إرادته تعالى، وأما صاحب التفويض فانه يمحى إرادته بالكلية، بحيث لا يبقى له مع إرادته تعالى، قصداً أو فعل أو رغبة، وهو حال الفناء الوجودي الذي سيأتي الكلام عنه فيما بعد.

التوكل والتواكل

ولحرص الإمام عبد القادر، على اظهار معالم نظريته الصوفية، بصورة مقبولة من (الأخرف) كافة، فانه عمل على إزالة اللبس الحاصل في أذهان الناس، بيّن التوكل بكونه سلوكاً صوفياً ايجابياً،

(3) الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3 - ص1338.

(1) الجيلي - المصدر نفسه - ج/3 - ص1338.

والتوكل او(التواكل) بكونه سلوكاً اجتماعياً سلبياً مرفوضاً، ولعل مصدر هذا اللبس الأكثر خطورة، هو التعارض الظاهري القائم بين التوكل كنظرية وبينه كتطبيق، وما يلحق هذا التعارض من تقاخ مع قصد الكسب، الدنيوي والأخروي، وكذلك السعي لطلب الرزق وأداء الأعمال اليومية أو إدامة العمران بوجه عام.

يرى الإمام عبد القادر، إن الحركة بالظاهر، التي هي الكسب بالسنة، والتي عمل بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، إذ اشتغل واكل من كسب يديه، وهو على ما كان عليه من مقام رفيع ودرجة قريبة من ربه تعالى، لا تتنافى أبداً مع توكل القلب، الذي هو تحقيق الأيمان، وهو معنى قول النبي(صلى الله عليه وسلم): (إعقلها وتوكل). (2) فالتوكل الصحيح، يعني التصديق بوعده الله تعالى، الذي وعد به عباده بالرزق والعطاء والحفظ والثواب، وهذا التصديق، يُعدّ شرحاً أساسياً من شروط إيمان العبد، وهو مما لا يتعارض والأخذ بالكسب، لان من أنكر الكسب فقد أنكر السنة، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الأيمان. (1) ولأنه لا وجود لأي تعارض بين حقيقة الأيمان ومفردات السنة، بل بالعكس، فالاثنتان في توافق مطلق إن لم يكونا في اتحاد.

إن العبد الذي يشتغل بالدنيا، مع اتكاله على حوله وقوته، تنقطع به الأسباب حتماً، فيتعب ويسخط، وكذلك الامر عند من يشتغل بالآخرة ويجعل منها همه المطلق، فانها ستفوته وتعجزه، فهو في الحقيقة، لم يعطها حقها، ولم يستوف لها شروخها، فاما اذا ما اشتغل بالحق عز وجل، وتوجه له وحده دون سواه، فانه يكون قد استفتح باب المعاش بيد قوته تعالى والتوكل عليه، واستفتح باب الطاعات بيد هديه وتوفيقه، فاذا ما وصل المرید إلى هذا المقام، أي مقام خلبه تعالى، فليطلب منه ما شاء أن يطلب، على أن يكون أخص مطالبه هو: الصدق في خلب قوته ومعونته، لأجل ان تثبت اقدام قلبه وسره بين يدي ربه تعالى، مع فراغ القلب من شغل الدنيا والآخرة. (2)

على انه لا وجود للخطأ، في نظر الإمام عبد القادر، فيما لو اعتقد العبد بالتوكل وفي الوقت نفسه اخذ بالأسباب، ثم تعسر عليه الامر بعد ذلك، أو تقطعت به الأسباب، لان ذلك هو من تقدير الله عز وجل، فكما ان بيده تعالى تيسير الأمور وتهيئة الأسباب، فكذلك بيده تعسيرها

(2) روي عن انس بن مالك(رض)، انه جاء رجل على ناقة له فقال: يا رسول الله ادعها واتوكل ؟ فقال(ص)، إعقلها وتوكل. رواه الترمذي. انظر المغني عن حمل الاسفار-ج/4-ص272.

(1) يلاحظ هنا، ان الإمام عبد القادر، يلوح بعضا المروق لكلا الفريقين، للصوفي المتواكل الذي يرفض الكسب والعمل بالاسباب جملةً وتفصيلاً، وللفقيه المتشنج الذي يرفض التوكل متذرعاً بأساءة فهمه.

(2) الجيلي - جلاء الخاخر من كلام الإمام عبد القادر- ص44

وتضييقها، على أنه لا بدّ من أن يكون المرید، في كلا الحالین، ثابت الجنان، رضيّ النفس، لأن وضعه الصحيح هو في أن تكون ظواهره متحركة بالسبب بأمر الله تعالى وباخنه ساكن لوعده تعالى . وعند هذه النقطة يكون المرید، قد بلغ درجة التوكل الصحيح، الذي هو الثقة بما في يد الله عز وجل والياس ممّا في أيدي الخلق، فيفرغ السرّ بعد هذا الاعتقاد، ويسكن عن التّفكّر للتقاضي في خلب الرزق.(3) ويلاحظ هنا، أن الذي يفرغ عن التّفكّر هو القلب والسرّ وليس الهمة والعزيمة. ولا بدّ من التذكير هنا، بأن الإمام عبد القادر بازالته الحواجز الوهمية الفاصلة بين حقل التوكل على الله تعالى والأخذ بالاسباب الدنيوية، فإنه أزال أو حلّ إشكالاً مستعصياً خالماً تذرع به خصوم التصوف فنعتوا المتصوفة، بالمتواكلين والكسالى والهروبين، وبأنهم ضد أعمار المجتمعات. أن الصورة التي يقدمها لنا الإمام عبد القادر عن التصوف، تؤكد على ضرورة السعي والعمل والأخذ بأسباب

العيش والحياة المادية، ولكن شرط أن يتم ذلك تحت مظلة التوكل على الله تعالى ، وهنا تتأكد أمامنا، مرة أخرى، حقيقة منهج الإمام عبد القادر، الصوفي، الذي يتبنى فيه الخط الوسط، متجنباً الإفراط والتفريط، فلا انغماس في الاسباب والمسببات، مع تغافل قدرة الباري تعالى والتغافل عن محدودية القدرة البشرية، ولا الإغراق في الانسحاب من الحياة الدنيا والتكاسل عن عمل أية وظيفة، تحت ذريعة التوكل على الله تعالى والتفرغ لعبادته.

الكسب والتكسب

وغير التعارض بين التوكل والتواكل، فإن الإمام عبد القادر، يضعنا أمام تعارض آخر، وهو التعارض القائم بين الكسب والتكسب. الكسب، هو الفعل الإيجابي، وهو من السنة ويسميه الإمام عبد القادر بـ (الكسب الحلال)، وأمّا التكسب، فهو سلبي دنيوي، لأنه إتكال مطلق على الأسباب المادية، من خلق وصنائع، وهو ما يعدّه الإمام عبد القادر، نوعاً من أنواع الشرك الخفي الذي يقطع صاحبه عن الأكل بواسطة الكسب الحلال.

أنه شرك، لأن العامل به، يظن أنه يرجع إليه ويأكل به ويتوكل عليه، ولذا فهو يحتاج إلى توبة كي يعود بعدها، فيرى أن الله تعالى ، هو الرازق وهو المسبب وهو المسهل وهو المقوي على الكسب والموفق لكل خير. وأن الرزق بيده كله، فتارةً يواصل به بطريق بعض خلقه ابتلاءً لهم وعلى وجه المسألة، أو عند الإلحاف عليه بالدعاء، وأخرى بطريق الكسب معاوضةً، وأخرى من فضله مبادأةً ومن غير نظر إلى واسطة أو سبب. فإذا ما بلغ المرید إلى هذا المقام، فيسكون عندها قد رجع

(3) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3-ص1345.

إلى ربه ومثل بين يديه، ((فرفع الحجاب بينه وبين فضله، وبأداة وغذاء بفضله على قدر ما يوافق حاله، كفعل الطبيب الشفيق، حمايةً منه عز وجل وتنزيهاً له عن الميل إلى من هو - سواءً -⁽¹⁾ وعلى هذا الأساس، فإنه يمكن القول: أن جميع الأعمال التي يؤدّيها الإنسان، سواءً الدنيوية منها أم الآخروية، لا بدّ أن تقاس بمقياس علاقة العبد برّبه، لأنه حتى العمل الجسدي والكسب لاجل العيش يمكن، فيما لو فهمت خطأ، أن تؤدي بصاحبها إلى شرك يخفى عليه. وعليه، فإن الاعتقاد الصحيح، يؤدي حتماً إلى التوحيد الحق، وأن العبد الذي يستشعر قوة ربّه وقدرته وفعله وتصرفه في جميع ما يؤدّيه من أفعال، هو حتماً أكثر الناس توحيداً لربه.

أن المرید، ما دام يخالط قلبه شيء من الدنيا والخلق، فهو بعيد حتماً عن الاخذ بالتوكل الصحيح لأنه سيكون خاضعاً لتأثير مدح الناس وذمّهم، وسيكون حبيس نفسه وهواه وخبجه، وسوف لا ينال مبتغاه، ولا يتشرب قلبه بالتوكل الحق، إلا إذا قطع عن قلبه كل شكل من أشكال، الارادات والشهوات وأنواع المطلوبات، فلا يبقى بعدها في قلبه سوى إرادته عز وجل، وعندها فقط ((يسوق إليه أقسامه التي لا بدّ من أخذها)).⁽¹⁾ إذن فالتوكل لا يعطلّ الحظوظ ولا يمنع الأقسام وإنما هو فقط يضعها في موضعها الصحيح.

التوكل والإخلاص

وكما افضى مقام التوبة، بعد أن استوفى شروجه، إلى الورع، فكذلك مقام التوكل يفضي إلى الإخلاص، والإمام عبد القادر يرى، أن حقيقة التوكل ليست ببعيدة أصلاً عن حقيقة الإخلاص وتلك مقاربة كان الإمام عبد القادر رائداً في الفات النظر إليها، إذ لطالما عدّ الإخلاص مقاماً مستقلاً قائماً بذاته⁽²⁾. أن حقيقة التوكل التي تتمثل بالخروج عن الحول والقوة مع السكون إلى الله تعالى، هي نفسها حقيقة الإخلاص التي تتمثل بارتفاع الهمّة عن خلب الأعواض على الأعمال والتأكيد على أعمال القلوب وتقديمها على أعمال الجوارح، يكون العمل بغير مواخاة القلب، لا يجدي.⁽³⁾ فإذا ما امتزج التوكل مع الإخلاص، صار تسليماً، وسلم القلب من الاعتراض على مولاه عز وجل، عند

(1) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 38.

(1) الشطنوفي - المصدر نفسه - ص 38.

(2) جاء في الرسالة القشيرية، أن الأخلاص هو: إفراز الحق تعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى، دون شيء آخر من تصنع مخلوق أو اكتساب محمّدة عند الناس والأخلاص أيضاً هو: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وإيضاً، الأخلاص هو التوقي عن ملاحظة الأشخاص. انظر - القشيري - ص 162.

(3) الجبلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني - ص 81.

نزول البلايا والاقدار، فالاعتراض موت للدين موت للتوحيد موت للتوكل موت للاخلاص، لان الدين هو التوحيد والتوحيد هو التوكل والتوكل هو الإخلاص .

ان الغاية من سلوك الطريق الصوفي الصعب، ومن تحمل اعبائه ومكابدة مشقاته، تتمثل في خلب القرب من المولى تعالى، وتحقيق اعلى درجات التوحيد، ونيل اعلى مراتب العبودية الحقّة، سواء في العبادات أو في الاعتقادات أو في الاعمال. ولذلك كان اتكال الإنسان على الخلق وعلى الاسباب، بشكل مطلق، يمثل في نظر الصوفية، عاملاً أساسياً من عوامل انحجاب العبد عن خالقه ولذلك ايضاً كان التوكل الحق على الله عز وجل، وصدق الالتجاء اليه، يُعدّ بشكل من الاشكال توحيداً صحيحاً. ولطالما ذكر عن الإمام عبد القادر، انه كانت له حالة دائمة مع الله عز وجل، تتمثل في ترك الاختيار وسلب الإرادة، وهو لطالما نصح مريديه، بان يتمسكوا بالتوكل ويخرجوا من التعلق المفرط بالاسباب، ويقطعوا عن قلوبهم كل الارباب، وان يسافروا بقلوبهم عن جميع الاشياء وان يغرقوا في بحر العلم الالهي، ((فان من وصل إلى هذا المقام، فلا تضره الاسباب لانها تكون على ظاهرة، لا على باخنه، تكون لغيره لا له)).⁽¹⁾ وعليه، يمكن القول، ان الاصل عند الإمام عبد القادر، هو الباخن، فهو موضع العلم والاعتقاد والايمان، ومن كان باخنه موحداً لله تعالى متوكلاً عليه، فلا باس عليه، بعد ذلك، اذا ما عمل بالظاهر من الاسباب، وعمل بما يعمل به الناس.

ثالثاً- مقام الشكر،

جاء في التعريفات، ان الشكر هو: عبارة عن معروف يقابل النعمة، سواء اكان باللسان ام بالبدن ام بالقلب، وقيل: هو الثناء على المحسن، بذكر احسانه، فالعبد يشكر الله تعالى، أي يثني عليه، بذكر احسانه الذي هو خاعته. والشكر اللغوي هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل على النعمة من اللسان والجنان والاركان، والشكر العرفي، هو صرف العبد جميع ما انعم الله عليه من السمع والبصر وغيرهما، إلى ما خلق لاجله.⁽²⁾ ومما سبق، يمكننا ان نلخص، إلى ان الشكر هو الثناء على المنعم لنعمه، وهو يكون بالقلب واللسان والجوارح، وان من احسن ما يشكر به العبد مولاه، هو ان لا يستخدم نعمه فيما يغضبه.

مشروعية الشكر ومعناه

(1) الجبلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني - ص 41.

(2) الجرجاني - التعريفات - ص 133.

وامّا الشكر عند الإمام عبد القادر، فهو، كعادته، يبدأ أولاً من الكتاب والسنة، فامّا في الكتاب فاصل الشكر فيه، قوله تعالى: " وَلئن شكرتم لازيدنكم".⁽¹⁾ ، وامّا في السنة، فحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي تسبقه القصة المعروفة والذي جاء فيه قوله (صلى الله عليه وسلم) " افلا اكون عبداً شكوراً".⁽²⁾

اما اول معاني الشكر عنده، فهو: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ومشاهدة المنة وحفظ الحرمة، ولا يكون ذلك باللسان فقط، وانما بالقلب والجوارح ايضاً وبالقول والفعل، وبالسّر والعلن. وكل ذلك، لا بدّ من ان يرافقه العجز عن الشكر، وعلى هذا المعنى، وصف الله تعالى نفسه، بانه الشكور، توسعاً. الشكر اذن، على وفق هذا التعريف، هو علاقة تربط بين خرفين غير متكافئين احدهما معطٍ بشكل مطلق، والآخر متلقٍ بشكل مطلق، ولكن الطرف المتلقي، يمتاز بانه يمكنه من أن يظهر شكره أو يكتمه، ولذلك يسمى الإمام عبد القادر، الشكر اعترافاً، على أن هذا الاعتراف لا بد من أن يكون مصحوباً بالخضوع، فالشكر مع التعالي والأستغناء لا يأخذ معناه الحقيقي، بل انه قد يأخذ معنىً معاكساً تماماً، ثم مع الخضوع، لا بدّ من أن تتحقق مشاهدة النعمة، أي بمعنى أن يشكر الشاكر، والنعمة ماثلة امام ناظره، كي يكون شكره حياً وحقيقياً، ثم لا بدّ ايضاً من حفظ الحرمة، أي أن لا تحمل النعمة العبد، على البطور والأشر، بل يكون دائماً منضوياً تحت حيّز عبوديته، متذكراً لفقره إلى مولاه، ثم الشعور بالعجز عن اتيان الشكر حقه، أو تقديم الثناء الجدير بالمنعم. وبمجموع هذه الأركان، فان الشكر، رغم بساخته الظاهرة، فانه يعدّ من اصعب العبادات بحيث ان الله تعالى وحده، يمكن أن ينطبق عليه وصف الشكور على الحقيقة، واما الشاكرون من الخلق، فانهم شاكرون على وجه المجاز.⁽³⁾

ان حقيقة الشكر، أو معناه التعامل، كما يحدده الإمام عبد القادر، هو: الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فشكر العبد لله تعالى، يعني ثناؤه عليه، بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد، يعني ثناؤه عليه بذكر إحسانه له، غير ان إحسان العبد يختلف عن إحسان مولاه عز وجل، اذ ان إحسان العبد يتمثل في حاجته لربه، واما احسان الحق تعالى، فهو انعامه على العبد. هذا مع ملاحظة: ان شكر العبد على الحقيقة انما يتمثل في نطق اللسان وقرار القلب بانعام الربّ معاً.

(1) سورة ابراهيم - اية/7.

(2) رواه ابن حبان - المغني عن حمل الاسفار - ج/4 - ص79.

(3) في هذا المعنى، يذكر الإمام عبد القادر، دعاء نبي الله داود (ع): الهي كيف اشكرك و شكري لك نعمة من نعمك؟ فادع الله تعالى اليه ، الان قد شكرتني - انظر - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3 ص1351.

(1) أي أن الشكر عند الإمام عبد القادر، لا يتم إلا أن يكون صادراً من اللسان و القلب في وقت واحد، وكونه من القلب، فهذا يعني أنه صادر من سائر البدن، لأن القلب في عرف الصوفية هو المهيمن والمتأمر على سائر البدن.

اقسام الشكر

اذن فالشكر يقع على ثلاثة أقسام : شكر باللسان و شكر بالبدن و الأركان وشكر بالقلب، فاما الشكر باللسان، فهو اعتراف العبد بالنعمة بنعت الاستكانة، أي الاعتراف بالنعمة على أنها من عند الله عز وجل، وترك الأضافة إلى الغير، سواء أكان هذا الغير هو ذات العبد أم حوله وقوته أم كسبه أم سائر الخلق، اذ أن كل هذه الأغيار ما هي في حقيقتها إلا أدوات والآت، وقد جرت بواسطتها النعم، وفي الحقيقة فإن القاسم والمجري والموجد والشاغل والمسبب، هو الله تعالى فهو أحق بالشكر من سواه، وان ((من نظر إلى الظاهر والسبب، ولم يجاوز علمه ومعرفته، فهو الجاهل الناقص، قاصر العقل، و إنما سمي العاقل عاقلاً لنظره في العواقب)) (2) ونلاحظ هنا، أن الإمام عبد القادر، يعطي للعقل معنىً دينياً أخلاقياً، وهو المعنى ذاته الذي نعت لأجله العرب قبل الإسلام ب (الجاهليين)، فالعقل على وفق هذا المنظور، هو الأداة التي تصل بالإنسان، إلى معرفة ربه و معرفة سبل الخير والصلاح .

أما الشكر بالبدن والأركان، فهو الاتصاف بالوقار والخدمة، ويتم ذلك، بان يحرك العبد جوارحه، و يوظفها في خاعة الله تعالى دون غيره من الخلق، وأيضاً، أن لا يجيب أحداً من الخلق، لما فيه اعراض عن الخالق عز وجل، وهذا يشمل النفس والهوى والإرادة والأمانى، وسائر ما وضع الله تعالى في البشر، ان هذا الشكر، بمستواه الثاني، يتحقق، بان يجعل العبد، خاعة ربه تعالى، أصلاً ومتبوعاً واماماً، وأما ما سواها، فيجعله فرعاً وتابعاً و ماموماً. وهنا يلفت الإمام عبد القادر، النظر إلى أن الشكر على النعمة المادية، لا يكون بصيغة واحدة فقط، بل هو يختلف باختلاف النعم وتنوعها، فشكر نعمة المال، مثلاً، تستوفى بالاعتراف بها للمنع، وهو الله تعالى، والتحدث بها لنفسه في سائر الأحوال، مع رؤية فضله ومثته وايضاً أن لا يتملك العبد على ماله، ولا يتجاوز حده فيه، ولا يترك حدود الشرع فيه، ثم بعد ذلك، وهو الأهم، يؤدي حقوقه ويراعي واجباته. فاما شكر نعمة العافية فيكون بالاستعانة بالجوارح على الطاعات والكف عن أذى الخلق، واجتناب المحارم والسيئات والمعاصي

(1) الجيلي المصدر نفسه - ج/3 - ص 1349

(2) الجيلي - فتوح الغيب - هامش كتاب - بهجة الأسرار و معدن الأنوار ص 59

والآثام⁽¹⁾ اذن فالجوارح التي وضعها الله تعالى في الإنسان، وصوّرها في احسن صورة ومنحها أكفا القدرات، يمكن للعبد من ان يستعملها فيما يغضب مولاه تعالى ، و ذلك بان يسرق بيده، و يسعى برجله إلى مواخن السوء، و ينظر بعينه إلى محارم الله، ويمكنه من باب آخر وهو باب الشكر، ان يستعملها فيما يرضي مولاه تعالى ، و ذلك بان يحجم عن كل ما سبق ويقدم بها على أعمال الخير.

الشكر بالقلب، يعرفه الإمام عبد القادر، تعريفاً، هو أقرب من سابقة، إلى خصوصية اللغة الصوفية و مفرداتها . انه الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة، ثم الترقى، بعد حضور هذه المشاهدة إلى الغيبة في رؤية المنعم عن رؤية النعمة . و يتبين لنا من هذا التعريف، أن شكر القلب، يختلف عن غيره من أنواع الشكر، بانه لا يتم الا مع حال المشاهدة والفناء، فهو اذن ياتي، في مراحل متاخرة من مراتب السلوك الصوفي. ومن شروط صحة هذا الشكر، أنه لابد من أن يبقى حاضراً في القلب، و بشكل مستمر و متصاعد، حتى يبلغ إلى حال يمكن أن نسميه بحال الفناء في الشكر، حيث يغيب الشاكر عن رؤية النعمة و يفنى في المنعم، فلا يهتم بعد ذلك، أعطى أم منع .

و الشكر بالقلب، قوامه الاعتماد الدائم والعقد الوثيق، بان جميع ما في العبد من النعم الظاهرة والباطنة، هو من لدن الله تعالى لا من غيره، و في هذه الحالة يكون شكر اللسان معبراً عما في القلب من حقيقة : أن لا منعم سوى الله تعالى⁽²⁾ . فلا شكر حقيقياً في القلب الا أن يكون مقروناً باعتقاد صحيح مفاده : أن لا نافع ولا ضار ولا فاعل على الحقيقة، الا الله تعالى .

أصناف الشكر

ويصنف الإمام عبد القادر، الشكر، تصنيفاً آخر، وفقاً لمراتب العباد اللذين يصدر عنهم الشكر. وهو يقع أيضاً على ثلاثة أصناف وهي : شكر العالمين و شكر العابدين و شكر العارفين . أما شكر العالمين، و هم سواد المؤمنين، فيكون من جملة أقوالهم، أي أنهم يقصرون شكرهم على اللسان فقط، و هو أولى درجات الشكر. و أما شكر العابدين، فهو نوع من أفعالهم، اذ هم تجاوزوا مرحلة القول إلى الفعل، فتراهم يحرصون ان يكون شكرهم مصحوباً بذكر الجوارح والسعي لآتيان أعمال البر والخير. ثم اخيراً شكر العارفين، و هؤلاء، يتم شكرهم باستقامتهم لربهم عز وجل في عموم أحوالهم - أي في السرّاء والضراء، و في السرّ والعلن - .

(1) الجيلي - فتوح الغيب - هامش بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص113

(2) الجيلي - المصدر نفسه - ص130.

واعتقادهم بان جميع ما هم فيه من الخير والنعمة، وما يظهر منهم من الطاعة و العبودية والذكر، هو في الحقيقة لله تعالى ، اذ هو يحصل بتوفيقه وانعامه وعونه وحوله وقوته، بينما هم معزولون عن جميع ذلك بفنائهم في الله تعالى ، مع اعترافهم بالعجز والقصور والاستكانة والفقر اليه في جميع الاحوال.⁽¹⁾ وكما يبدو، بوضوح، فان شكر العارفين، قد اشتمل على مراتب الفعل الصوفي برمتيه، من الاستقامة والطاعة والعبودية الحقّة والذكر والعزلة والتوكل والرضا والفناء. ولعل هذه الميزة، هي من اهم الميزات التي يمكن ان نراها في المقامات الصوفية عند الإمام عبد القادر، اذ ان المقام الواحد، يشتمل على فروع جميع المقامات السابقة وبذور جميع المقامات اللاحقة.

درجات الشكر والشاكرين

يرى الإمام عبد القادر، ان الشكر على الشكر، يمثل اعلى درجات الشكر، لان العبد بهذا الشكر ((يرى ان شكره هو بتوفيقه، ويكون ذلك التوفيق من اجل النعم عليه، فيشكره على الشكر ثم يشكره على شكر الشكر، إلى ما لا يتناهى)).⁽²⁾ واذا كان الشكر على الشكر، يمثل اعلى درجات الشكر، فان العبد الشكور، هو افضل الشاكرين، فالشاكر هو الذي يشكر على النفع بينما الشكور هو من يشكر على النفع والضرر على الموجود والمفقود، على البذل والمنع لانه لا يطلب شيئاً منه ربّه بهواه وارادته فهو فارغ القلب عن الشهوات غير راغب فيها، انع في امتثال دائم لامر ربّه حتى في السؤال، وهذا الامتثال جعله لا يطلب ولا يشتهي ولا يتمنى الا القرب من ربه تعالى ومن كان هذا مطلبه الاوحد، فانه حتماً ستهون في عينيه جميع المطلوبات، وسيكون سيات لديه أن عمّه النفع ام مسّه الضرر، فكلاهما صادر من منبع واحد الذي هو مطلوبه الاوحد.

الشكر والحمد

(1) الجيلي - الغنية لطبي خريق الحق عز وجل - ج/3 - ص1350.

(2) الجيلي - المصدر نفسه - ج/3 - ص1350.

واخيراً، فإن الشكر يفضي إلى الحمد⁽¹⁾ والشكور يطمح لأن يكون حامداً، والحامد هو الذي يشهد المنع عطاً والضرر نفعاً، ثم يستوي عنده الوصفان، ورأس الحمد هو الذي يستنفذ المحامد كلها، غائباً عن ذاته، بشهود الكمال وبوصف الجمال وبنعت الجلال وبعين المعرفة وعلى بساط القرب، وصاحب هذه الدرجة من الحمد، هو الذي يحمد الله تعالى، بمحامد لا يعلمها، إلا أن يعلمها ربه تعالى له الهاماً، وهذا مقام خاص لا يكون من بين كل البشر وفي كل الأزمان إلا للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وذلك حين يحمل لواء الحمد⁽²⁾ يوم القيامة متقدماً أمة الحمّادين. وعليه فإن الحمد هو أعلى المراتب التي يمكن أن يبلغها الشاكر، ولا يمكن للسالك من أن ينال صفة الحمد إلا بعد أن يبلغ خواتيم الطريق الصوفي، فلا حمد قبل الشهود ولا حمد قبل المعرفة ولا حمد قبل القرب.

رابعاً- مقام الصبر:-

يرى صاحب (العوارف): أن حقيقة الصبر كائنة في التوبة، كينونة المراقبة في التوبة، والصبر من أعزّ مقامات الموقنين، وهو داخل في حقيقة التوبة.⁽³⁾ وجاء في (التعريفات): أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله، فالعبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه، لا يقدح ذلك في صبره، ولئلا يكون كالمقاومة مع الله تعالى.⁽⁴⁾

مشروعية الصبر وتعريفه

الأصل في الصبر، هو قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون".⁽¹⁾ وقوله تعالى: "واصبر وما صبرك إلا بالله".⁽²⁾ وقوله (صلى الله عليه وسلم): "إن الله تعالى إذا أحبّ عبداً ابتلاه وإذا ابتلاه صبره"⁽³⁾ وسئل ذو النون المصري عن

(1) الحمد؛ هو الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها، والحمد الحالي هو الذي يكون بحسب الروح والقلب، كالاتصاف بالكمالات، العلمية والعملية والتخلق بالاخلاق الالهية والحمد العرفي، هو فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعماً.- الجرجاني- التعريفات- ص1351.

(2) الجبلي - الغنية لطربي خريق الحق عز وجل- ج/3-33. ص1351.

(3) السهرودي - عوارف المعارف- ص480.

(4) الجرجاني- التعريفات- ص136.

(1) سورة ال عمران-اية/200.

(2) سورة النحل- اية/127. علماً أنه وردت لفظة الصبر واحد مفرداتها في مائة وثلاث آيات من القرآن الكريم.

(3) روي عن علي ابن أبي خالب(ع) - في المغني عن حمل الأسفار-ج/4 ص280.

الصبر، فقال: هو التباعد عن المخالفات، و السكون عند تجرع غصص البليه و اظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة .⁽⁴⁾ و قال الجنيد البغدادي : السير من الدنيا إلى الآخرة سهم هين على المؤمن، و هجران الخلق في جنب الحق شديد، و السير من النفس إلى الله صعب شديد، و الصبر مع الله أشد . و سئل أيضاً عن الصبر فقال : تجرع المرارة من غير تعبيس.⁽⁵⁾

الصبر عند الإمام عبد القادر

الصبر في تعريف الإمام عبد القادر، هو: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، و الثبات مع الله عز وجل، و تلقي مر أقضيته بالرحب و السعة، و على أحكام الكتاب و السنة .⁽⁶⁾ و هذا التعريف يفترض عدة أركان : أولها أن الصبر لا يكون الا مع حالات البلاء، فلا صبر مع رخاء أو نعمة أو عطاء، ثم، يفترض مع الصبر على البلاء، حسن الأدب، فالجزع مثلاً، يذهب بمعنى الصبر، ثم لابد مع الصبر، من الثبات مع الله تعالى و عدم اللجوء إلى غيره وقت الشدة وأيضاً لابد من تلقي مر القضاء، بالرحب و السعة، لأن المرء قد يصبر على مضض، وهو ما يذهب بمعنى الصبر أيضاً. و أخيراً، لابد من أن يكون فعل الصبر، و ما يلحقه و ما يسبقه، يجري على أحكام الشريعة الإسلامية، أي أن لا يخرج الصبر، صاحبه، عن حدود الله تعالى .

والصبر أيضاً، يعني: اظهار الغنى مع حلول الفقر من غير تعبيس، بحيث يكون الفقر سراً بين العبد وربّه، و بحيث يكون العبد في أعسر أحواله، وهو يبدو أمام الناس في حالة غنى و رخاء و سعادة عظيمة .

ولأهمية مقام الصبر، و لصعوبة التحقق به، فإن الإمام عبد القادر يقول: أنه لا يظفر بما عند الله عز وجل - و ما عنده واسع و عظيم - الا بالصبر، و لهذا أكد سبحانه وتعالى عليه في كثير من آيات كتابه الكريم، وأن الفقر و الصبر، لا يجتمعان الا في حق المؤمن.⁽¹⁾ وذلك لشدة وخاة الفقر على النفس، و لصعوبة الاستمرار على الصبر، و ليس شيئاً غير الايمان يجمع بينهما، لأن الايمان هو الذي يطمئن قلب العبد، بان كل ما يصيبه و يلقاه، هو من عنده تعالى و بامرّه و ارادته، و لذلك فإن المؤمن يتقبله بقبول حسن .

(4) الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3 ص1356.

(5) الجيلي - المصدر نفسه - ج/3 ص1355.

(6) الشطنوفي - بهجة الأسرار معدن الأنوار - ص123.

(1) الجيلي - الفتح الرباني و الفيض الرحماني - ص17.

ولرقي مقام الصبر، و صعوبة التحقق به، عدة الإمام عبد القادر، من ضمن صفات الأنبياء والأولياء و الصالحين، وهو في هذا، يستند إلى قوله (صلى الله عليه وسلم) : "أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل" ⁽²⁾ و أن الذي ينتظر العبد من المكافآت من جراء صبره، لا يحصيه إلا قوله تعالى : " انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب " ⁽³⁾ و لذلك، فإن على المرید أن يصبر على صبره، ويتم له ذلك، بان لا يستعجل الفرج، و أن يرضى بالقضاء و أن يوخن نفسه على تجرع مرّ البلاء، فإن اعتاد ذلك وتلبس به، فسيناله برد عفوريه تعالى و لطفه وكرمه ومنه. ⁽⁴⁾

ان الصبر، هو عماد الدين وأصل الإيمان، و هو كما قال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) : "الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد" ⁽⁵⁾ و الرأس هو الأهم و هو المقدم و غيره تبع له، وهو معنى ما يذهب اليه الإمام عبد القادر قوله: ان الصبر هو المرتقى الذي يرتقي منه المؤمن إلى حالة الرضا و الموافقة و الفناء في افعال الله تعالى ⁽⁶⁾ و لعل اقتران مقام الصبر، بالمكابدات و المعاناة هو ما منحه الاهمية و التقدم على بقية المقامات، وايضاً، فإنه لا يمكن تصور الصبر، إلا مقروناً بالفقر و البلاء و الشدائد و المصائب، فهي وسطه الأمثل الذي يتعرع فيه.

درجات الصبر

ان حال مقام الصبر، هو كحال بقية المقامات عند الإمام عبد القادر، فهو ايضاً، متعدد الاضرب و الاقسام و المستويات. إنه يقع أولاً على ثلاثة اضرب: صبر لله و صبر مع الله و صبر على الله تعالى .

الصبر لله عز وجل، هو الصبر الذي يتصف به كثير من المؤمنين، خلباً لتحصيل الاجر و الثواب، وهذا الصبر يكون على خاعة او امره تعالى و الانتهاء عن نواهيه، فالنفس مجبولة على حب الشهوات و نيل اللذات، من أي مصدر صدرت، بينما تشتمل العبادات و الطاعات على مخالفة لهوى النفوس و ميلها، وهذه المخالفات، يحتاج معها العبد، إلى كثير من الصبر، كي تصبح لنفسه خبجاً جديداً و سلوكاً مستفاداً.

(2) المغني عن حمل الأسفار ج/4 ص 281.

(3) سورة الزمر - آية/ 10 .

(4) الجيلي - فتوح الغيب - ص 170.

(5) عن علي ابن خالب (ع) - الجامع الصغير - ج/2 - ص 80.

(6) التادفي - قلائد الجواهر في مناقب الإمام عبد القادر - ص 72.

الضرب الثاني، هو الصبر مع الله عز وجل، وهو أشدّ على النفس وخجاءً من سابقه، لتعلقه بالشدائد والبلايا التي يُمتحن بها العبد من أجل تحصيل الدرجات الروحية ونيل المراتب الآخروية. إنه الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله تعالى، في العبد من سائر البلايا والشدائد وهذا الصبر، حقيقته التقوى التي يعرفها الإمام عبد القادر، بأنها: فعل ما أمرك الله عز وجل بفعله وترك ما أمرك بتركه، والصبر على أفعاله ومقدراته وسائر بلاياه وأفاته.⁽¹⁾

الضرب الأصعب والأشدّ على النفس، هو صبر على الله عز وجل، والركون إلى وعده في كل

شيء.⁽¹⁾ وهذا اللون من الصبر يخص الأولياء المقربين دون سواهم، لأنه صبر على فرقة المحبوب ومكابدة الشوق إليه، وهو أيضاً صبر على احتمال وجود الولي مع الخلق وبعده عن خالقه، وهو أيضاً صبر على ما وعد الله تعالى به عباده من اللقاء وحسن المآب. إن المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمنين، ولكن هجران الخلق في جنب الحق، شديد عليهم، وأما المسير من النفس إلى الله عز وجل فهو أشدّ، لأن فيه خرقاً للمعتاد وتغييراً لطباع النفس، وأما الصبر مع الله تعالى فهو الأشدّ من كل ما سبق، لأنه لا منجى منه إلا إليه. فإذا ما اجتمع الفقر مع الصبر، كانا أفضل من اجتماع الغنى مع الشكر، لأن الاجتماع الأول مقرون بمكابدة والمشقة، والفقر مع الشكر أفضل منهما، لأنه جمع بين الحسنيين، الصبر والشكر والفقر الصابر الشاكر أفضلهم جميعاً، لأنه حاز الفضل كله.⁽²⁾

مراتب الصابرين

وشان الصابرين مثل شان الشاكرين، فهم أيضاً يتوزعون على ثلاث مراتب: متصبر وصابر وصبّار. المتصبر منهم هو الذي يسعى لأن يكون صابراً، مع شدة المكابدة والتألم والجهد البالغ

⁽¹⁾ الجبلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني - ص 240. علماً أن للشيخ عبد القادر تقسيماً آخر للصبر، يحاكي به (الضريين) الأول والثاني مع تغيير في استخدام المسميات، فهو يقسم الصبر إلى: صبر على ما هو كسب للعبد، وهو الصبر على ما أمر الله به عز وجل والإنهاء عما نهى عنه، وهو مما يلتحق بالضرب الأول. والقسم الثاني هو الصبر على ما ليس بكسب للعبد، وهو صبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى وقضائه، فيما له فيه مشقة وألم في القلب والجسد، وهذا الصبر يلتحق بالضرب الثاني، أي الصبر مع الله عز وجل - أنظر الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/ 3 - ص 1355.

(1) وفي هذا المعنى، يذكر الإمام عبد القادر، قصة الرجل الذي وقف على الشبلي (ت - 334هـ) وسأله: أي الصبر أشدّ على الصابرين؟ قال الشبلي أصر في الله، فقال: لا فقال: الصبر لله، قال: لا قال: الصبر مع الله، قال: لا، قال: فما هو؟ قال: الصبر على الله. فصرخ الشبلي صرخة كادت تتلف معها روحه. الجبلي - الفتح الرباني والفيض الرحماني - ج/ 3 - ص 1355.

(2) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 123.

في تحمّل عبّ الصبر، فلا يمكن للصبر أن يكون عادةً للصابر، بل هو يجاهد كي يعتاد عليه أما الصابر، فهو الذي تمكن من تحمل الألم وتجاوز الشدائد، فصار في حالة تمكن من الصبر، وهذا الأعتياد لا يقلل من أجره شيئاً، وإنما هو، فقط يُخفف من عذابه، لأنه يتخذ من الصبر وسيلة للتقرب إلى الله تعالى . وأمّا الصبّار، فهو الذي صبر، حتى صار الصبر له خبعا وسلوكاً، وهو أعلى مراتب الصبر، ولا يناله إلا الأولياء المقربون، ويشترط في هذا الصبر، أن يكون مقروناً بحسن الأدب ورحابة الصدر، بحيث لا يبدو منه شكوى أو تذمر. وغاية ما يبلغه الصابر في ذلك، هو عدم تفضيله أو حتى تفرقه، بين حالتي النعمة والمحنة، وأن يكون خاخرة ساكناً مع كليهما. وهذا ما يميز الصبر من التصبر، الذي هو السكون مع البلاء ولكن ((مع وجدان

أنقال المحنة))⁽¹⁾. الصبر إذن بهذا المستوى، يقترب كثيراً من مقام الرضا ومقام الفناء، لأن أي أمر ياتي فيه من المحبوب، سواء أكان ابتلاء أم إنعاماً، فانه لا يغيّر من الأمر شيئاً، وكذلك هو فعل العاشقين.

إن الصبر، هو مفتاح الخلاص من آفات النفس، وهذا يكون في بداية الطريق فقط، إذ يصبر المرید نفسه عن أتيان المحرمات والآثام، ويصبرها كذلك على أداء أمر الله عز وجل والانتهاء عن نهيه، ويصبرها أيضاً على الموافقة لقدرة تعالى، فهو إذن بوظيفته تلك، يعدّ وسيلة من وسائل مجاهدة النفس ورياضتها وتحويل مجرى أهوائها، نحو أصول الخير والصلاح. أما في نهاية الطريق، فان الصبر هو الذي يبلغ بالعبد إلى درجة القرب من مولاه تعالى، وذلك لقوله تعالى : (إن الله مع الصابرين)⁽²⁾. إن القوم صبروا مع الله عز وجل، ولم يصبروا عنه، فلا صبر لهم عن الله تعالى، لأنه هو مطلبهم الأوحد ومبتغاهم الذي لا يحيدون عنه، صبروا له وفيه، صبروا ليكونوا معه، خلبوا ليحصلوا القرب منه، وكانوا قبل ذلك قد ((خرجوا من بيوت نفوسهم وأهويتهم وخباعهم وأستصحبوا الشرع معهم، وساروا إلى ربهم عز وجل، فاستقبلتهم الآفات والأهوال والمصائب، فلم يبالوا بها، ولم يرجعوا عن سيرهم، ولا يزالون

(1) الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج/3 - ص1357.

(2) سورة البقرة - آية / 153.

كذلك حتى يغير خلقهم وحتى يتحقق لهم بقاء القلب والقلب⁽³⁾. وهذا هو ما يسميه الإمام عبد القادر، بقلب الدولة.

البلايا والمصائب، إذن، فيما لو فهمت من كلام الإمام عبد القادر، فإنها لا تمثل إلا معوقات مفتعلة، وضعت في خريق السالكين، لتمييز الصادق منهم من عدمه، فهي إذن في حقيقتها أمر خائئ مقصود، لو فهمه المرید فإنه سيقوى على احتماله، ومن الجهة الأخرى، فإن هذه العقبات، تشكل عوامل مساعدة فعالة على تجاوز الصفات السيئة ونيل أصدادها من أجل بقاء القلب ونقاء القلب.

الصبر والشكر

لا فكك عن الصبر في حياة المرید، فهو يلزمه، منذ باكورة سلوكه الصوفي وحتى منتهاه، في مساوقة مستمرة مع رديفه الشكر، وهما كلاهما، أي الصبر والشكر، يورث المرید، في سجال متصل، كلاً من حالي الخوف والرجاء والقبض والبسط والجلال والجلال والجمال، فإذا ما أقلق الخوف من النار قلب المرید، وقض مضجعه وتمكن منه، بحيث صار له حاجباً يحجبه عن مولاه، انزل الله تعالى عليه السكينة من ماء رحمته ولطفه، فإذا ما سكن وأخمان، فتح له باب الجلال، فتهيب وتقطع قلبه وكثر خوفه، فإذا تمكن منه ذلك فتح باب الجمال، فسكن وأخمان ((وهي خبقات شئ بعد شئ))⁽¹⁾ على أن هذا التعاقب بين الخوف والرجاء، لا يكون بلا هدف أو نهاية، بل هو يتوالى على قلب المرید كي يحفز باستمرار على المضي قدماً نحو بلوغ مرامه وقربه من مولاه.

خامساً - مقام الرضا :-

الرضا: هو سرور القلب بمر القضاء.⁽²⁾ والراضي بالله تعالى، هو الذي لا يعترض على تقديره، ولا يرضى العبد عن الحق تعالى، إلا أن يرضى عنه الحق عز وجل أولاً.⁽³⁾ الأصل في الرضا، هو قوله تعالى: ((رضي الله عنهم ورضوا عنه)).⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ((يبشرهم ربهم برحمة منه

(3) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحمانى - ص107.

(1) الجيلي - الفتح الرباني والفيض الرحمانى - ص15

(2) الجرجاني - التعريفات - ص116. علماً أن هذا التعريف ينسب لذنون المصري.

(3) القشيري - الرسالة القشيرية - ص151

(4) سورة المائدة - آية 119

(5) (ورضوان)). وفي الحديث الشريف، ورد قوله (صلى الله عليه وسلم): (ذاق خعم الإيمان من رضي بالله عز وجل، رياً).⁽⁶⁾

وحين سألت رابعة العدوية: متى يكون العبد راضياً بالقضاء؟ قالت: إذا سرّ بالمصيبة كما يسر بالنعمة. وقال ذو النون المصري: ثلاثة من علامات الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء وفقدان المراجعة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء.⁽¹⁾ وسئل الجنيد البغدادي عن الرضا، فقال: الرضا رفع الاختيار.⁽²⁾

تعريف الرضا عند الإمام عبد القادر

الإمام عبد القادر، من جهته، يضع للرضا، أربعة تعريفات، تشكل في مجموعها، المعنى الإجمالي الذي يريد أن يوصله لنا عن هذا المقام، وهذه التعريفات هي: أولاً: الرضا هو ارتفاع التردد والاكتفاء بما سبق في علم الله عز وجل في أزاله. والرضا: هو أن لا يصرف القلب إلى نزول قضاء من القضية بعينه، فإذا نزل قضاء، فلا يستشرف القلب إلى زواله.⁽³⁾ والرضا هو إخراج الكراهية من القلب، حتى لا يبقى إلا فرح وسرور. وأخيراً فإن الراضي: هو الذي لا يعترض على تقدير الله عز وجل، حتى أنه لو جعلت جهنم عن يمينه ما سال أن يحولها إلى يساره.⁽⁴⁾ إن هذه التعريفات الأربعة تدلنا على أن الرضا، مثله في ذلك مثل الصبر، لا يتخذ معناه الحقيقي، إلا عند نزول البلاء والمحن، ويشترط في الرضا، ثبات القلب، لثقلته بسابق علم الله تعالى، فإذا ما وضع العبد في موضع، مهما بلغت درجة دناءته، فلا يتمنى التحول عنه، وما يتميز به الرضا عن عموم الصبر، هو أنه يجب أن يكون مقرباً بطمانينة القلب وسرورة والمعنى النهائي للرضا، هو أنه عدم الاعتراض على الله تعالى.

أما تفصيل قول الإمام عبد القادر في الرضا، فهو ما يأتي: أن المؤمن الصادق، حقيق عليه أن يرضى بما قسم الله تعالى له، وإن يعتقد، مطمئناً، أن قضاء تعالى، خير له، حتماً من قضائه لنفسه، إن صح له القضاء، ولعل قضاء تعالى للإنسان فيما يكره، خير له مما قضى له

(5) سورة التوبة - آية 21

(6) رواه أحمد ومسلم والترمذي - الجامع الصغير - ج 2 / 29

(1) الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج 3 / 1360

(2) الطوسي - اللمع - ص 50

(3) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 124

(4) الجيلي - المصدر نفسه - ج 3 / 1360

فيما يحبّ، وعليه فلا مناص أمام العبد إلا الرضا، لأنه لا يعلم ما فيه صلاح دينه ودنياه، ((لأن الله عز وجل، خوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر والانتها عن المناهي والتسليم في المقدور، والرضا بالقضاء، فيما لهم وعليهم في الجملة، وإستأثر هو، بالعواقب والمصالح، فينبغي للعبد، أن يديم الطاعة لمولاه، ويرضى بما قسم له ولا يهتمه في قسمته))⁽¹⁾.

وإن من الرضا في السلوك الصوفي، أن لا يطلب المرید، حالاً أو مقاماً، غير الذي هو مائل فيه، سواء أكان أعلى منه أم أدنى، نعم هو يطمع بالترقي، ولكنه لا يترقى اختیاراً، ولا يخفى ما يتضمنه هذا الفعل من راحة عظمى وسلام داخلي وفير، ولعل من نافلة القول، وهو في الوقت نفسه، ليس من قبيل الدفاع المتعصب عن النهج الصوفي، أن نشير، إلى أن تبني المرید للرضا لا يتعارض مع سعيه وخموحه، ولا يُسقط عنه الكسب والتكليف، إذ يكفي المرید خموحا، أنه أختار التصوف منهجاً في الحياة، ويكفيه تمسكاً بالتكليف أنه يتحرى دقائق الذنوب وخفايا الشبهات، كي يتجنبها. إن ما يفعله الرضا للمرید، هو أنه يجنبه الأشتغال بكل ما يقع خارج نطاق قدرته وفعله، من الأقسام والخطوط والأقدار، كي يتفرغ بعدها لما يهّمه حقاً من العمل على تاديب نفسه وتجليّة مرآة قلبه، وهذه هي وظيفته الحقيقية التي نذر نفسه لها.

الرضا راحة القلب

إن الراحة مقرونة بلواء الرضا، غير أن التعب والشقاء، مقرونان بالمنازعة وعدم الرضا، وإن تعب العبد، يكون على قدر منازعته وموافقته لهواه وترك رضا بالقضاء، وإن كل من رضي بالقضاء، إستراح، وكل من لم يرضى به، خال شقاؤه، وهو في الوقت نفسه، لا يأخذ من دنياه إلا ما قسم له. أن العبد ((مادام لهواه متبعاً، فهو غير راضٍ بالقضاء لأن الهوى منازع للحق عز وجل، فتعبه متكاتف متزايد، وإن أستجلب الراحة في مخالفة الهوى، لأن الرضا بالقضاء بـ(لا بدّ) واستجلب التعب والنصب في موافقة الهوى لأن في منازعة الحق عز وجل بـ(لا بدّ)، فلا كان الهوى، وإذ كان فلا كنّا))⁽²⁾. وهذا النص، يصف الرضا وصفاً دقيقاً، ويصف الضرر الذي يلحق بالعبد، فيما لو تخلّى عنه. إن القدر، هو القدر، (لا بدّ) منه، ولا يمكن لأي مخلوق أن يدفعه أو ينفك عنه، وأما من يفعل ذلك، فانه يفعل فعل ناخع الصخر، إن الذي يسير مع نيار القدر، فانه إضافة إلى رضا مولاه، يكسب القدرة على مخالفة هوى نفسه التي تميل إلى التمرد

(1) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج / 3 - ص 1358

(2) الجبلي - المصدر نفسه - ج / 3 - ص 1358

والمشاكسة وكما نلاحظ، فإن أي مقام من المقامات الصوفية عند الإمام عبد القادر، يكون له دور مهم في كبح جماح النفس وترويضها، وهو معنى الوجود الحقيقي لأي إنسان، إن وجود الإنسان، مع مجارة هوى نفسه، لا يمكن أن يكون إلا وجوداً زائفاً لا معنى حقيقياً له .

هل الرضا مقام أم حال؟؟

يذكر الإمام عبد القادر، أن مقام الرضا، من بين كل المقامات، اختلف فيه أهل الطريقة، هل هو من الأحوال أم من المقامات؟ فالذين قالوا إن الرضا كسب للعبد، نسبوه إلى المقامات بينما قال من رأوا فيه موهبة خالصة من الله عز وجل، أنه من الأحوال، وصوفية أهل العراق، هم من قالوا هذا الرأي الأخير، حيث ذهبوا، إلى أن الرضا، لا يمكن عده كسباً للعبد، بل هو نازلة تحلّ بالقلب، كسائر الأحوال، ثم تحول وتنزل ويأتي غيرها . أما متصوفة خراسان، فقد رأوا، أن الرضا هو من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل أي أن الرضا هو ثمرة ما يتوصل إليه العبد باكتسابه، وهنا يكمن مصدر تفاوته عند الناس. الإمام عبد القادر، من جهته، يميل إلى الجمع بين الرأيين، إذ يمكن، في رأيه أن يعدّ الرضا كسباً للعبد في بداية سلوكه فيكون له مقاماً، ثم بعد ذلك، أي بعد أن يتمكن باخن المرید من الرضا، ويثبتته الله تعالى في قلبه، ويرضى عنه يصبح من جملة الأحوال التي هي ليست كسباً للعبد، بل موهبة خالصة من الله تعالى . أي أن المرید، إذا تمسك برضاه، ولم يحد عنه فإن الله تعالى سيثبتته في قلبه، فلا يغادره بعد ذلك أبداً .

أقسام الرضا

يتخذ مقام الرضا، عند الإمام عبد القادر، مكانة متميزة، من بين المقامات، فهو يسميه، باب الله الأعظم وجنة الدنيا، لأنه لا أعظم من رضا الله تعالى ، سواء في الدنيا أم في الآخرة، وإن من كسب رضا ربه، فقد فتحت له أبواب عطاياه، وهي عظيمة، والرضا هو جنة الدنيا، لأنه يورث الراحة والطمأنينة والسلام، وهذه من خصائص الجنة. وأن من أكرم بالرضا، فقد قرّب ووصل، وأن رضا العبد عن ربه، يدل على رضا ربه عنه، وهذه وثيقة أمان أكيدة وفيها أستشرف منازل الآخرة. ويقسم الإمام عبد القادر الرضا على قسمين، رضا به ورضا عنه، فالرضا به يتعلق بكون الله عز وجل، هو المدبر للكون وأما الرضا عنه، فهو يأتي من أن الله تعالى هو الحاكم وهو الفاصل .⁽¹⁾ وبالتأكيد ، فإن الرضا به أيسر على القلب من الرضا عنه، لأن

(1) الجبلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج / 3 - ص 1358

الأول يتعلق بالأقدار العامة التي تخصّ التدبير الكوني، وأما الثاني فإنه متعلق بالشخص ذاته، وهو يشمل الملحن والبلايا، التي قد يصبر عليها الإنسان أو لا يصبر.

ينصح الإمام عبد القادر، مريديه دائماً، بحفظ الحال والرضا به، وأن يتركوا الذلّفت إلى ما سواه، فلا يعدم الشئ أم الحال، أن يكون، إما قسم العبد أو قسم غيره، أو هو غير مقسوم لأحد أصلاً، بل وجد فتنة للخلق. فإن كان للعبد فيه نصيب، فهو واصل إليه، شاء أم أبى.⁽²⁾ فلا ينبغي أن يظهر منه سوء الأدب والشر في قلبه لأن ذلك ليس من العقل ولا من العلم في شئ وأما إن كان قسم غيره، فهو لن يطاله حتماً مهماً فعل، وأما إن كان الاحتمال الثالث، أي لا له ولا لغيره، بل هو فتنة، فما من عاقل يستجلب الفتنة على نفسه، وعليه، ينصح الإمام عبد القادر، مريده فيقول: ((لا تأخذ بك - أي باختيارك - وإرادتك وهواك - حتى تؤمر، ولا تعط بك حتى تؤمر، ولا تتحرك بك ولا تسكن بك فتبتلى بك، وبمن هو شر منك من الخلق، لأنك بذلك تكون ظالماً))⁽³⁾ العقل والعلم، إذن، هما مع الرضا بقضاء الله تعالى، وأما الهوى والجهل فهما مع المخالفة، ويمكن لهذا النص أن يدلنا على أن ترك الإرادة والاختيار، هو المطلوب الدائم الذي يرافق المرید، أبدأ من مقام التوبة، حتى مقام الفناء الوجودي، مروراً بالمقامات الأخرى كافة.

ولا يقف الرضا، عند حد السكوت على ما فات من الخير وقبول المقسوم منه، بل هو يتعدى ذلك، إلى القبول بمر البلايا لأن من رضي بالله تعالى رياء، صار لزاماً عليه، أن يرضى بكرمه وبلائه على حد السواء، لا بل أنه يوجد من إذا وقعت عليه الرزية، رآها نعمة وحمد الله تعالى عليهما، على أن عدم تفريقه بين النعمة والمحنة، يأتي من أنشغاله بالمنعم عن سواه، وأن الذي يشتغل قلبه بالمنعم دون النعم، يكون حتماً في غيبوبة عن البلاء، فلا يشعر به، ومن كان هذا فعله، فهو حتماً، الموحد الحقيقي والمحب الحقيقي، والفاني عن هواه، والموجود بربه، فهو إذن الصوفي الحقيقي.

الرضا بين الطمع والورع

إن من يتوجه بكل همته إلى المنعم دون سواه، سيكون قلبه خالياً، ضرورةً من الطمع، والإمام عبد القادر، يحذر مريديه دائماً، وينبهمهم على أن الطمع هو عدو الرضا وخصمه، لابل

(2) نود التنبيه هنا، إلى أن الإمام عبد القادر، يخص بكلامه هذا، أمور الطريقة، دون بقية الأمور الدنوية الأخرى التي تخضع لغير تلك الأحكام والتي يكون لإرادة العبد واختياره فيها بد خويلة.

(3) الجيلي - فتوح الغيب - على هامش بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 52.

إنه لا يوجد أمر أضر على المرید وخالب الحق، وعلى التجربة الصوفية عامةً، من الطمع، وما صار الطمع بهذه الدرجة من السوء والتأثير السلبي، إلا لأنه يمثل، في حقيقته، نوعاً من أنواع الشرك بالله عز وجل، لأن من خمع في مخلوق مثله، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، يكون كأنه قد نقل ملكاً ملكاً إلى مملوكه، وتلك خيانة بادية، وكذلك فإن الطمع لا يغادر كونه نقص في أحوال المرید، لأن الطمع لا يخطر على قلب مرید، إلا ((لأجل كمال البعد من الله عز وجل، حيث خمع في مخلوق مثله، وهو يرى أن مولاه، مطلق عليه، ثم لم يحجزه الخوف من ذلك))⁽¹⁾ والورع، هو ضد الطمع، وإن من أخص معاني الورع هنا، هو: أن ينسب العبد الأشياء إلى مالکها الحقيقي، فيطلبها منه وليس من غيره. وعليه فيمكن القول: إن من يتصف بالورع سينال الرضا، ومن يرضى عن ربه، فإنه حتماً سيصبر على بلائه، والصابر هو متوكل ضرورةً، ولا يتوكل على الله حق توكله، إلا العبد الصالح المؤمن التائب عن ذنوبه، وهكذا يمكننا أن نرى بوضوح، الترابط العضوي بين المقامات الصوفية عند الإمام عبد القادر، على الدرجة التي لا يمكن معها الحديث عن مقام واحد دون التطرق إلى بقية المقامات.

سادساً – مقام الصدق :

الصدق لغةً، هو مطابقة الحكم للواقع، وفي اصطلاح أهل الحقيقة، هو قول الحق في مواخن الهلاك. وقيل: الصدق هو أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب، وقيل: الصدق هو: أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في إعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب. والصدّيق، هو الذي لم يدع شيئاً مما أظهره باللسان، إلا حققه بقلبه وعمله.⁽²⁾ وهو أيضاً المبالغة في الصدق، والذي يكون الصدق هو الغالب عليه.

وعند القشيري: الصدق هو عماد الأمر كله – أي التصوف – وبه تمامه وفيه نظامه وهو تالي درجة بعد النبوة، لقوله تعالى: ((فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين))⁽¹⁾. والصادق: هو الأسم اللازم من الصدق، وأقل الصدق، إستواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصدّيق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله.⁽²⁾ وهذا التعريف الأخير للصدق، هو الذي يتبناه الإمام عبد القادر، بتمامه، ومن غير إضافة أو حذف. على أن

(1) الجيلي – الغنية لطالبي الحق عز وجل – ج/3 – ص1364

(2) الجرجاني – التعريفات – ص138

(1) سورة النساء – آية / 69

(2) القشيري – الرسالة القشيرية – ص164

الصوفية عنده، لا بد من أن يكونوا ، إما صادقين أو صديقين ، ولا شيء غير ذلك، وإن الذي يهيمه منهما، هم الصديقون وحدهم، لأن مقام الصديقين، هو الذي تتحد فيه الأقوال والأفعال والأحوال على الصفة عينها، وهي صفة الصدق.⁽³⁾

تعريف الصدق عند الإمام عبد القادر

يورد الإمام عبد القادر، في الصدق ،⁽⁴⁾ عدة أقوال، منها : إن من أراد أن يكون الله عز وجل

معه فليزم الصدق، فإن الله عز وجل مع الصادقين . والصدق : هو القول بالحق في مواخن الهلكة، والصدق : هو موافقة السر بالنطق، أي موافقة اللسان للقلب، وهي أحسن الحالات التي يمكن أن يبلغها المرید، والصدق : منع الحرام من الشدق. والصدق الوفاء لله عز وجل بالعمل والصدق : هو صحة التوحيد مع القصد . وقيل : إنك إذا خلبت الله عز وجل بالصدق، أعطاك مرآة تنظر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.⁽⁵⁾ ويمكننا أن نلاحظ، من خلال جميع هذه الأقوال، أن الصدق عند الإمام عبد القادر، ليس كلاماً نظرياً ينتهي عند حدود اللسان، بل هو موقف عملي، أي فعل وسلوك، يسعى الإنسان، إلى الاتصاف به، من خلال إلتزامه، قولاً وفعلًا، ومن خلال التمسك به في مواخن يعافه فيه الناس. الصدق بهذا المنظور، هو الشجاعة عينها، وهو الورع، وهو التوحيد الحق وهو حب الله عز وجل وطلب القرب منه، والصدق أيضاً، هو الجهاد الذي قد ينال به العبد الشهادة. وكل ذلك يعد توضيحاً لقول الإمام عبد القادر: إن الصدق هو عماد الأمر (الصوفي) وبه تمامه، وأنه هو السبيل الوحيد للوصول إلى الله عز وجل والتقرب إليه، وإلا فكيف يتقرب العبد إلى مولاه بغير الصدق، وكما يقول الإمام عبد القادر : ((لولا الصدق لم يتقرب بشر إلى الله تعالى))⁽¹⁾.

الصدق والإخلاص

⁽³⁾ للنظر في تعريف الإمام عبد القادر، للصدق، ومقارنة هذا التعريف بما ورد في الرسالة القشيرية - أنظر - الغنية لطالبي خريق

الحق عز وجل - ج/3 - ص1366

⁽⁴⁾ يرجع الإمام عبد القادر، في تاصيله للصدق، إلى قوله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)). التوبة/ 119 .

وأما من الحديث الشريف، فيذكر قوله (p) ، ((لا يزال العبد يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)) عن المغني عن حمل الاسفار - ج/3 - ص131 .

⁽⁵⁾ الجيلي - الغنية لطالبي خريق الحق عز وجل - ج / 3 - ص1366

⁽¹⁾ التادفي - قلائد الجواهر في مناقب الإمام عبد القادر - ص34.

والصدق عند الإمام عبد القادر، يفضي إلى الإخلاص، ⁽²⁾ والإخلاص يفضي إلى الصدق، وفي الحقيقة، فإن المعنى العرفي، يدق، إلى درجة الشفافية، بين مفهومي الصدق والإخلاص، إلى حد أننا، لو استبدلنا أسم أحدهما، مكان الآخر، فإن ذلك لن يضير المعنى في شيء، ولا تبين هذه الحدود وتنفصل، إلا في المعاملات الصوفية، حيث يعطى لكل مفهوم معناه المحدد.

إن قلب المرید، يشبهه الإمام عبد القادر، بالحجر الأصم، الذي إذا ما ترك وشانه فإنه لا يتحرك ولا يصدر عنه أي فعل، بينما إذا ضُرب، بعصا (موسى) ⁽³⁾ الإخلاص، لتفجرت منه ينابيع العلم والحكم، ((فبجناح الإخلاص، يطير العارف من ظلمة قفص الكون، إلى فسحة نور القدس، وينزل، بعد الطيران، في ظل روض مقعد صدق - وأن الطريق إلى الله عز وجل، لا يسافر فيه بغير زاد الصدق)). ⁽⁴⁾ ويبدو هذا النص، وكأنه يضع لنا خطة عمل، لرحلة المرید، من الجسد إلى الروح ومن الأرض إلى السماء، فالإخلاص هو الذي يمنح المرید القدرة والعزيمة على مغادرة ظلمة أهوائه وخبائعه الرديئة، ويدفعه قدما نحو فسحة الاستقامة والصفاء الروحي والمعارف والحكم الإلهية المكنونة أصلا في قلبه، ثم أخيرا يملكه زمام مقام الصدق، والإمام عبد القادر، يوقف زاد السالكين، حصرا على الصدق وحده. إذن فلا صدق من غير إخلاص، ولا إخلاص من غير صدق، ولا سلوك ولا وصول، من غير إخلاص وصدق. ⁽¹⁾

الصدق والتوكل

ويربط الإمام عبد القادر، أيضا، بين مقامي الصدق والتوكل، والصدق عنده يعني باحد معانيه: التوكل الحق على الله عز وجل، إذ لا يخفى على ذي الدراية، ما للتوكل على الله عز

⁽²⁾ الأخلاص في اللغة: ترك الرياء في الطاعات، وفي الاصطلاح: تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه، والأخلاص هو أن لا تطلب لعملك شاهدا غير الله تعالى، وقيل: الأخلاص تصفية الأعمال من الكدورات، وقيل: الأخلاص ستر بين العبد وربه، لا يعلمه ملك فيكتمه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله. والفرق بين الأخلاص والصدق، أن الصدق أصل وهو الأول والأخلاص فرع وهو تابع، وفرق آخر: الأخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل - أنظر الجرجاني - التعريفات - ص 112.

⁽³⁾ الإشارة هنا إلى قوله تعالى: (وأوحينا إلى موسى إذا استسقه قومه، إن إضرب بعصاك الحجر، فأنبجست منه أثنتا عشر عينا، قد علم كل أناس مشريهم) الأعراف / 160.

⁽⁴⁾ الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 76.

⁽¹⁾ يروي الإمام عبد القادر، أنه في باكورة حياته، كانت خطوته الأولى في التصوف، مع الصدق وذلك في معرض أجابته على من سأل، علام بنيت أمرك؟ فقال: على الصدق، ما كذبت قط، ولا عندما كنت في المكتب، ثم يسرد بعد ذلك، قصة نجاته ونجاة القافلة التي ألحق في ركابها من اللصوص، بصدقه الذي عاهد أمه عليه قبل أن يودعها، ثم توبة اللصوص على يديه بهذا الصدق. - حول تفصيل القصة - أنظر - الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 87.

وجل من علاقة حتمية بالصدق، وأنه لا توكل حقيقي من دون صدق كافٍ، وأن أي خلل في صدق العبد يعني أن هناك خللاً في توكله، وإن من أراد أن يبلغ كمال التوكل، فإن عليه، أن يتقمص الصدق كاملاً، أي في قوله وفعله وحاله واعتقاده، لأن أي إنسان، لا يمكنه أن يعتمد أو يثق، بأي شيء من الأشياء، إلا إذا كان صادقاً في احساسه تجاهه فكيف الحال مع رب الخلق الذي لا يتقبل من عباده إلا ما حسن وخلص وصدق.

إن آفات النفس البشرية، كثيرة جداً، ولا يتمكن من السيطرة أو التغلب عليها، إلا من صدق من السالكين، لأن الصدق، إذا كان يزيد العبد قرباً من مولاه ويزيده ابتعاداً عن سواه، فإنه سيورثه حياةً عظيماً وحرماً لا حد له، مثوله بين يدي ربه تعالى، وهو مليء بالنقاص والآفات والكدورات، وعليه، فإنه سيزيد من المجاهدات والأذكار والعبادات، وهو لصدقه، أنه سيحث الخطي ويعجل بالقدوم على مولاه، لأن ((من عامل مولاه بالصدق والنصاح، استوحش ممن سواه)) (2)

وعليه، فإن الصدق، يمكن أن يُعدّ، من بين أكثر الوسائل التي تعين المرید على الفلاح في سلوكه الصوفي، وإذا كان الطمع فيما في أيدي الناس، يعد من بين أصعب الآفات المُحِبطة في الطريق

فإن الصادق، لا يسعه، إلا أن يطمع في ربه عز وجل دون سواه، وإذا كان الكسل وحب الدعة والتراخي عن مواصلة الطريق، يعدّ آفة أخرى، فإن الصادق معصوم عن هذه أيضاً، بصدقه، إذ إن صدقه في خلب القرب من ربه تعالى، لا يترك في قلبه، أي شاغل سواه، ثم أن المكافآت والهبات والكرامات الإلهية، التي يلقاها السالكون في الطريق، والتي تشغلهم، أحياناً عن مطلوبهم الحقيقي، فإنها أيضاً لا تؤثر في المرید الصادق الذي لا يفرح إلا بقاء محبوبه الأوحد وكذلك الحال مع بقية أنواع الرياء والشرك الخفي وجميع الأهواء والشهوات وآفات النفس الأخرى، لأنه حقاً كما قيل: النجاة في الصدق وفي الصدق النجاة

سابعاً- مقام الفناء -

الفناء لغة: هو الزوال والتلاشي، وفي اصطلاح الصوفية يعني: سقوط الأوصاف المذمومة عن العبد، كما أن البقاء، يعني وجود الأوصاف المحمودة فيه، والعبد لا يخلو من أحد هذين القسمين،

(2) الشطنوفى - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 76

فهو أن لم يكن أحدهما، كان الآخر لامحالة، لأن من فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الصفات المذمومة، استتارت عنه الصفات المحمودة⁰ هذا النوع من الفناء، يبلغه السالك، بكثرة الرياضة، أما النوع الآخر من الفناء، الذي هو عدم الأحساس بعالم الملك والملكوت، فهو يأتي بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق⁰ (1) ولإجل هذا النوع الثاني، عدّ الصوفية، الفناء، شكلاً من أشكال التوحيد الذوقي في مقابل التوحيد الاعتقادي، الذي هو إقرار بوحداية الله تعالى، والتوجه إليه وحده، بأنواع العبادات والقربات إن التوحيد الذوقي، هو شهود وإدراك قلبي للمطلق أو اللامتناهي، ويشترط في هذا الشهود، نفس مروضة ذات درجة عالية من الصفاء وإحساس فائق بالمطلق، تذوب معه جميع المتعينات الفردية، بما فيها إنية الذات المشاهدة، فأسحة المجال أمام حال المواجهة الشهودية مع تجليات الحضرة الإلهية وفي الحقيقة، فإن تقسيم الفناء الصوفي على (فناءين)، أخلاقي وذوقي، فيه فائدة نظرية، يراد منها، تقريب المفاهيم الصوفية إلى أذهان الناس، بينما في الواقع، فلا وجود، في التصوف الإسلامي بوجه خاص، إلا إلى شكل واحد للفناء، وهو الفناء الذي يتخلص من خلاله المرید من صفاته الذميمة، فتزال عن نفسه الحجب الظلمانية، وتصبح مهياة لأن تطالع تجليات الأنوار الإلهية.⁽²⁾

إن كون الفناء من المقامات الصوفية، يعني أنه يستحصل بالجهد والرياضات والعبادات، التي من خلالها تتخلص النفس من كثير من صفاتها وخبائعها الرديئة، ولذلك ألحق الصوفية الفناء بالبقاء، فبعد فناء الخلق، لابد من أن يبقى الخالق، وبعد فناء الصفات البشرية لابد من أن تبقى الصفات الإلهية إذن فالفناء في مفهوم التصوف الإسلامي، ليس محققاً، وإنما هو وجود جديد يصيب العبد من خلاله بعض الكمال المرجو. وبهذا المعنى يقول القشيري: إن العبد، إذا واظب على تزكية أعماله، ببذل وسعه، من الله تعالى عليه، بتصفية أحواله، بل بتوفية أحواله، فمن ترك مذموم أفعاله، يقال: فني عن شهواته، فاذا فني عن شهواته، بقي بذيته وأخلاصه في عبوديته، ومن زهد في دنياه، بقلبه، يقال: فني عن رغبته، فاذا فني عن رغبته فيها - أي في الدنيا - بصدق أنابته وكذلك الحال لمن يفنى عن توهم الآثار من الأغيار، فإنه يبقى بصفات الحق، ومن أستولى عليه سلطان الحقيقة، حتى لم يشهد من الأغيار، لا أثراً ولا رسماً ولا خلا

(1) الجرجاني - التعريفات - ص 176

(2) يعرف، د0 أبو العلا عفيفي الفناء بأنه: حال تتوارى فيه آثار الإرادة والشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق، فيصبح الصوفي، وهو لا يرى في الوجود غير الحق، ولا يشعر بشيء في الوجود سوى الحق وفعله وإرادته - أنظر - التصوف، الثورة الروحية في الإسلام ص 167 ويمكن القول، أن هذا التعريف ينطبق على حال وحدة الشهود، أكثر من أنطباقه على الفناء، الذي سيُبين لنا تعريفه الأكثر دقة، من خلال مجريات البحث

يقال: أنه فني عن الخلق وبقي بالحق. إذن ففناء العبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة بعدم هذه الأفعال، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق، بزوال إحساسه بنفسه وبهم.⁽¹⁾ ولعل أقرب مثال يوضح هذا القول، هو، حالة فناء المرید في شيخه، في الطرق الصوفية، فالمرید لا يمكنه من أن يتخلى عن ذاته تماما فيكون هو الإمام عينه، ولكن يمكنه أن يتمثل حاله الإمام وصفاته من أجل تقريب المناسبة، ومن أجل أن يكون قلبه مرتبطا بقلب شيخه، كي يستمد منه بعض تجليات الأنوار الإلهية.

معنى الفناء عند الإمام عبد القادر

يرد الفناء، عند الإمام عبد القادر، بعدة معانٍ، وهو يحاول، من خلالها دائما، أن يربط، بينه وبين جميع المقامات السابقة، بكونه ذروة التغيير النفسي والأخلاقي للمريد، وأن كل المقامات ماهي في حقيقتها، إلا مراتب متسلسلة لهذا التغيير. إن حالة الفناء عنده، هي غاية أحوال الأولياء والأبدال، وإلى بلوغها يطمع السالكون، وبغير الفناء، لا تتم التجربة الصوفية ولا تنضج ثمارها. إن الفناء، بكل معانيه الممكنة، لا يخرج عن حمى الساحة الأخلاقية، التي رسمها الإمام عبد القادر، لمنهجه الصوفي، والتي لا يتجاوز معنى الفناء فيها، كونه نبذا للصفات الإنسانية السيئة، وأستبدالها بأخرى حسنة.

مستويات الفناء

يقسم الإمام عبد القادر، الفناء، على خمسة مستويات، وهي: فناء عن الخلق، وفناء عن الهوى وفناء عن النفس، وفناء عن الإرادة، وفناء عن الأماني. أما الفناء عن الخلق فإن العبد، لا يبلغه إلا بعد أن يتيقن من استغناءه عن الخلق، بحيث لا يرى لهم نفعا ولا ضرا، وأنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله عز وجل وحده، وأنه حتى الأفعال التي تصدر من الخلق، ما هي في حقيقتها، إلا فعل خالص له تعالى. إن ما يرمي إليه هذا اللون من الفناء، هو تطهير عقيدة التوحيد لدى المرید، بحيث تتخلص من كثير من أشكال الشرك التي لدقتها، قد تخفى على غير الصوفية. أما الفناء عن الهوى، فإن معناه يمكن أن يفهم من خلال نقيضه، أي من خلال أتباع الهوى، فاتباع الهوى يؤدي بصاحبه حتما إلى التهلكة، وأن من البدائنه عند الصوفية، هي أن الخطوة الأولى في السلوك الصوفي عامة، تبدأ من مخالفة الهوى. وهذا الفناء أيضا لا يمكن الاعتراض عليه من جانب الشرع، لأنه يمثل في حقيقته، سلوكا أخلاقيا يرمي إلى تحسين

(1) القشيري - الرسالة القشيرية - ص 62.

صفات العبد وأخلاقه باستبدال المذموم منها بالمحمود. أما الفناء عن النفس، فإنه يتضمن معالجة جميع ما تشتمل النفس عليه، بين جذبيها، من خباج وميول ونوازع ودوافع، سلبية، تعرقل مسار الرقي الروحي للمريد. ويبدو، أن هذا الفناء، يقابل عمل النفس الملهمة، التي يدخل المرید معها، مرحلة التخلص من أهوائه الرديئة كافة. الفناء عن الإرادة، الذي يأتي بالمستوى الرابع، يدفع بصاحبه إلى حسن التوكل على بارئه تعالى وإلى الطاعة والتسليم وعدم الخروج عن إرادته، وهو مما يتوافق تماماً وأحكام الشرع.

الفناء عن الأمانى، يعني أن لا يرضى المرید بغير ربّه وخالقه، مطلباً، فلا تلهيه دنيا ولا أخرى ولا جنة زائلة ولا جنة خالدة، وإنما يكون مراده الأوحد، هو زيادة القرب منه تعالى، وهذا القرب، لا يتحقق له، إلا بعد خروج كل (السوى) عن قلبه، ولكن هذا السوى، لا يزول عن القلب، إلا بزوال الهوى والإرادة، اللذين بزوالهما، يصبح العبد ماثلاً في فعل الله تعالى وإرادته.⁽¹⁾ وهذا هو ما يمكن أن نسميه، بالتوحيد الحق، الذي يخلص به القلب لربه، فلا يعود ينظر لغيره ولا يتطلع إلى سواه، حتى ولو كان هذا السوى هو نعيم الآخرة. ويمكن القول، أننا لو جمعنا هذه (الفناءات) لوجدناها تشكل سيرة صوفية متكاملة، تبدأ من التخلص من الأهواء الرديئة وتنتهي بالأشراف على التوحيد الحق، ويبدو أن الإمام عبد القادر، لم يترك مجالاً للأعتراض على (فناء) هذا، وخاصة وأنه قد قدمه للناس بلغة هي أقرب إلى لغة الشرع منها إلى اللغة الصوفية الصرف.

الفناء بين الخلق والخالق

يذهب الإمام عبد القادر إلى أنه ما ثم في الوجود إلا خلق وخالق - وهي (إنشائية) حادة لا يمكن الجميع بين خرفيها، في أي مرحلة من مراحل القرب والوصول، ويبدو أنه يشير هنا إلى عدم تبنيه لما يلصق بأصحاب نظريتي الاتحاد والحلول - فإن اختار المرید الخالق، فعليه أن يخلع عن قلبه كل من عداة، فليس للرجل من قلبين في جوفه، وبحيث يتصرف وكأنه لا خلق في الوجود، وأنه لا وجود إلا للخالق عز وجل، عندئذ سيوجد وجوداً آخر، هو ما يسمى بـ(البقاء) أو الوجود الجديد الذي لا يرافقه إلا صفاء النفس وكرم الأخلاق، وإن من أبرز علامات هذا (الوجود) هو الدعوة المستجابة وخاعة الناس لأوامره.

(1) الجبلي - فتوح الغيب - ص 129.

أما إذا حثم على المرید أن يكون مع الخلق، مرشداً لهم مثلاً، فعليه أن يكون، معهم، بلا نفس ولا هوى، كي ينجو ويسلم من التبعات، فاما إذا ما إختلى مع ربه تعالى، فعليه أن يترك الكل على باب خلوته، ويدخل وحده، ليبري مؤنسه في خلوته بعين سره ويشاهد ما وراء العيان، فتزول النفس ويأتي مكانها أمر الله تعالى وقربه ((فعندها يكون جهله علم وبعده قرب وصمته ذكر ووحشته أنس))⁽¹⁾ أما علامة فناء العبد عن الخلق، فهي انقطاعه عنهم والأياس مما في أيديهم. وأما كيف يفنى العبد عن نفسه وهواه؟ فان ذلك يتم عن خريق ترك التعلق بالأسباب في جلب المنافع ودفع الاضرار ويأتي ذلك من يقينه بان هذه الاسباب لا تتحرك في العبد به ولا تعتمد عليه له، ولا تذب عنه ولا تنتصر له. واذن فان عليه أن يكل ذلك كله إلى من تولاه، أولاً، فهو حتماً سيتولاه آخر. إن الإمام عبد القادر، لا يشير على المرید، بالتخلص بشكل نهائي من نفسه أو من بقية الخلق، فتلك أقداره التي لا مهرب له منها، وإنما هو يشير، فقط، إلى حسن التعامل معها، ويتم ذلك عن خريق الفناء (القادري).

الفناء والبقاء

بهذا المستوى من العلاقة، بين العبد وربّه، ينال الوجود الجديد، الذي خلطها وعد الإمام عبد القادر مریده به، وسمي هذا الوجود بـ(الوجود الجديد)، لأن خبائع النفس تكون معه، قد تغيرت تغيراً أن يدفع بها، في الوقت نفسه، نحو مزيد من القرب من بارئها تعالى، إن النفس هنا ستترقى وتعمل عمل القلب وتدرک مدركاته، والقلب ينقلب سرّاً ويرتشف من المعارف الربانية، وكل ذلك يتم، لأن الفناء نفسه يكون قد انقلب وأصبح وجوداً وبقاءً⁽¹⁾. واذن فلا محق ولا تلاشي للوجود الإنساني، في الفناء الصوفي في الاسلام، وإنما هو سعي نحو الوجود الحق والحياة الاسعد التي لا تتخطفها الأوهام ولا تتنازعها النوازع.

ان سير المرید حثيثاً، نحو التحقق بمقام الفناء، يشير إلى صدق وعظم حبه لله تعالى لا بل إن أصحاب الفناء، هم وحدهم المحبون لله تعالى حقاً، لأنهم أعدموا الخلائق ولم يتعلقوا بهم، فانقلب خبعتهم إلى خبج الملائكة، الذين هم حتماً أقرب من البشر إلى السماء وأبعد منهم عن الأرض ولكن مع ذلك، فاصحاب الفناء لا يقفون عند هذا الحد، بل إنهم يسعون نحو مزيد من القرب من مولاهم عز وجل، فتراهم يسعون إلى التحقق بالفناء الثاني، الذي هو الفناء عن خبج الملائكة، واللحوق بالمنهاج الأول، أو الخلق الأول، الذي هو الفطرة السليمة التي فطر عليها أبو

(1) الجيلي - فتوح الغيب - ص170.

(1) الجيلي - فتوح الغيب - ص170.

البشرية، آدم (ع) فاذا وصل المرید إلى هذا المقام، صار قريباً من ربه، كقرب آدم من ربه وهو في الجنة، يسقيه ما يسقيه ويزرع فيه ما يزرع، فهو كله لربه، وليس لسواه شيء فيه. أما كيف السبيل إلى بلوغ ذلك فإن الإمام عبد القادر، يضع للمريد منهجاً واضحاً، لا لبس فيه ولا غموض، فالذي يريد ذلك، أي اللحق بالمنهاج الأول، فإن عليه أولاً أن يتحلى بالإسلام⁽²⁾ وذلك بإقامة شعائره والإلتزام بأوامره والانتهاز عن نواهيه، ثم الاستسلام، الذي يمثل الغاية من الإسلام ومعناه الحقيقي، وهذا لا يتجسد إلا بالإيمان المطلق بقدرته تعالى. ثم العلم بالله تعالى، وهو معرفة شرائعه وأحكامه، ثم المعرفة به، وهي معرفة الذوق والقلب والبصيرة، بقدرته وخلقه وإرادته وإخاذه بكل شيء، ثم أخيراً الوجود له تعالى أو العبودية المطلقة التي تقابل الألوهية المطلقة وهذا الوجود هو الغاية لأنه : ((إذا كان وجودك له، كان كلك له))⁽³⁾. ولا يمكن أن نعرف الفناء عند الإمام عبد القادر بأكثر من تعريف هذه العبارة له.

على أن هذا الوجود الجديد، أو المعرفة الجديدة، لا يقتصر على مدة زمنية محددة، ثم يعتزل بعدها المرید السلوك الصوفي، إنه عمل يستغرق العمر كله، إنه عمل الأبد، فاذا كان الزهد عمل ساعة والورع عمل ساعتين، فإن المعرفة هي عمل الأبد⁽¹⁾. لأن الأسرار الربانية لا متناهية ولا تحددها حدود، وكذلك القرب من المولى عز وجل، فإنه لا تحصيه القياسات ولا تحده الأبعاد، بل إن العبد لكما زاد خضوعاً لربه تعالى، زاد قرباً منه.

فناء الذات وفناء الصفات

إن الإمام عبد القادر، يريد أن يؤكد لنا، في أكثر من موضع من مؤلفاته، أن الفناء، هو فناء صفات، وليس فناء ذات، فناء الصفات الذميمة المغروسة في النفس، واستبدالها بالصفات الحميدة التي تقرب العبد من ربه. إن فناء الذات، هو ما يرفضه رفضاً قاطعاً، فالعبد مهما فعل ومهما تقرب، فإنه لا يمكنه أن يغادر ساحة عبوديته، ولا يمكن أيضاً، لذات الإنسان، مهما ارتقت في مراقبي الروح، أن تذوب في الذات الإلهية، أو تندمج بها، كما يريد أن يفهم ذلك بعض خصوم التصوف، أو بعض الدخيلين عليه، فلا بد إذن من بقاء عين العبد الفاني، ((بل إن العبد كلما تقرب إلى الله عز وجل، بالعبودية، وأظهر العجز والفناء عن جميع الصفات المناقضة للعبودية، وهبه الله تعالى،

(2) الابتداء بالإسلام هنا، تأتي لتأكيد المنطلق الشرعي في السلوك الصوفي.

(3) الجيلي - المصدر نفسه - ص 171.

(1) الجيلي - المصدر نفسه - ص 172.

فضلاً منه، من صفات حميدة عوضاً عما فنى منه من الصفات الذميمة⁽²⁾. وهذا هو المستوى الأول من الفناء، الذي يشبهه الإمام عبد القادر، بالموت، ليس الموت المعهود، بل انه موت خاص، لا يتحقق إلا للخواص من العباد، إنه موت الأهواء والطباع، الموت الذي يحيى بعده القلب، فتورثه هذه الحياة القرب، ويورثه هذا القرب، الحياة الدائمة، ((فيحال بينه وبين ذكر الموت في باخنه))⁽³⁾. وهذه العبارة الأخيرة تشير إلى معنى البقاء عند الإمام عبد القادر، فالبقاء عنده، يعد ثمرة من ثمار السلوك الصوفي، لا بل هو الثمرة الأخيرة، إذ ليس بعد الفناء إلا البقاء، فاذا ما حلت الاوصاف الحميدة في النفس، بعد خول المجاهدات، تم الفناء، ثم حصل البقاء، أي الوجود الحقيقي الذي يس معه فناء ولا انقطاع، ((لأن من علامة أهل البقاء، أن لا يصحبهم في وصفهم شيء فان لئهما ضدان ...))⁽⁴⁾. إذن، فالفناء عند الإمام عبد القادر، لا يطلب لذاته، وإنما يطلب للعبور منه نحو المرحلة الجديدة، وهي مرحلة الوجود المحض، التي غادرها الإنسان الأول بنسيانه عهد ربه فصار لزاماً عليه، بعد ذلك، أن يعالج نفسه بالكثير من أنواع المجاهدات والرياضات والعبادات، كي يعود إليها، فلا جديد إذن في هذا الوجود (الجديد) ولا إنسلاخ فيه عن الحقيقة البشرية، ولا هروب من الواقع الإنساني الناقص والمحكوم بالموت، بمحاكاة الوجود الالهي، وإنما هو الوجود الاصلي والحقيقي للبشر، الذي خلط بالكثير من العناصر الأرضية والذي حف بالكثير من الشهوات والأهواء.

الفناء عن الإرادة

الفناء بمستواه الثاني، هو فناء الإرادة، أي فناء ارادة العبد في ارادة مولاه، وذلك حين لا يكون له مراد قط ولا غرض ولا مرام، لأنه لا يريد مع ارادته سواها. الفناء عن الإرادة يتحقق، حين يفنى المرید عن الخلق لحكم ربه تعالى وعن هواه بامرء تعالى وعن ارادته بفعله تعالى، فحينئذ يصلح الإنسان، ويتمها، لأن يكون وعاء لعلم الله تعالى، من حيث إن العلم والإرادة لا ينفصلان، فاذا ما ذابت ارادة العبد في ارادة مولاه، فهذا يعني، في الوقت نفسه، أنه قد استعد لتلقي العلم الالهي. أما علامة فناء العبد عن إرادته، فهي أن لا يريد مع إرادته سواها، بل يجري فعله فيه وهو ساكن الجوارح مطمئن الجنان، مشروح الصدر عامر الباخن، غني عن الأشياء بخالقها، ((تقلبه يد القدرة،

(2) الجيلي - سير السلوك إلى ملك الملك - مخطوطة.

(3) الجيلي - الفتح الرياني والفيض الرحمانى - ص 361.

(4) التادفي - قلائد الجواهر - ص 91.

ويدعوه لسان الأزل ويعلمه رب الملك ويكسوه من نوره حلاً وينزله منازل من سلف من ألي العلم الأول، فيكون أبداً منكسراً لا تثبت فيه إرادة غير إرادة الله عز وجل⁽¹⁾ ولنا أن نسمي هذا الفناء ما شئنا من المسميات المقبولة عقلاً وعرفاً، فهو التوكل على الله تعالى وهو تمام العبودية له وهو الرضا به وهو التقرب إليه تعالى .

أما ثمرة هذا الفناء، أي الفناء عن الإرادة، فهي أن يضاف إلى قدرات العبد، التكوين وخرق العادات، أو بلغة أخرى (الكرامات) لأن من ذابت إرادته في إرادة مولاه، فهو حتماً ستخرق له العادات، ويرى ذلك منه في الحكم والعلم، أي في علاقته مع الناس والأشياء وفي علاقته بالمعارف والعلوم الرياضية، وهذه الحالة (الجديدة) يعدها الإمام عبد القادر، نشأة أخرى، مجردة عن كل أشكال الإرادات، وكلما وجدت إرادة كسرت وأزيلت حتى يتم اللقاء وبلغ الكتاب أجله. إذن فحد الفناء هو: أن يبقى الله تعالى وحده، كما كان قبل أن يخلق الخلق، وحد البقاء هو: أن يموت العبد عن الخلق وعن الهوى وعن الإرادة والمنى وعندها فقط، ((يحيى حياة لا موت بعدها ويغنى غنى لا فقر بعده، ويعطى عطاء لا منع بعده، ويعلم علماً لا جهل بعده، ويامن أماناً لا خوف بعده، ويسعد فلا يشقى، ويعز فلا يذل ويقرب فلا يبعد، ويعظم فلا يحقر، ويظهر فلا يدنس))⁽¹⁾. وتلك من أعظم النعم التي يمكن أن يرحوها العبد من بارئه، فهي تكاد تقترب من صفات أهل جنة الخلد، وأما ما يتعلق منها بخرق العادات، فقد أيد ذلك الإمام عبد القادر، وفصل كثيراً في شرحه، ولكنه اشترط ظهورها فيمن تمكن من نفسه، فهي تظهر عليه، بكونها علامة من علامات القبول ونهاية الطريق، وأما قبل ذلك، أي في حالة وجود الكرامات مع الهوى والنفس، فليس من الكرامة في شيء، وإنما هو استدراج ومكر إلهي.

الفناء وعلم اليقين

ان فناء الإرادة يدل على اكتمال يقين العبد بربه، واليقين، هو أعلى درجات علم العبد، فباليقين يقطع المرید جازماً، ومن دونما شك أو تلفت، أن لا فاعل على الحقيقة إلا الله عز وجل، فلا خير ولا شر ولا نفع ولا ضرر ولا موت ولا حياة ولا غنى ولا فقر إلا بيده عز وجل، وهذا هو ما تعارف الصوفية أن يسموه بالتسليم، و يشبهوا صاحبه بالطفل الرضيع في يد مرضعته، أو كالميت بين يدي الغاسل، إذ لا حراك في نفسه، ((أنه غائب عن نفسه في فعل مولاه، فلا يدري غير

(1) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص77.

(1) الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص77.

مولاه وفعله ولا يسمع إلا منه ولا يعقل إلا منه⁽²⁾. على أن هذه العبارة، لا تدل على دعوة الإمام عبد القادر، إلى تعطيل الحواس والتخلص من حكم العقل، وإنما هي تدل على دعوته إلى حسن استخدام الإنسان لحواسه وقدراته العقلية عن خريق توجهه صوب مولاه وتخلصه من جميع الشواغل والعوائق.

الفناء والخلود

هذا الفناء، إذا تمكن من نفس المرید وإرادته، فسيكون وجوده الحقيقي، أو معناه، كما يقول الإمام عبد القادر، في الآخرة، أما في هذه الحياة الدنيا، فليس له فيها إلا الصورة. إنه الخلود بمعناه الحقيقي لا المجازي، لأن من فني عن نفسه وعن جميع مراحل النفس التي مر بذكرها، صار وجوده حتماً في علم الله عز وجل، الأزلي الأبدي، وفي قبضته، سابحاً في بحر قدرته⁽¹⁾. ومعنى هذا القول، أن حال الفناء الذي بلغه العبد السالك ألقى فيه كل مناسبة تربطه مع وقائع الحياة الدنيا فاصبح لا خ مع له في ملذاتها أو أشيائها، وأصبح ضرورة مرتبطاً بشكل أوثق، بالآخرة، لأن باخنه صار أكثر مجانسة لنسق الآخرة.

الفناء والشهود

الفناء في مستواه الثالث، يمكن أن نسميه، بفناء التجلي، أو فناء الشهود، أو فناء المحو. وبهذا الفناء تتحقق معرفة العبد لربه عز وجل، فيصير بهذه المعرفة حراً عن السوى غريباً في الدنيا والآخرة لعدم مجانسته لهما معاً، والمجانسة هي في حقيقتها، وليدة الرغبة. إن المرید هنا يكون في حالة غيبة عن الكل ومحو عن الكل، وهذه الحالة يسميها الإمام عبد القادر بحالة حق الحق، وهي أرقى من حالة أهل الحقيقة. إنها حالة المحو والفناء، التي لا ينالها إلا العارفون الموحدون، أو خاصة الخاصة الذين جعلهم ربه تعالى، أمناً على خلقه وقد ينحصر هؤلاء في شخص واحد، هو الوريث المحمدي، الذي لا يكون له مطلب إلا رضا ربه عز وجل، لأنه أخرج الكل عن قلبه حتى وصل إلى الحق، فاصطفاه واجتباة وأحبه وحببه إلى خلقه، وهو يشاء بمشيئة ربه ويختار باختيارة ويرضى برضاه ويتمثل أمره دون غيره لأنه لا يرى لغيره عز وجل وجوداً ولا فعلاً⁽²⁾. إذن ففي هذه المرحلة تلغى حتى المجانسة مع الآخرة، ويزول الطمع في جوائزها، بحيث لا يكون للعبد في هذا الفناء،

(2) التونسي - رياض البساتين - ص 54 - ونود أن نشير هنا، إلى أن من بعض تعريفات الفناء عند الإمام عبد القادر هو أنه: فعل القدر المحض الجاري على الولي، من غير أن يكون له حظ من إرادة - انظر - فتوح الغيب - ص 135.

(1) الجيلي - جلاء الخاخر - ص 66.

(2) الجيلي - فتوح الغيب - ص 129.

إلا مطمع واحد، وهدف واحد، وهو قربه من مولاه تعالى ، وهذا الحال لا يناله إلا أوحده عصره وفريد دهره، وهنالك الكثير من الاشارات التي وردت على لسان الإمام عبد القادر، والتي يشير فيها إلى بلوغه هذا الملقام⁽³⁾ .

يرى الإمام عبد القادر، أن ابتداء هذا الفناء يكون بفضل من الله تعالى ، فهو موهبة منه دون إرادة أو قصد من العبد، أما أساس ذلك، فهو أن يطلع سر وليه بقبس خفيف من التجلي، فيتلاشى الكون في قلبه، ويفنى تحت تلك الإشارة، على أن البقاء الذي يعقب هذا الفناء، هو فناؤه تحت إشارة ربه تعالى ، فيتقلب في الحق، بين فناء وبقاء، إشارة تفنيه وتجلية تبقيه، بينما هو يكون قد باين خبائعه، واضمحلت فيه الرسوم وفنيت فيه الانانية، انه غارق بشكل دائم في حضرة القرب والتجلي بالحقائق الصمدانية، إنه في حالة شهود دائم للوحدانية، حيث لا حيث ولا أين ولا كيف⁽¹⁾ ولكن الإمام عبد القادر لا يترك لهذه الافكار أن تتدرج إلى نهايتها الملحوضة، فيظن سامعه أنه قد تجاوز الخط الأحمر، أو أنه قد تعدى أمر الشرع ونهيه، وهو ما لا يرضى به لغيره، يرى الإمام عبد القادر، أن من وصل إلى هذه المرتبة من القرب والفضل من ربه عز وجل، فهو حتماً قد وهب الحفظ والسلامة و موافقة فعل ربه في كل ما يفعل، بحيث إنه لا يخرق أي قاعدة في الشرع، فينزلق إلى مهاوي الزندقة وإباحة المحارم⁽²⁾ . إن هذا لا يكون حتماً في حق من إختصه ربه عز وجل، بالاسرار والعلوم اللدنية، والدخول في بحار الانوار، حيث لا تضره ظلمة الطبائع.

إن هذا الرأي الأخير، يؤكد اعتقاد الإمام عبد القادر، بعدم زوال الطبائع الآدمية من البشر، حتى إن نالوا، اعلى درجات القرب من بارئهم عز وجل، فالطبع باقٍ إلى أن تفارق الروح الجسد، ولوزال الطبع، لألتحق الآدمي بالملائكة ولبطلت الحكمة.

الفناء بصورته النهائية، الواضحة والبسيطة، التي -كما عودنا الإمام عبد القادر في تقديمه للمفاهيم الصوفية- لا يمكن الاعتراض عليها، مهما كانت خلفية المعترض الفكرية ومهما كان إنتماؤه المعرفي، إنه المرحلة الأخيرة في تصوف الإمام عبد القادر، وهو الاستعداد الامثل للقاء المولى تعالى ، بعد استكمال مقومات الصلاح وامانة النفوس والأهوية وتصحيح الطباع والاقبال على (الموت الخاص)، إنه الصياغة النهائية لانسانية الإنسان، ومن دون تجاوز (لارض) هذه الإنسانية، بل وانطلاقاً منها نحو آفاق الحضرة الإلهية اللامتناهية.

(3) حول ما افصح به عن مقامه- انظر على سبيل المثال- الشطنوفي - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار- ص19 فما بعدها.

(1) الجيلي - الصلوات الكبرى - مخطوطة - دار صدام للمخطوطات - رقم 14855.

(2) الجيلي - المصدر نفسه - ص139.

إن الحب وحده، هو الوازع الذي دفع بالإنسان الاعتيادي، إلى سلوك خريق التصوف والحب هو نفسه الذي دفع به، إلى خلب المزيد من القرب من محبوبه، فكان الفناء وكان السعي لمحو الصفات السلبية التي تحملها النفس الإنسانية بين جذبيها، والتي عدها الصوفية من أصعب الحواجز التي تحول بين المحب وبلوغ مراده، وهذا هو ما حدا بالإمام عبد القادر، إلى أن يحث مريديه باستمرار، على خلب الفناء والسعي له، لكونه ((هو الراحة الكبرى والجنة العالية المنفردة في الدنيا، وهو باب الله الأكبر وعلّة محبة الله لعبده))⁽³⁾. ولأنه أخيراً هو حقيقة الإنسان ومعناه المدفون تحت ركام الغرائز والشهوات والأهواء، فلا جديد ولا تجاوز لحدود البشرية، بل هو عود على بدء.

(3) الجبلي - فتوح الغيب - ص116.

القسم الثاني :
قطوف
من كلام الإمام عبد القادر الجلي

يا غلام .. إنما يقود الناس البصير

يا غلام .. عظم نفسك أولاً ثم عظم نفسك غيرك ، عليك بخويصة نفسك ، لا تتعد إلى غيرك وقد بقي عندك بقية تحتاج إلى إصلاحها .

ويحك .. أنت تعرف كيف تخلص غيرك؟! . أنت أعمى .. كيف تقود غيرك؟! ، إنما يقود الناس البصير ، إنما يخلصهم من البحر السابح المحمود ، إنما يرُدُّ الناس إلى الله عزَّ وجلَّ من عرفه ، أما من جهله كيف يدل عليه؟! ..

إذا كان التوحيد بباب الدار والشرك داخل الدار فهو النفاق بعينه ، ويحك .. أنت لسانك يتقي وقلبك يفجر ، لسانك يشكر وقلبك يعترض!! .



المؤمن مجاهد لا ينغمد سيفه

يا غلام .. عليك بالتقوى .. عليك بحدود الشرع ، والمخالفة للنفس ، والهوى ، والشيطان ، وأقران السوء .. المؤمن في جهاد هؤلاء لا ينكشف رأسه عن الخود ، لا ينغمد سيفه ، لا يعزو ظهر فرسه عن قربوس سرجه .



عليك بورع الخلوة ومراقبة الحق

يا غلام .. تحتاج في خلوتك إلى ورع يخرجك عن المعاصي والزلات ، ومراقبة تذكرك بنظر الحق عزَّ وجلَّ إليك . أنت محتاج مضطر إلى أن يكون هذا معك في خلوتك ، ثم تحتاج إلى محاربة النفس والهوى والشيطان ، خراب معظم الناس مع الزلات ، وخراب الزهاد مع الشهوات .



التوبة قلب دولة

يا غلام .. لا تكن مع النفس ، ولا مع الهوى ، ولا مع الدنيا .. حينئذ تجيئك الهداية من الحق عز وجل التي لا ضلال بعدها . ثب عن ذنوبك وهول عنها إلى مولك عز وجل إذا تبت فليتب ظاهرك وباطنك .. التوبة قلب دولة ، اخلع ثياب المعاصي بالتوبة الخالصة والحياء من الله عز وجل حقيقة لا مجازاً ، وهذا من أعمال القلوب بعد خهارة الجوارح بأعمال الشرع ، القلب له عمل والقلب له عمل .



استقبل الداء بالصبر والشفاء بالشكر

يا غلام .. إذا جاءك الداء فاستقبله بيد الصبر واسكن حتى يجيء الدواء ، فإذا جاء الدواء فاستقبله بيد الشكر .



لا تجعل العاجلة أكبر همك

يا غلام .. لا يكن همك ما تاكل وما تشرب ، وما تلبس ، وما تنكح ، وما تسكن ، وما تجمع ، كل هذا هم النفس والطبع .. فليكن همك ريك عز وجل وما عنده .



ما خلقت للبقاء .. فاعمل صواباً خالصاً

يا غلام .. ما خلقت للبقاء في الدنيا والتمتع فيها ، فغير ما أنت فيه من مكاره الحق عز وجل .. الإيمان قول وعمل .. إذا قلت : (لا إله إلا الله) فقد ادعيت . يقال : أيها القائل ألك بيئة ؟ ما البيئة ؟ ؛ امتثال الأمر ، والانتها عن النهي ، والصبر على الآفات ، والتسليم إلى القدر ، هذه بيئة هذه الدعوى . وإذا عملت هذه الأعمال ما تُقبل منك إلا بالإخلاص للحق عز وجل ، ولا يُقبل قول بلا عمل ، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة .



واسوا الفقراء واشكروا ريكم

واسوا الفقراء بشيء من أموالكم ، لا تردوا سائلاً وأنتم تقدرون أن تعطوه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً ، وافقوا الحق عز وجل في حبه العطاء ، واشكروه كيف أهلكم وأقدركم على العطاء .

ويحك .. إذا كان السائل هدية الله عز وجل وأنت قادر على إعطائه ، فكيف ترد الهدية على مهديها ؟ .
عندي تستمع وتبكي ، وإذا جاء الفقير يقسو قلبك ، فدلّ على أن بكاءك وسماحك ما كان خالصاً لله عز وجل ..



زهد الظاهر ، وزهد القلب

يا غلام .. ليس الشأن في خشونة ثيابك وماكولك ، الشأن في زهد قلب .



لا تأخذ الرزق بيد الرغبة!

يا غلام .. تناول الأقسام بيد الزهد لا بيد الرغبة ، ليس من ياكل ويبكي كمن ياكل ويضحك ، كُلِ الأقسامَ وقلبك مع الحق عزَّ وجلَّ ، فإنك تسلم من شرها ، إذا أكلت من يد الطبيب كان خيراً من أن تأكل وحدك ما لا تعلم أصله .



ما أقسى قلوبكم ، ضيَّعتُمُ الأمانة!

ما أقسى قلوبكم! .. الأمانة قد ذهبت من بينكم ، الرحمة قد ذهبت فيما بينكم ، أحكام الشرع أمانة عندكم وقد تركتموها وخنتم فيها! .



قابلوا العسر بالصبر واليسر بالشكر

احفظوا نعمه — عزَّ وجلَّ — بالشكر ، قابلوا أمره ونهيه بالسمع والطاعة ، قابلوا العسر بالصبر واليسر بالشكر ، هكذا كان من تقدمكم من النبيين والمرسلين والصالحين ؛ يشكرون على النعم ويصبرون على النقم .. قوموا من موائد معاصيه ، وكلوا من موائد خايعته ، واحفظوا حدوده . إذا جاءكم اليسر فاشكروه ، وإذا جاءكم العسر فتوبوا من ذنوبكم وناقشوا أنفسكم ، فإن الحق عزَّ وجلَّ ليس بظلام للعبيد .



تنبهوا ، إلى متى هذا النوم ؟

اذكروا الموت وما وراءه ، واذكروا الرب عزَّ وجلَّ وحسابه ونظرته إليكم .

تنبهوا .. إلى متى هذا النوم ؟ . إلى متى هذا الجهل والتردد في الباخل ، والقيام مع النفس والهوى والعادة؟. لِمَ لَمْ تتادبوا بعبادة الحق عزَّ وجلَّ ومتابعة شرعه؟.

العبادة ترك العادة ، لِمَ لَمْ تتادبوا بأداب القرآن وكلام النبوة؟! .



خالط الناس بالبصيرة

يا غلام .. لا تخالط الناس مع العمى ، مع الجهل ، مع الغفلة والنوم ، خالطهم بالبصيرة ، والعلم ، واليقظة ، فإذا رأيت منهم ما تحمده فاتبعه ، وإذا رأيت منهم ما يسؤوك فاجتنبه ، وردهم عنه .



ويحك .. كم تناول وترخص ؟!

ويحك! .. كم تناول وترخص ؟! ، املناول غادر ، ليتنا إذا ركبنا العزيمة وتعلّقنا بالإجماع وأخلصنا في أعمالنا تخلصنا من الحق عزّ وجلّ! ، فكيف إذا تناولنا وترخصنا ؟ العزيمة ذهبت وذهب أهلها .

هذا زمان الرخص لا زمان العزائم! ، هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق ، قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويذكي ، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق !!

كلكم موتى القلوب .. أحياء النفوس والأهوية ، خالبون للدنيا حياة القلب بامتثال أمر الحق عزّ وجلّ والانتهاه عن نهيه .



كن مسلماً في الخلوة والجلوة

ويحك! .. لسانك مسلم أما قلبك فلا ، قولك مسلم أما فعلك فلا ، فلأنت في جلوتك مسلم ، أما في خلوتك فلا .

أما تعلم أنك إذا صليت وصمت وفعلت جميع أفعال الخير ، إن لم ترد بهذه الأعمال وجه الله عزّ وجلّ فانت منافق بعيد من الله عزّ وجلّ ؟!

نُب الآن إلى الله عزّ وجلّ من جميع أفعالك وأقوالك ومقاصدك الدنية .



العلم لا ينفعك بلا عمل

يا قوم .. هذا العلم لا ينفعكم بلا عمل ، تحتاجون أن تعملوا بهذا السواد على البياض ، وهو حكم الله عز وجل ، تعملون به يوماً بعد يوم وسنةً بعد سنة حتى تقع في أيديكم ثمرة.



علمك حجة لك أو عليك

يا غلام .. علمك يناديك : أنا حجة عليك إن لم تعمل بي ، وحجة لك إن عملت بي .



علمك يناديك فاسمعه بقلبك

علمك يناديك ولكنك لا تسمعه لأنه لا قلب لك ، اسمعه باذن قلبك ، واقبل قوله فإنك تنتفع به ، العلم بالعمل يقربك إلى العالم المنزّل للعلم .



زكاة العلم

زكاة العلم نشره ودعوة الخلق إلى الحق عز وجل .



لا تاكل بدينك وواس غيرك بمالك

كل بكسبك ولا تاكل بدينك ، اكتسب ، وكُل ، وواس منه غيرك .



يا عابد الخلق والأسباب!

يا عابد الخلق والأسباب ناسياً للحق عز وجل .. أسلم ثم تب ثم تعلّم واعمل وأخلص ، وإلا فلا تُهدى .



لست عدوي .. ولا أحابيك

ويحك! .. ما بيني وبينك عداوة ، غير أنني أقول الحق ولا أحابيك في دين الله عز وجل .



دع عنك الكلام فيما لا ينفعك

يا مسكين ، دع عنك الكلام فيما لا ينفعك ، اترك التعصب في المذهب ، واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة .. فرّغ قلبك من هموم الدنيا فإنك ماخوذ منها عن قريب .. قصر أملك وقد جاءك الزهد في الدنيا ، لأن الزهد كله قصر الأمل .



اهجر قريباً خالها وصل بعيداً صالحاً

اهجر أقران السوء ، واقطع المودة بينك وبينهم ، وواصلها بينك وبين الصالحين ، اهجر القريب منك إذا كان من أقران السوء ، وواصل البعيد منك إذا كان من أقران الخير. كل من وادته صار بينك وبينه قرابة ، فانظر لمن توادد .



احذر بحر الدنيا فإنه عميق!

يا غلام .. احذر من بحر الدنيا فقد غرق فيه خلق كثير ، ما ينجو منه إلا آحاد الخلق ، هو بحر عميق يُغرق الكل ، غير أن الله عز وجل ينجي منه من يشاء من عباده .



أيها المدير .. عن قريب أنت مأخوذ!

يا مدبر! .. أراك تُرضي الخلق وتسخط الخالق ، تخرب آخرتك بعمارة دنياك ، عن قريب أنت مأخوذ ، ياخذك الذي أخذته أليمٌ شديد ، أخذته ألوان كثيرة ، ياخذك بالعزل عن ولايتك ، ياخذك بالمرض والذل والفقر ، ياخذك بتسليط الشدائد والغموم والهموم ، ياخذك بتسليط أسنة الخلق وأيديهم عليك ، تنبه يا نائم .



لا تاخذ الدنيا كحاجب ليل!

يا غلام .. لا تكن في أخذك الدنيا كحاجب ليل ما يدري ما يقع في يده .. إنني أراك في تصرفاتك كحاجب ليل في ليلة ظلماء لا قمر فيها ولا ضوء معه ، وهو في رملة كثيرة الدغل والحشرات القاتلة فيوشك أن يقتله شيء منها ، عليك بالاحتطاب نهاراً فإن ضوء الشمس يمنعك أن تاخذ ما يضرك .

كن في تصرفاتك مع شمس التوحيد والشرع والتقوى ، فإن هذه الشمس تمنعك من الوقوع في شبكة الهوى والنفس والشيطان والشرك بالخلق ، وتمنعك عن العجلة في السير.



من استعجل أخطأ أو كاد

ويحك .. لا تعجل ، فإن من استعجل أخطأ أو كاد ، ومن تأنى أصاب أو كاد ؛ أي : قارب أن يصيب . العجلة من الشيطان ، والتؤدة من الرحمن ، أكثر ما يحملك على العجلة الحرص على الدنيا ، اقنع فإن الفناعة كنز لا ينفد .



اغتنموا الأبواب المفتوحة

يا قوم .. انتهزوا واغتنموا باب الحياة ما دام مفتوحاً ، عن قريب يغلق عنكم . اغتنموا أفعال الخير ما دمت قادرين عليها . اغتنموا باب التوبة وادخلوا فيه ما دام مفتوحاً لكم . اغتنموا باب الدعاء فهو مفتوح لكم . اغتنموا باب مزاحمة إخوانكم الصالحين فهو مفتوح لكم .



يا قوم .. ارجعوا من إياكم!

يا قوم .. ابنوا ما نقضتم ، اغسلوا ما نجستم ، أصلحوا ما أفسدتم ، صقوا ما كدركم ، ردوا ما أخذتم ، ارجعوا إلى مولاكم من إياكم وهربكم! .



الكسلان محروم

يا غلام .. لا تكسل فإن الكسلان يكون أبداً محروماً ، والندامة في ريقه .. جود أعمالك .. وقد جاد الحق عز وجل عليك بالدنيا والآخرة .



ما أحسن عشرة الخلق بآداب الشرع!

حُسْنُ الْعِشْرَةِ مع الخلق والموافقة لهم مع حدود الشرع ورضا حسنٌ مباركٌ .. وأما إذا كان ذلك مع خرق حد
من حدوده وعدم رضا فلا ولا كرامة لهم .



لا تُدْعُ بلسانك وقلبك معترض!

يا غلام .. انصب شبكة الدعاء .. وارجع إلى الرضى .. لا تُدْعُ بلسانك وقلبك معترض ..



ذكر البذر وقت الحصاد لا ينفع

يوم القيامة يتذكر الإنسان ما فعل من خير وشر .. فالندامة هناك لا تنفع .. ذكر الحرث والبذر وقت حصاد الناس لا ينفع .. إذا جاءك الموت انتبهت وقت لا ينفعك الانتباه .



من مفسد صحبة الأشرار

يا غلام .. صحبتك للأشرار توقعك في سوء الظن بالأخيار .. امش تحت ظل كتاب الله عز وجل سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد أفلحت .



لا تغفلوا .. زمانكم يضيع!

يا قوم .. استحيوا من الله عز وجل حق الحياء ، لا تغفلوا . زمانكم يضيع ، قد اشتغلتم بجمع ما لا تأكلون ، وتاملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون ، كل هذا يحجبكم عن مقام ربكم عز وجل .



من شرائط حب الله

ويحك .. قد ادعيت محبة الله عز وجل! ، أما علمت أن لها شرائط ؟ من شرائط محبته موافقته فيك وفي غيرك ، ومن شرائطها ألا تسكن إلى غيره ، وأن تستأنس به ، ولا تستوحش معه . إذا سكن حب الله قلب عبد أنس به وأبغض كل ما يشغل عنه .

تب من دعواك الكاذبة ، هذا شيء لا يجيء بالتخلي والتمني والكذب والنفاق والتصنع .. تب واثبت على توبتك ، فليس الشان في توبتك ، الشان في ثبوتك عليها .. ليس الشان في غرسك ، الشان في ثبوته وتغصينه وثمرته .



الزموا الحق في جميع أحوالكم

الزموا موافقة الحق عز وجل في الباساء والضراء .. والفقر والغنى .. والشدة والرخاء .. في السقم والعافية .. في العطاء والمنع .



تمام العبودية

يا غلام .. أنت عبد أبى من مولاك .. ارجع إليه وذلل له ، وتواضع لأمره بالامتثال ، ولنهيهِ بالانتهاء ، ولقضائه بالصبر والموافقة .

إذا تم لك هذا تمت عبوديتك لسيدك وجاءتك منه الكفاية ، قال الله عز وجل : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ .. } [القصص : 36] .

إذا صحت عبوديتك له أحببك ، وقوى حبه في قلبك وأنسك به وقربك منه .. فتكون راضياً عنه في جميع أحوالك .



ذهاب دينكم بأربعة أشياء

لا تكونوا من الذين إذا وعظوا لم يتعظوا ، وإذا سمعوا لم يعملوا . ذهاب دينكم بأربعة أشياء :

الأول : أنكم لا تعملون بما تعلمون .

الثاني : أنكم تعملون بما لا تعلمون .

الثالث : أنكم لا تتعلمون ما لا تعلمون .. فتبقون جهالاً .

الرابع : أنكم تمنعون الناس من تعلم ما لا يعلمون .



مجالس الذكر للمداواة يا غافل

يا قوم .. إذا حضرتم مجالس الذكر تحضرونها للفرجة لا للمداواة! .. تعرضون عن وعظ الواعظ وتحفظون عليه الخطأ والزلل .. وتستهزئون وتضحكون وتلعبون! .. توبوا من هذا ، لا تتشبهوا بأعداء الله عز وجل وانتفعوا بما تسمعون.



يا عجباً .. كانكم لا تموتون!

قد غفلتم كانكم لا تموتون! .. وكانكم يوم القيامة لا تحشرون! .. وبين يدي الحق لا تحاسبون! .. وعلى الصراط لا تجوزون! .. هذه صفاتكم وأنتم تدعون الإسلام والإيمان! .. هذا القرآن والعلم حجة عليكم إذا لم تعملوا بهما .



أعقل الناس ، وأجهل الناس

يا غلام .. تنبه قبل أن تُنْبه .. تدَّينْ وخالط أهل الدين فإنهم هم الناس .. أعقل الناس من أخاع الله عز وجل .. وأجهل الناس من عصاه .



تربت يدك!

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « .. تَرَبَّتْ يَدَاكَ » رواه البخاري ، يعني : افتقرت . وأترب : إذا استغنى . إذا خالطت أهل الدين وأحببتهم استغنت يداك .. وقلبك يهرب من النفاق وأهله .. المنافق المرائي لا عمل له ، اعمل وأخلص ولا تنظر إلى عملك في الجملة ، لا يقبل - سبحانه وتعالى - منك إلا ما أردت به وجهه لا وجه الخلق.



قلل فرحك وكثر حزنك

ويحك! .. تعمل للخلق وتريد أن يقبله الحق عز وجل! هذا هوسٌ منك .. دع عنك الشره والبطر والفرح .. قلل فرحك وكثر حزنك فإنك في دار الحزن .. في دار السجن .



إذا صحت خلوتك .. صفا قلبك

يا غلام .. إذا صحت خلوتك مع الله عزَّ وجلَّ .. صفا قلبك . يصير نظرك عبراً ، وقلبك فكراً .. التفكير في الدنيا عقوبة وحجاب .. والتفكير في الآخرة علم وحياة للقلب .. ما أعطي عبد التفكير إلا أعطي العلم بأحوال الدنيا والآخرة .



ويحك .. رزقك مقسوم!

ويحك! .. تضيع قلبك في الدنيا وقد فرغ عزَّ وجلَّ من أقسامك منها .. حرصك يفضحك عند الله عزَّ وجلَّ وعند الخلق .



صحبة الأحق صحبة غبن

يا غلام .. تصحب الجهال فيتعدى إليك من جهلهم ، صحبة الأحق صحبة غبن ، اصحب المؤمنين الموقنين العاملين العاملين بعلمهم .. ما أحسن أحوال المؤمنين في جميع تصرفاتهم .. ما أقواهم على مجاهداتهم وقهرهم لنفوسهم وأهويتهم! .



اقبل نصح أخيك

اقبل نصح أخيك المؤمن ولا تخالفه . فإنه يرى لك ما لا ترى أنت لنفسك . المؤمن الصادق في نصحه لأخيه المؤمن يبين له أشياء تخفى عليه .. تُفرِّق له بين الحسنات والسيئات .. يعرفه ما له وما عليه .



سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق

سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي .. إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء .. ما أنا خالب
دنيا .. فرحي بفلاحكم ، وغمي لهلاككم .



يا قوم اعرفوا قدركم

يا قوم .. دعوا التكبر .. اعرفوا قدركم وتواضعوا في نفوسكم ؛ أولكم نطفة من ماء مهين .. وآخركم جيفة
ملقاة !! .

لا تكونوا ممن يقوده الطمع ، ويصيده الهوى ويحمله إلى أبواب السلاخين في خلب شيء منهم لم يُقسم
له ، ويطلب منهم ما قد قسم له بالذل والمهانة !! .



يا جاهلاً بالقدر والمقدر

ويحك .. يا جاهلاً بالقدر والمقدر! . أظن أن أبناء الدنيا يقدرُونَ أن يعطوك ما لم يُقسم لك ؟! . ولكن هذه
وسوسة الشيطان الذي قد تمكن من قلبك ورأسك . لست عبد الله عز وجل وإنما أنت عبد نفسك وهواك
وشيطانك وخبعت ودرهمك ودينارك .

اجهد حتى ترى مفلحاً

اجهد حتى ترى مفلحاً .. حتى تفلح بطريقه .. أنت ترى المفلح بعيني رأسك لا بعيني قلبك .. فلا جرم لا
يكون لك بصيرة تبصر بها غيرك. قال الله تعالى : { ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الصدور } [الحج : 46]



بائع الدين بالتين!

الطامع في أخذ الدنيا من أيدي الخلق يبيع الدين بالتين ، يبيع ما يبقى بما يفنى ، فلا جرم لا يقع بيده لا هذا ولا هذا .



أصلح معيشتك .. ولا تبذل للناس دينك

ما دمت ناقص الإيمان فدونك وإصلاح معيشتك .. حتى لا تحتاج إلى الناس فتبذل لهم دينك وتاكل أموالهم به .



الزم باب ربك واسأله اليقين

يا غلام .. إن قدرت أن تتفرغ من هموم الدنيا فافعل .. وإلا فاهروا بقلبك إلى الحق عز وجل .. الزم بابه وسله أن يطهر قلبك ويملاء بالإيمان .. والغنى به .

سله أن يعطيك اليقين ويؤنس قلبك به ، ويشغل جوارحك بطاعته ..

اخلب الكل منه لا من غيره .. لا تذلل مخلوق مثلك.



فقه اللسان .. وغفلة القلب!

يا غلام .. فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة .. السير سير القلب .. العمل عمل المعاني
مع حفظ حدود الشرع بالجوارح .



لا تفرط في إحكام الأساس!

قد سبق تفريطك في إحكامك للأساس .. ما ينفك إحكامك للبناء الذي فوقه؟! .
إذا تغير البناء والأساس محكم قدرت أن تجبر البناء .. أساس الأعمال التوحيد والإخلاص .. فمن لا توحيد له
ولا إخلاص له لا عمل له .. أحكم أساس عملك بالتوحيد والإخلاص .. يد التوحيد هي البانية لا يد الشرك
والنفاق .



اصبروا .. فالدنيا آفات ومصائب

يا قوم .. اصبروا فإن الدنيا كلها آفات ومصائب .. والنادر منها غير ذلك .. ما من نعمة إلا وفي جنبها نقمة ،
ما من فرحة إلا ومعها ترحة ، ما من سعة إلا ومعها ضيق .. أعطوا الدنيا حياتكم وتناولوا أقسامكم منها بيد
الشرع .. فإنه هو الدواء في ما يؤخذ من الدنيا .



أنكر على نفسك لتذكر على غيرك

إذا كنت منكرًا على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك .



أثر الإيمان في إزالة المنكر

على قدر قوة إيمانك تزيل المنكرات .. وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها .



أقدام الإيمان عند اللقاء تثبت

أقدام الإيمان هي التي تثبت عند لقاء شياخين الإنس والجن .. هي التي تثبت عند نزول البلايا والآفات .



ثوب المرأئي نظيف وقلبه نجس

المرأئي .. ثوبه نظيف ، وقلبه نجس ، يزهد في المباحات ويكسل عن الاكتساب ، وياكل بدينه .. يخفى
أمره على العوام ولا يخفى على الخواص ، كل زهده وخاعته على ظاهره ، ظاهره عامر وباجنه خراب .



اخلع ثياب توانيك!

اخلع ثياب توانيكَ في حقوق الله عزَّ وجلَّ ، اخلع ثياب وقوفكَ مع الخلق وشرككَ بهم ، اخلع ثياب الشهوات والرعونات والعجب والنفاق ، وحبكَ للقبول عند الخلق ، وإقبالهم عليك ، وعطاياهم لك ، اخلع ثياب الدنيا والبس ثياب الآخرة .



الطريق إلى الصلاح والنجاح

من أفنى الخلق بيد توحيدِهِ ، وأفنى الدنيا بيد زهدِهِ .. فقد استكمل الصلاح والنجاح ، وحَظِيَ بخير الدنيا والآخرة .



المؤمن صابر

المؤمن يثبت عنده أن الله عزَّ وجلَّ ما يبتليه بشيءٍ إلا لمصلحة تعقب ذلك .. إما دنيا أو آخرة .. فهو راضٍ بالبلاء صابرٌ عليه غير متهم ربه عزَّ وجلَّ .



كن مع الله ودع خدمة السلاخين

يا غلام .. اخدم الحق عزَّ وجلَّ ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاخين الذين لا يضررون ولا ينفعون . أيش يعطونك؟! ، أيعطونك ما لم يقسم لك ؟ أو يقسمون لك شيئاً لم يقسمه الحق عزَّ وجلَّ؟! ..
أما تعلم أنه لا معطي ولا مانع ، ولا ضار ولا نافع ، ولا مقدم ولا مؤخر ، إلا الله عزَّ وجلَّ؟! .
فإن قلت : إني أعلم ذلك . قلت لك : كيف تعلم هذا وتقدم غيره عليه؟! .



ويحك .. كيف تفسد عملك؟!

ويحك! .. كيف تفسد آخرتك بدنياك؟! كيف تفسد خاعة مولاك عزَّ وجلَّ بطاعة نفسك وهواك وشيطانك والخلق؟! كيف تفسد تقواك بشكواك إلى غيره؟!
أما تعلم أن الله عزَّ وجلَّ حافظٌ للمتقين ، وناصرٌ لهم ، وراذٌ عنهم ، ومعلمٌ لهم .. وأخذٌ بأيديهم وينجيهم من المكاره ، ونظرٌ إلى قلوبهم ، ورازقهم من حيث لا يحتسبون؟! .



عبادة التقي وعبادة المنافق

التقي لا يتكلف عبادة الحق عزَّ وجلَّ لأنها صارت خبعه ، فهو يعبد الله بظاهرة وباخنه من غير تكلف منه .
وأما المنافق فهو في كل أحواله يتكلف ، ولا سيما في عبادة الحق عزَّ وجلَّ ، يتكلفها ظاهراً ويتركها باخناً ، لا يقدر أن يدخل مدخل المتقين ، لكل مكان مقال ، ولكل علم رجال ، للحرب رجال خلقت .



توبوا من نفاقكم!

يا منافقون .. توبوا من نفاقكم وارجعوا من إياكم .. كيف تتركون الشيطان يضحك عليكم ؟ ويشتفي بكم ؟. إن صليتم وإن صمتهم فعلتم ذلك للخلق لا للحق عز وجل ، وهكذا إن صدقتم وزكيتهم وحججتم ، أنتم (عاملة ناصبة) [الغاشية : 3] عن قريب ئصلون (.. نارا حامية) [الغاشية : 4] إن لم تتداركوا وتتوبوا وتعذروا .



يسعكم ما وسع سلفكم

عليكم بالاتباع من غير ابتداع ، عليكم بمذهب السلف الصالح ، امشوا في الجادة المستقيمة .. لا تشبيه ولا تعطيل .. بل اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من غير تكلف ولا تنطع ولا تشدد ، ولا تمشدد ولا تمعقل .. يسعكم ما وسع من كان قبلكم .



لأي شيء تفعل ذلك ؟

ويحك .. تحفظ القرآن ولا تعمل به ، وتحفظ سنة رسول الله ولا تعمل بها .. فلأي شيء تفعل ذلك ؟!
تأمر الناس وأنت لا تفعل ، وتنهاهم وأنت لا تنتهي! ، قال الله عز وجل : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا
تَفْعَلُونَ) [الصف : 3] .



الإيمان هو المقاوم للآفات

الإيمان هو المقاوم للآفات ، هو الصابر تحت ثقلنا ، هو المصارع ، هو المقاتل .



باب الخالق .. وباب الخلق!

من فاته باب الحق عز وجل قعد على أبواب الخلق ، من ضيع خريق الحق عز وجل وضل عنها قعد على
خريق الخلق! .



كن مع الله تكن غنياً

كن مع الله عز وجل تكن غنياً عزيزاً أميراً مؤمراً دليلاً .. من استغنى بالله عز وجل احتاج إليه كل شيء ..
وهذا شيء لا يجيء بالتحلي والتمني ، ولكن بشيء في الصدر وصدقه العمل .



ليكن الخرس دأبك

يا غلام .. ليكن الخرس دأبك والخمول لباسك ، والهرب من الخلق كل مقصودك .. إلى أن يتزعزع إيمانك ،
ويقوى قدم إيقانك ، ويتريش جناح صدقك ، وتنفث عينا قلبك .. فحينئذ أخلق لسانك في الكلام ، وأخلع
لباس الخمول ، وأترك الهرب من الخلق .. فإنك دواء لهم غير مستضر في نفسك .. لا تبالي بقلبتهم وكثرتهم ،
واقبالهم وإدبارهم ، وحمدهم وذمهم .

تادبوا مع ربكم

يا قوم .. اعرفوا الخالق .. وتادبوا بين يديه .. ما دامت قلوبكم بعيدة عنه فانتم سيئو الأدب .. وإذا قربت
حَسُنَ أدبُها .



الظاهر عنوان الباخن!

كل إناء ينضح بما فيه ، أعمالك دلائل على اعتقادك ، ظاهرك دليل على باخنك ، ولهذا قال بعضهم :
الظاهر عنوان الباخن .



تواضع .. تُرفع

إذا تواضعت للصالحين فقد تواضعت لله عزَّ وجلَّ ، تواضع .. فإن من تواضع رفعه الله عزَّ وجلَّ ، أحسن
الأدب بين يدي من هو أكبر منك .



لا تضيع عمرك بحفظ العلم

يا غلام .. قد ضيعت العمر في كتب العلم وحفظه من غير عمل! .



سعة الصدر وخيب القلب

يا غلام .. إن أردت سعة الصدر وخيب القلب فلا تسمع ما يقول الخلق ، ولا تلتفت إلى حديثهم ، أما تعلم
أنهم ما يرضون عن خالقهم فكيف يرضون عنك ؟ أما تعلم أن كثيراً منهم لا يعقلون ولا يبصرون ولا يؤمنون ؟
بل يكذبون ولا يصدقون .



اعرف ربك ولا تكن جاهلا !

يا قوم .. اعرفوا الله ولا تجملوه ، وأخيعوا الله ولا تعصوه ، ووافقوه ولا تخالفوه ،
وارضوا بقضائه ولا تنازعوه ، واعرفوا الحق عز وجل بصنعتة ؛ هو الخالق الرزاق ، الأول والآخر ، والظاهر
والباطن .. الفعال لما يريد .

{ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء : 23].



لا تنسَ العهد

يا غلام .. اعمل بحكمه وعلمه -عز وجل- ولا تخرج عن الخطة ، لا تنسَ العهد ، جاهد نفسك وهواك
وشيطانك وخبعتك ودنياك ، ولا تياس من نصره الله عز وجل .. فإنها تأتيك مع ثباتك ، قال الله عز
وجل : { ... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : 153] . وقال : { ... فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } [المائدة :
56] . وقال : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت : 69]



يا قوم .. انصحوا القرآن

يا قوم .. انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه .. الاعتقاد كلمات بسيرة والأعمال كثيرة .. عليكم بالإيمان
به .. صدقوا بقلوبكم ، واعملوا بجوارحكم .. اشتغلوا بما ينفعكم .. لا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية .



لا يُترك النص بالقياس

يا قوم .. المنقول لا يُستنتج بالعقل .. والنص لا يُترك بالقياس . لا تترك البيئة وتقف مع مجرد الدعوى .

لسانٌ عليّمْ وقلْبٌ جاهلٌ!

لا يَنْفَعُ لسانٌ عليّمْ وقلْبٌ جاهلٌ .. يا علماء يا جهال ، يا حاضرون يا غائبون .. استحيوا من الله عزَّ وجلَّ ، وانظروا بقلوبكم إليه ، ذلّوا له .. واصلّوا الضياء بالظلام في خِجاءته .



وأداوي عبد الدنيا

ما أحبّ النظر إلا لطالبي الآخرة وخالبي الحق عزَّ وجلَّ .. وأما خالِب الدنيا والخلق والذفس إيش أعمل به ؟ .
غير أني أحبّ مداواته لأنه مريض .. لا يصبر على المريض إلا الطبيب .



لا يعرف الإخلاص إلا المرأئي!

الغالب من المخلصين كانوا منافقين ، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه : « لا يعرف الإخلاص إلا المرأئي » .
النادر من كل نادر من يخلص من أول أمره إلى آخره .. الصبيان في أول أمرهم يكذبون ويلعبون بالتراب
والنجاسات ، ويوقعون أنفسهم في المهالك ، ويسرقون من آبائهم وأمهاتهم ، ويمشون بالنميمة ، وكلما
دبَّ العقل فيهم تركوا شيئاً فشيئاً وتادبوا بالآباء والأمهات والمعلمين .



متى يَنْفَعُ الدواء ؟

الله عزَّ وجلَّ خلق الدواء والداء ، المعاصي داء والطاعة دواء .. الظلم داء والعدل دواء .. والخطا داء والصواب
دواء .. ومخالفة الحق عزَّ وجلَّ داء والتوبة من سُكر الذنوب دواء .. إنما يتم لك الدواء إذا فارقت الخلق بقلبك
ووصلته بربك عزَّ وجلَّ .



لا تغتر بحلم الله عنك!

يا غلام .. لا تغتر بحلم الله عز وجل عنك فإن بطشه شديد . لا تغتر بهؤلاء العلماء الجاهل بالله عز وجل ، كل علمهم عليهم لا لهم ، هم علماء بحكم الله عز وجل جهال بالله عز وجل .. يأمرون الناس بأمر ولا يمتثلونه ، وينهونهم عن شيء ولا ينتهون عنه .. يدعون إلى الحق عز وجل وهم يفرون منه!! .



من أنيسك في خلوتك وجلوتك؟!

من أنيسك في الوحدة ؟ من جليستك في الجلوة ؟ يا كذاب .. أنيسك في الوحدة نفسك وشيطانك وهواك والتفكر في دنياك ، وفي الجلوة شياخين الإنس .. الذين هم أقران السوء وأصحاب القيل والقال!.



احذروا ثلاثاً

احذروا من الغيبة .. فإنها تاكل الحسنات كم تاكل النار الحطب .. ما تعودها من أفلح قط ، ومن عُرِف بها قَلَّتْ حرمتُه عند الناس .

واحذروا من النظر بشهوة .. فإنه يزرع المعصية في قلوبكم ، وعاقبته غير محمودة في الدنيا والآخرة .

واحذروا من اليمين الكاذبة .. فإنها تترك الديار بلاقع .. تُذهب بركة الأموال .



دع اليمين الكاذبة!

ويحك .. تنفق مالك باليمين الكاذبة وتخسر دينك! ، لو كان لك عقل لعلمت أن هذه هي الخسارة بعينها ، تقول : والله عز وجل ما في هذه البلدة مثل هذا المتاع ، ولا عند أحد مثله ، والله إنه يسوي كذا وكذا ، وأنه عليّ بكذا وكذا .. وأنت كاذب في كل ما قلته ، ثم تشهد بالزور وتحلف بالله إنك صادق! .



ستؤدبك النار

تادبوا رحمكم الله تعالى بين يدي الحق عز وجل .. من لم يتادب بآداب الشرع أدبته النار يوم القيامة .



أصخور أنتم؟!

يا غلام .. لعل غداً يأتي وأنت مفقود من ظهر الأرض غير موجود ، أو لعل هذا يكون ساعة أخرى .. إيش هذه الغفلة؟! ، ما أقسى قلوبكم! ، صخور أنتم ، أقول لكم وغيري يقول لكم وأنتم على حالة واحدة!! .
القرآن يتلى عليكم ، وأخبار الرسول وسير الأولين تقرأ عليكم ، ولا تتجنبون ولا تتغير أعمالكم! .



المعاصي بريد الكفر

حاسب نفسك قبل مجيء الآخرة ، ولا تغتر بحلم الله عز وجل عنك وكرمه عليك .. المعاصي بريد الكفر ،
كما أن الحمى بريد الموت ، عليك بالتوبة قبل الموت .. قبل مجيء الملك الموكل باخذ الأرواح .



يا شباب .. الكذب نقمة

يا شباب .. توبوا ، أما ترون الحق عز وجل يبتليكم بالبلاء حتى تتوبوا ، وأنتم لا تعقلون وتصرون على
معاصيه ؟ .. الكذب نقمة لا نعمة ، عقوبة للذنوب لا زيادة في الدرجات والكرامات.



الفرج قريب فلا تياس

يا قوم .. لا تياسوا من روح الله عز وجل وفرجه فإنه قريب .. لا تياسوا فإن الصانع الله { ... لا تدري لعل
الله يحدث بعد ذلك أمراً } [الطلاق : 1] .



الصبر أساس لكل خير

لا تهرب من البلاء فإن البلاء مع الصبر أساس لكل خير.. فإذا لم تصبر على البلاء فلا أساس لك .. لا بقاء
لبناء إلا بأساس .. أرايت بيتاً ثابتاً على مزيلة ريوة ؟ .



الجاهل .. كل همه الدنيا

يا غلام .. قَدِّمِ الآخِرَةَ على الدنيا تريحهما جميعاً ، وإذا قدمت الدنيا على الآخرة خسرتهما جميعاً .. عقوبة
لك كيف اشتغلت بما لم تؤمر به .

إذا لم تشغل بالدنيا أمدك الله عز وجل بالمعونة عليها ، ورزقك التوفيق وقت الأخذ منها ، وإذا أخذت
منها شيئاً وُضعت فيه البركة .

المؤمن يعمل لدنياه وآخرته ، يعمل لدنياه بُلَعته ، بقدر ما يحتاج إليه ، يقنعه منها كزاد الراكب ، لا
يُحصل منها الكثير ، الجاهل كل همه الدنيا .



إلى متى إقبالك على الخلق ؟

يا معرضاً عن الحق عزَّ وجلَّ وعن الصديقين من عباده .. مقبلاً على الخلق مشركاً بهم .. إلى متى إقبالك عليهم؟! ، إيش ينفعونك؟ ليس بأيديهم ضرر ولا نفع ، ولا عطاء ولا منع . لا فرق بينهم وبين سائر الجمادات فيما يرجع إلى الضرر والنفع .. المعطي والمانع واحد ، الخالق والرازق هو الله عزَّ وجلَّ .. هو خالق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما .



وأسفا عليكم!

وأسفا عليكم يا خلق الله ، ما تعرفون خالقكم حق معرفته؟! .. وأما أنت يا عالمٌ فمشتغل بالقال والقيل وجمع امال عن العمل بعلمك ، فلا جرم يقع في يدك من الصورة دون المعنى .



إذا أراد الله بعبد خيراً .. علّمه

إذا أراد الله تعالى بعبد من عبده خيراً علّمه ، ثم ألهمه العمل والإخلاص ، ومنه أدناه ، وإليه قرّبه ، وعرفّه وعلّمه علم القلوب .



اغسل نجاسة الذنب بماء التوبة

يا غلام .. لا تياس من رحمة الله عزَّ وجلَّ بمعصية ارتكبتها ، بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها ، وخيّبه وبخّره بطيب المعرفة .

احذر من هذا المنزل الذي أنت فيه ، فإنك كيفما التفت فالسباع حولك ، والأذايا تقصدك ، تحوّل عنه وارجع إلى الحق عزَّ وجلَّ بقلبك ، لا تاكل بطبعك وشهوتك وهواك ، لا تاكل إلا بشاهدين عدلين وهما: الكتاب والسنة .



القلب الطيب هو الحصن

يا غلام .. الدواء في توحيد الله عز وجل بالقلب لا باللسان فحسب ، التوحيد والزهد لا يكونان على الجسد واللسان ، التوحيد في القلب ، والزهد في القلب ، والتقوى في القلب ، والمعرفة في القلب ، والعلم بالحق عز وجل في القلب ، ومحبة الله عز وجل في القلب ، والقرب منه في القلب .

كن عاقلاً لا تنهوس ولا تتصنع ولا تتكلف ، أنت في هوس وتصنع وتكلف وكذب ورياء ونفاق ، كل همك استجلاب الخلق إليك . أما تعلم أنك كلما خطوت بقلبك خطوة إلى الخلق بعدت من الحق عز وجل ؟ تدعي أنك خالب الحق عز وجل وأنت خالب الخلق ! ، مثلك مثل من قال : أريد أن أمضي إلى مكة . وتوجه إلى خراسان فبعد من مكة . تدعي أن قلبك قد خرج من الخلق .. وأنت تخافهم وترجوهم ! ، ظاهرك الزهد وباطنك الرغبة ، ظاهرك الحق - عز وجل - وباطنك الخلق !! .



الموحد حجة الله على الخلق

الموحدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق ، منهم من يتعزى عن الدنيا من حيث ظاهره وباطنه ، ومنهم من يتعزى عنها من حيث باطنه فحسب ، لا يرى الحق عز وجل على بواطنهم منها شيئاً ، تلك القلوب الصافية .



من هو الشجاع ؟

الشجاع من خهر قلبه مما سوى الله عز وجل ، ووقف على بابه بسيف التوحيد وصمصامة الشرع ، لا يخلي شيئاً من المخلوقات يدخل إليه ، يجمع قلبه بمقلب القلوب ، الشرع يهذب الظاهر ، والتوحيد والمعرفة يهذبان الباطن .

يا هذا بين قالوا وقلنا ما يجيء شيء ، تقول : هذا حرام ، وأنت مرتكبه ، وهذا حلال ، وأنت لا تفعله ولا تستعمله !! .



يا مدعي العلم .. أين بكاؤك ؟!

مَثَلُ اللَّهِ عز وجل العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار ، فقال : { ... كَمَثَلِ الْهَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ... } [الجمعة : 5] .

الأسفار هي كتب العلم ، هل ينتفع الحمار بكتب العلم ؟ ، ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب ، من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربه عز وجل وخواعيته له .

يا مدعي العلم! أين بكاؤك من خوف الله عز وجل ؟ أين حذرک وخوفك ؟ أين اعترافك بذبوبك ؟ أين مواصلتك الضياء بالظلام في خاعة الله عز وجل ؟ أين تاديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعدواتها فيه ؟.



يا نياماً لا يُنام عنهم!

يا نياماً لا يُنام عنهم ، يا معرضين لا يُعرض عنهم ، يا ناسين لا يُنسون ، يا تاركين لا يُتركون ، يا جهالاً بالله عزَّ وجلَّ ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن تقدم ومن تاخر ، أنتم كخشب ممدود تُجرَّ لا يصلح لشيء .



أما يكفيك نفاقك؟!

يا منافق! .. خمر الله عزَّ وجلَّ الأرض منك ، ما يكفيك نفاقك حتى تغتاب العلماء والأولياء والصالحين باكل لحومهم! ، أنت وإخوانك المنافقون مثلك ، عن قريب تاكل الديدان ألسنتكم ولحومكم وتقطعكم وتمزقكم ، والأرض تضمكم فتسحقكم وتقلبكم .

لا فلاح لمن لا يحسن ظنه بالله عزَّ وجلَّ وعبادة الصالحين ويتواضع لهم .



لو علمتم لتادبتم

توبوا إلى الله عزَّ وجلَّ واعتذروا إليه ، واعترفوا بذنوبكم بينكم وبينه ، وتضرعوا بين يديه . إيش بين أيديكم؟! ، لو عرفتم لكذمت على غير ما أنتم عليه ، تادبوا بين يدي الحق عزَّ وجلَّ كما كان يتادب من سبقكم .



لا تستهينوا باهل العلم

لا تستهينوا بكلمات الحكماء والعلماء ، فإن كلامهم دواء ، وكلماتهم ثمرة وحي الله عزَّ وجلَّ ، ليس بينكم نبي موجود بصورة حتى تتبعوه ، فإذا تبعتم المتبعين للنبي صلى الله عليه وسلم ، المحققين في اتباعه ، فكانما قد اتبعتموه .



اصحبوا العالم العامل

اصحبوا العلماء املتقين فإن صحبتكم لهم بركة عليكم ، ولا تصحبوا العلماء الذين لا يعملون بعلمهم ،
فإن صحبتكم لهم شؤم عليكم .

إذا صحبت من هو أكبر منك في التقوى والعلم ، كانت صحبتك له بركة عليك ، وإذا صحبت من هو أكبر
منك في السن ولا تقوى له ، ولا علم له ، كانت صحبتك له شؤماً عليك .



العمل لغير الله شرك

اعمل لله عزَّ وجلَّ ولا تعمل لغيره ، اترك له ولا تترك لغيره ؛ العمل لغيره كفر ، والترك لغيره رياء . من لا
يعرف هذا ، ويعمل غير هذا ، فهو في هوس .



ويحك .. صل قلبك بالله

ويحك .. واصل ربك عزَّ وجلَّ وقاخج غيره من حيث قلبك .. صفوا ما بينكم وبين ربكم عزَّ وجلَّ .



لا يفلح من فرق بين غني وفقير

يا غلام .. إن وجدت عندك تفرقة بين الغني والفقير عند إقبالهم عليك فلا فلاح لك .



مواصلتك الفقراء عبادة لله

من مواصلة الحق عزَّ وجلَّ أن تواصل الفقراء بشيء من مالك ، أما علمت أن الصدقة معاملة مع الحق عزَّ
وجلَّ الذي هو غني كريم ؟ ، وهل يعامل الغني الكريم من يخسر ؟ .

تنفق لوجه الله عزَّ وجلَّ ذرة يعطيك جبلاً ، تنفق قطرة يعطيك بحراً .



كُنْ مع الله تَر اللهَ معكَ

يا قوم .. إذا عاملتم الحق عزَّ وجلَّ يزكو زرعكم ، وتجري أنهاركم ، ويورق ويغصن ويثمر شجركم ، مُرُوا بالمعروف وانهموا عن المنكر ، وانصروا دين الله عزَّ وجلَّ وعادوا فيه الصديق .



إذا صح القلب

إذا صح القلب امتلأ رحمة وشفقة على الخلق .



من علامات الصديق

الصديق يترك الكبائر والصغائر ، ثم يدقق ورعه بترك الشهوات ثم المباح المشترك ، ويطلب الحلال المطلق.



أصل البلاء وأصل الدواء

اسمع قول بعضهم رحمة الله عليه ؛ كن في الدنيا كمن يداوي جرحه ويصبر على مرارة الدواء رجاء لزوال البلاء ؛ كلُّ البلايا والأمراض من شركك بالخلق ورؤيتهم في الضر والنفع والعطاء والمنع ، وكلُّ الدواء وزوال البلاء في الخروج عن الخلق من قبلك ، وعزمك عند نزول الأقضية والأقدار ، وأن لا تطلب الرياسة على الخلق والعلو عليهم ، وأن يتجرد قلبك لربك عزَّ وجلَّ .



المؤمن يتزود والكافر يتمتع !

المؤمن يتزود والكافر يتمتع ؛ المؤمن يتزود لأنه على خريق يقنع باليسير من ماله ويقدم الكثير إلى الآخرة ، يترك لنفسه بقدر زاد الراكب .. بقدر ما يحمله .. كل ماله في الآخرة ، كل قلبه وهمته هناك .. هو منقطع القلب

هناك من الدنيا .. يبعث جميع خباياه إلى الآخرة لا إلى الدنيا وأهلها .. إن كان عنده خعام خيب يؤثر به الفقراء ،
يعلم أنه في الآخرة يُطعمُ خيراً منه .



ويحك .. جسدك يتحرك وقلبك ساكن!

إنني أراك في قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وسهر وتعب .. وقلبك لا يبرح من مكانه ، ولا يخرج عن بيت
وجوده ، ولا يتحول عن عادته .

اصدق في خلب مولاك عزَّ وجلَّ ، وقد أغناك صدقك عن كثير من التعب ، أنقر بيضة وجودك بمنقار
صدقك ، وانقض حيطان رؤيتك للخلق والتقيدهم بمعاول الإخلاص وتوحيدك .

اكسر قفص خلبك للأشياء بيد زهدك فيها ، وخز بقلبك حتى تقع على ساحل قريبك من ربك عزَّ وجلَّ.



قللوا حرصكم .. قصرُوا آمالكم !

هذه الدنيا بحرٌ ، والإيمان سفينتها .. يا مصريين على المعاصي!! .. عن قريب ياتيكم العمى والصمم والزمن
والفقر ، وقساوة قلوب الخلق عليكم .. تذهب أموالكم بالخسارات والمصادرات والسرقات . كونوا عقلاء .. توبوا
إلى ربكم عزَّ وجلَّ .. لا تشركوا بأموالكم وتتكلموا عليها .. لا تقفوا معها .. أخرجوها من قلوبكم واجعلوها في
بيوتكم وجيوبكم .. ومع غلمانكم ووكلائكم .. وارقبوا الموت .. قللوا حرصكم وقصرُوا آمالكم .



إذا تاب القلب تابت الجوارح

يا غلام .. ارجع بقلبك إلى الله عزَّ وجلَّ .. التائب إلى الله هو الراجع إليه ، وقوله عزَّ وجلَّ : { وَأَنذِبُوا إِلَى
رَبِّكُمْ ... } [الزمر : 54] . أي : ارجعوا إلى ربكم ، يعني : ارجعوا .. سلموا الكل إليه .



علمٌ بلا صدق ضلال على علم !

إيش ينفعك علم بلا صدق؟! .. قد أضلك الله على علم .. تتعلم وتصلّي وتصوم للخلق حتى يفروا إليك ،
ويبدلوا لك أموالهم ، ويمدحوك في بيوتهم ومجالسهم .

قدّر أنه يحصل لك هذا منهم .. فإذا جاءك الموت .. يحال بينك وبينهم ، ولا يغنون عنك شيئاً .. وما
حصلته من أموالهم يأكله غيرك والعقوبة والحساب عليك!! .



في قلبك جماعة من الآلهة !

يا غلام .. ما أنت على شيء .. الإسلام ما صح لك .. الإسلام هو الأساس الذي يبنى عليه . الشهادة ما تمت
لك. تقول : لا إله إلا الله .. وتكذب!.

في قلبك جماعة من الآلهة : خوفك من سلطانك ووالي محلّتك آلهة ، اعتمادك على كسبك وربحك وحولك
وقوتك وسمعك وبصرك وبطشك آلهة ، رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة . كثير من الخلق
متكلمون على هذه الأشياء بقلوبهم ويظهرون أنهم متكلمون على الحق عز وجل . قد صار ذكرهم للحق عز وجل
عادة بالسنتهم لا بقلوبهم .. فإذا حُوققوا في ذلك حردوا ، وقالوا : كيف يقال لنا هكذا؟! .. ألسنا مسلمين؟!
غداً تبين الفصائح وتظهر المخبات!! .



القلب هو المؤمن

ويحك .. القلب هو المؤمن ، هو الملوحد ، هو المخلص ، هو الملتقي ، هو الورع ، هو الزاهد ، هو الموقن ..
هو الأمير .. ومن سواه جنوده وأتباعه .

إذا قلت : لا إله إلا الله . فقل أولاً بقلبك ثم بلسانك ، واتكل عليه واعتمد عليه دون غيره . اشغل ظاهرك
بالحكم وبإخنتك بالحق عز وجل . اترك الخير والشر على ظاهرك ، واشتغل بإخنتك مع خالق الخير والشر ، من
عرفه ذل له .. وتواضع له ولعبادة الصالحين ، وتضاعف همه وغمه وبكاؤه ، وكثر خوفه ووجله ، وكثر حياؤه ،
وكثر ندمه على ما تقدم من تفريط ، وتشدد حذره وخوفه من زوال ما عنده من المعرفة والعلم.



الدنيا تطيب بعد إهانتها

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : أهينوا الدنيا ، فإنها والله لا تطيب إلا بعد إهانتها .



الدنيا تُفرح الجاهل!

الجاهل يفرح في الدنيا .. والعالم يغتم فيها . الجاهل يناظر القدر وينازعه .. والعالم يوافقه ويرضى . يا
مسكين ! لا تُناظر القدر وتُشاققه فتهلك .



ويحك .. اعرف قدر نفسك !

ويحك .. اعرف قدرك .. أنت كل همك الأكل والشرب واللبس والزكاح وجمع الدنيا والحرص عليها .. عمّال في
أمور الدنيا بطل في أمور الآخرة !! .



المؤمن يعمل لآخرفته

المؤمن له نية صالحة في جميع تصاريفه .. لا يعمل في الدنيا للدنيا .. يبني في الدنيا للآخرة ، يعمر المساجد
والقناطر والمدارس والربط ، ويهذب خرق المسلمين ، وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء .. وما لا بد
منه ، يفعل ذلك حتى يُبنى له في الآخرة بدله .. لا يبني لطبعه وهواه ونفسه .



الذاكر لله حيّ أبداً

الذاكر لله عزّ وجلّ أبداً حيّ .. ينتقل من حياة إلى حياة .. إذا تمكن الذكر في القلب دام ذكر العبد لله عزّ وجلّ وإن لم يذكره بلسانه .. كلما دام العبد في ذكر الله عزّ وجلّ دامت موافقته له ورضاه بأفعاله .



عطاء ربك عارية عندك

ويحك .. تعمل عمل أهل النار وترجو الجنان!! ، فانت خامع في غير موضع الطمع .. لا تغتر بالعارية وتظنّها لك .. عن قريب تؤخذ منك .. الحق عزّ وجلّ قد أعارك الحياة حتى تطيعه فيها .. حسبتها لك وعملت فيها ما أردت!! ، وكذلك العافية عارية عندك ، وكذلك الغنى عارية عندك ، وكذلك الأمن والجاه .. وجميع ما عندك من النعم .. عارية عندك .. لا تفرط في هذه العواري فإنك تطالب بها ، وتسأل عنها وعن كل شيء منها .. جميع ما عندكم من النعم من الله عزّ وجلّ .. فاستعينوا بها على الطاعة .



وافق الحق في الخلق

عن بعضهم أنه قال : وافق الحق عزّ وجلّ في الخلق .. ولا توافق الخلق في الحق .. انكسر من انكسر وانجبر من انجبر .. تعلموا موافقة الحق عزّ وجلّ من عباده الصالحين الموافقين .



أنت قفص بلا خائن

يا غلام .. أراك قليل المعرفة بالله عزَّ وجلَّ وبرسوله صلى الله عليه وسلم .. أنت قفص بلا خائن ، بيت فارغ خراب ، شجرة قد يبست وتناثر ورقها .

عمارة قلب العبد بالإسلام ، ثم بالتحقيق في حقيقته ، وهي : الاستسلام .



يا جاهل .. ما لك ولهذا ؟!

يا جاهل ما لك ولهذا ؟ ، أنت عبد نفسك ودنياك وهواك ، أنت عبد الخلق مشرك بهم ، لأنك تراهم في الضر والنفع .



لا تغتر بطاعتك

يا غلام .. لا تغتر بطاعتك وتعجب بها ، اسأل الحق سبحانه وتعالى قبولها ، وخف واحذر أن ينقلك إلى غيرها .. من عرف الله عزَّ وجلَّ لا يقف مع شيء ولا يغتر بشيء ، لا يامن حتى يخرج من الدنيا على سلامة دينه وحفظ ما بينه وبين الله عزَّ وجلَّ .



عليكم بأعمال القلوب

يا قوم .. عليكم بأعمال القلوب وإخلاصها للإخلاص الكامل مما سوى الله عزَّ وجلَّ . ومعرفة الله عزَّ وجلَّ هي الأصل ، ما أرى أكثركم إلا كذابين في الأقوال والأفعال في الخلوات والجلوات ، ما لكم ثبات! ، لكم أقوال بلا أفعال ، وأفعال بلا إخلاص ولا توحيد !! .



انفوا ثم أثبتوا

انفوا ثم أثبتوا ، انفوا عنه - تعالى - ما لا يليق به ، وأثبوا له ما يليق به ، وهو
ما رضىه لنفسه ورضيه له رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم



هذا عاقبة حب الدنيا!

دنياكم قد أعمت قلوبكم فما تبصرون بها شيئاً ، احذروا منها فهي تمكنكم من نفسها تارة بعد أخرى حتى
تستدرجكم .. وفي الأخيرة تذبحكم ، تسقيكم من شرابها وينجها ثم تقطع أيديكم وأرجلكم وتسلم أعينكم .
فإذا ذهب البنج وجاءت الإفاقة رأيتم ما صنعت بكم ، هذا عاقبة حب الدنيا ، والعدو خلفها ، والحرص عليها
وعلى جمعها .. هذا فعلها فاحذروا منها .



حظوظ القلب وحظوظ النفس

يا غلام .. حظوظ القلب باخنة ، وحظوظ النفس ظاهرة ، فحظوظ القلب لا تأتي إلا بعد منع النفس
حظوظها ، فإذا امتنعت انفتحت أبواب حظوظ القلب ، حتى إذا استغنى القلب بحظوظه من الحق عز وجل
جاءت الرحمة للنفس ..

دع مجالسة من يرغبك في الدنيا واخلب مجالسة من يزهّدك فيها .. الجنس يميل إلى الجنس .. يطوف
بعضهم على بعض ..



التعاون ثمرة الحب في الله

المحبون لله يتحابون فيه ، فلا جرم يحبهم ويؤيدهم ويشد بعضهم ببعض .. يتعاونون على دعوة الخلق ،
يدعونهم إلى الإيمان والتوحيد والإخلاص في الأعمال ، يأخذون بأيديهم ويوقفونهم على خريق الحق عز
وجل .. من خدّم خدّم ، ومن أحسن يُحسن إليه ، ومن يعطي يُعطى .



ما العمل بغير مواخاة القلب؟!

أعمالكم عمالكم ، تعمل عمل أهل النار وترجو من الله عز وجل الجنان ، كيف تتمنى الجنة من غير عمل أصحاب الجنة؟! . أرباب القلوب في الدنيا الذين عملوا بقلوبهم لا بجوارحهم فحسب . العمل بغير مواخاة القلب إيش يعمل؟! . امرائي يعمل بجوارحه ، وامخلص يعمل بقلبه وجوارحه .. يعمل بقلبه قبل جوارحه .



عمل المؤمن وعمل المنافق

المؤمن حي والمنافق ميت ، والمؤمن يعمل لله عز وجل ، والمنافق يعمل للخلق ويطلب منهم المدح والعطاء على عمله ، عمل المؤمن في ظاهرة وباطنه ، في خلوته وجلوته ، في السراء والضراء ، وعمل المنافق في جلوته فحسب ، عمله عند السراء فإذا جاءت الضراء لا عمل له ، لا صفة له لله عز وجل ، لا إيمان له بالله عز وجل وبرسله وكتبه ، لا يذكر الحشر والنشر والحساب ، إسلامه ليسلم رأسه وماله في الدنيا لا ليسلم في الآخرة من النار .. يصوم ويصلي ويقرأ العلم بحذاء الناس ، فإذا خلا عنهم رجع إلى شغله وكفره .



ارفع بصرك عن عملك

يا غلام .. عليك بالإخلاص في الأعمال ، ورفع بصرك عن عملك ، وخليب العوض عليه من الخلق .



أكثر أنهارك اليوم

يا من يريد الجنة .. شراؤها وعمارتها اليوم لا غداً ، أكثر أنهارك وأجر الماء فيها اليوم لا غداً .



تذكروا { يوم يعرض الظالم على يديه }

يا قوم .. يوم القيامة تنقلب القلوب والأبصار ، يومٌ تزل فيه الأقدام ، كلُّ واحد من المولفين يقوم على قدم إيمانه وتقواه ، ثبات الأقدام على قدر الإيمان ، في ذلك اليوم : { ... يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ... } [الفرقان : 27] كيف ظلم ، ويعض المفسد على يديه كيف أفسد ولم يصلح ، كيف أبق من مولاه!! .



الأعمال بخواتيمها

يا غلام .. لا تغتر بعمل فإن الأعمال بخواتيمها . عليك بسؤال الحق عزَّ وجلَّ أن يصلح خاتمتك ويقبضك على أحب الأعمال إليه .. إياك ثم إياك إذا ثبت أن تنقض ثم ترجع إلى المعصية ، لا ترجع عن توبتك بقول قائل .. لا توافق نفسك وهواك وخبعتك وتخالف مولاك عزَّ وجلَّ .. إذا عصيت الحق عزَّ وجلَّ يخذلك ولا ينصرَكَ .

اللهم انصرنا بطاعتك ولا تخذلنا بمعصيتك .



أي الجهادين أشق ؟

قد أخبرك الله عز وجل بجهادين : ظاهر وباطن :

فالباطن جهاد النفس والهوى والطبع والشیطان ، والتوبة عن المعاصي والزلات والثبات عليها ، وترك الشهوات المحرمات .

والظاهر جهاد الكفار المعاندين له -عز وجل- ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم ، يَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ .

فالجهد الباطن أصعب من الجهاد الظاهر ، لأنه لازم متكرر ، وكيف لا يكون أصعب من الجهاد الظاهر وهو : قطع مالوفات النفس من المحرمات وهجرانها ، وامتنثال أوامر الشرع والانتهاء عن نهيه ؟! .

فمن امتثل أمر الله عز وجل في الجهادين حصلت له المجازاة دنيا وآخرة ، الجراحات في جسد الشهيد كالفصد في يد أحدكم لا ألم لها عنده .. والموت في حق المجاهد لنفسه التائب من ذنوبه ، كشرب العطشان للماء البارد .



ما أكسلكم في الطاعة وأقواكم في المعصية!!

يا قوم .. آمنوا بهذا القرآن ، واعملوا به ، وأخلصوا في أعمالكم .. لا تراءوا

ولا تنافقوا في أعمالكم ، ولا تطلبوا الحمد من الخلق والأعواضَ عليها منهم .. أحاداً أفراداً من الخلق يؤمنون بهذا القرآن يعملون به لوجه الله عز وجل ! .. ولهذا قلّ المخلصون وكثر المنافقون .. ما أكسلكم في خيعة الله عز وجل وأقواكم في خيعة عدوه وعدوكم الشيطان الرجيم !! .



كن صحيحاً تكن فصيحاً

يا غلام .. كن صحيحاً تكن فصيحاً ؛ كن صحيحاً في الحكم تكن فصيحاً في العلم .. كن صحيحاً في السر تكن فصيحاً في العلانية .. كل السلامة في خيعة الحق عز وجل ، وهي امتثال جميع ما أمر به ، والانتهاء عن جميع ما نهى عنه ، والصبر على جميع ما قضى به .. من استجاب لله عز وجل أجابه .



يا قليل التدبير كن عوناً للفقير

إذا أحببت لنفسك : أخايب الأخمة ، وأحسن الكسوة ، وأخيب المنازل ، وأحسن الوجوه ، وكثرة الأموال .. وأحببت لأخيك المسلم بالصد من ذلك .. فقد كذبت في دعواك كمال الإيمان .

يا قليل التدبير! لك جار فقير ، ولك أهل فقراء ، ولك مال عليه زكاة ، ولك ربح : كل يوم ربح فوق ربح ، ومعك قدر يزيد على قدر حاجتك إليه .. فَمَنْعُكَ لَهُم عن العطاء هو الرضى بما هم فيه من الفقر .. ولكن إذا كان نفسك وهواك وشيطانك وراءك ، فلا جرم لا يسهل عليك فعل الخير .. معك قوة حرص ، وكثرة أمل ، وحب الدنيا ، وقلة تقوى وإيمان .. أنت مشرك بك وبمالك وبالخلق ، وما عندك خير .

من كثرت رغبته في الدنيا ، واشتد حرصه عليها ، ونسي الموت ولقاء الحق عز وجل ، ولم يفرق بين الحلال والحرام .. فقد تشبه بالكفار الذين قالوا : { ... مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ... } [الجاثية : 24] .



تصوم نهارك وتعصي ليلك!

يا قوم .. إيش ينفعكم الجوع والعطش بالنهار والإفطار على الحرام بالليل؟! .. تصومون بالنهار وتعصون بالليل .. يا أكلة الحرام أنتم تمنعون نفوسكم شرب الماء بالنهار ثم تفطرون على دماء المسلمين .. ومنكم من يصوم بالنهار ويفسق بالليل!! .



لا تاكل وحدك!

يا غلام .. صم وإذا أفطرت واس الفقراء بشيء من إفطارك .. لا تاكل وحدك ، فإن من أكل وحده ولم يطعم يُخاف عليه من الفقر والكدية .



أتشبعون وجيرانكم جياع؟!!

يا قوم .. تشبعون وجيرانكم جياع ، وتدعون أنكم مؤمنون !! .. ما صح إيمانكم . يكون بين يدي أحدكم خعام كثير يفضل عنه وعن أهله ، ويقف السائل على بابه ويُردُّ خائباً! . عن قريب تبصر خيرك .. عن قريب تصير مثله ، وتُردُّ كما رددته مع القدرة على عطاءه .



اجمع التواضع إلى العطاء

ويحك .. هلا قمت وأخذت ما بين يديك وأعطيته .. تجمع بين الحالين : التواضع في قيامك والعطاء من مالك .. واسِ الخلق اليوم حتى يواسيك الحق عزَّ وجلَّ غداً برحمته ، ارحم من في الأرض حتى يرحمك من في السماء .. ما دمت قائماً مع نفسك لا تصل إلى هذا المقام .. ما دمت توصل إليها حظوظها فانت في قيدها .. وفُها حقها وامنعها حظها ، بإيصال الحق إليها بقاؤها ، وإيصال الحظ إليها هلاكها .. حقها ما لا بد من الطعام واللباس والشراب وموضع تسكن فيه .. وحظها اللذات والشهوات . خذ حقها من يد الشرع .. أخضعها المباح لا الحرام .. أقعد على باب الشرع وألزمها بخدمته وقد أفلحت .



اقنع ولن يفوتك رزق!

اقنع باليسير ووخِّن نفسك عليه ، فإن جاء الكثير من يد السابقة والعلم كنت فيه ، إذا قنعت باليسير ما تهلك نفسك ، ولا يفوتها ما قسم لها . كان الحسن البصري رحمة الله عليه يقول : « يكفي المؤمن ما يكفي العنيزة : كف من حشفٍ وشربة ماء! » . المؤمن يتقوّت والمنافق يتمتع ، المؤمن يتقوّت لأنه في الطريق ما وصل إلى المنزل ، والمنافق لا منزل له لا مقصد له .

ما أكثر تفريطكم في الأيام والشهور؟! ، تقطعون الأعمار بلا نفع! ، أراكم لا تفرخون في دنياكم وتفرخون في أديانكم ، اعكسوا تصيبوا ، الدنيا ما بقيت على أحد ، وهكذا لا تبقى عليكم .



أمعكم توقيع بالحياة؟!

يا قوم .. أمعكم توقيع من الحق عزَّ وجلَّ بالحياة؟! . ما أقل تدبيركم! ، من يعمر دنيا غيره بخراب آخرته يجمع الدنيا لغيره بتفرق دينه ، ويوقع بينه وبين الحق عزَّ وجلَّ وسخطه عليه لرضا مخلوق مثله ، لو علم وتيقن أنه ميت عن قريب ، حاضر بين يدي الحق عزَّ وجلَّ ، وأنه محاسب عن جميع تصرفاته لأقصر عن كثير من أعماله ..

أحذركم وأنهاكم ، ولا تحذرون ولا تنتهون ، يا غائبين عن الخير ، مشغولين بالدنيا ، عن قريب تشب عليكم الدنيا تخذلكم ولا ينفعكم ما جمعتموه من يدها ، ولا ما تلذذتم بها ، بل يكون جميع ذلك وبالاً عليكم .



للکلمات أخوات .. فاحذرا!

يا غلام .. عليك بالاحتمال وقطع الشر ، للکلمات إذا كلمك واحد منهم كلمة ثم أجبتة عنها جاءت أخواتها ، ثم يحضر الشر بينكما! .



الدعاة الهداة قليلون

أحاذ أفراد من الخلق يؤهلون لدعوة الخلق إلى باب الحق عزَّ وجلَّ ، وهم حجة عليهم إن لم يقبلوا منهم ، هم نعمة على المؤمنين نعمة على المنافقين أعداء دين الله عزَّ وجلَّ .



لا تسمنوا نفوسكم فتاكلکم

لا تسمنوا نفوسكم فإنها تاكلکم ؛ كمن ياخذ كلباً ضارياً فيربيه ويسمنه ، ويخلو معه ، فلا جرم يأكله. لا تطلقوا أعنة النفوس ، وتحذوا سكاكينها ، فإنها ترميكم في أودية الهلاك وتخدعكم ، اقطعوا موادها ولا تطلقوها في شهواتها .



نفوسكم تدعي الإلهية

يا قوم .. نفوسكم تدعي الإلهية وما عندكم خبر ، لأنها تتجبر على الحق عز وجل ، وتريد غير ما يريد ..
وإذا جاءت أقضيته لا توافق ولا تصبر ، بل تعارض وتنازع! ، ما عندها من الاستسلام خبر ، قد قنعت باسم
الإسلام ، وهذا لا ينفعها .



يا غلام .. لازم الخوف

يا غلام .. لازم الخوف ، ولا تامن حتى تلقى ربك عز وجل .. ويوضع توقيع الأمان في يديك ، حينئذ
ينبغي لك أن تامن ..
الحق عز وجل إذا اصطفى عبداً قربه وأدناه ، وكلما غلب عليه الخوف ألقى عليه ما يزيل ذلك ويُسكن قلبه .



ويحك يا جاهل!

ويحك يا جاهل ، تعرض عن الحق عز وجل ، وتخلّيه وراء ظهرك ، وتشتغل بخدمة الخلق !! .



إلى متى تشتغل بالدنيا والخلق؟!

تواصلون الضياء بالظلام في الكد على النفوس التي هي عدوتكم ، وتُرضون أزواجكم بسخط ربكم عز وجل
، كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق عز وجل .

إنني أرى حركاتك وسكناتك وكل همك لنفسك وزوجتك وولدك ، وما عندك من الحق عز وجل خبر !! .

في فتيتك زجاج مكسّر!

ويحك! في فتيتك زجاج مكسر وأنت تأكله ولا تعلم به ، لقوة شرهك ، وشدة حرصك! . بعد ساعة تقطع معدتك وتهلك ، كل بلائك لبعذك عن مولك عز وجل واختيارك لغيره .



لا تؤذ أحداً إلا أن تؤمر

يا غلام .. اجهد أنك لا تؤذي أحداً ، وأن تكون نيتك صالحة لكل أحد ، إلا من أمرك الشرع بأذيته ، فاذيتك له عبادة .



يا أهل هذه البلدة!

يا أهل هذه البلدة! قد كثر النفاق فيكم وقلّ الإخلاص ، وقد كثرت الأقوال بلا أعمال ، قول بلا عمل لا يسوى شيئاً ، بل هو حجة لا محجة ، القول بلا عمل كدار بلا باب ولا مرافق ، كنز لا يُنفق منه ، هو مجرد دعوى بلا بينة ، صورة بلا روح ، صنم لا يدان له ولا رجلان ولا بطش! . معظم أعمالكم كجسد بلا روح، الروح هو الإخلاص والتوحيد والثبات على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا تغفلوا اعكسوا تصيبوا.



لا تحقروا أحداً من المسلمين!

لا تحقروا أحداً من المسلمين! فإن أسرار الحق عز وجل مبلورة فيهم ، تواضعوا في أنفسكم ولا تنكبروا على عباد الله عز وجل .



ما هذا الاغترار العظيم؟!

تنهبوا من غفلاتكم! ما أنتم إلا في غفلة عظيمة ، كأنكم حوسبتم .. وعبرتم الصراط .. ورأيتم منازلكم في الجنة .. ما هذا الاغترار العظيم؟! . كل واحد منكم قد عصى الله عز وجل معاصي كثيرة ، وهو لا يتفكر فيها

ولا يتوب منها ، ويظن أنها قد نُسيِت! . هي مكتوبة في صحائفكم بتواريخ أوقاتها ، يحاسب ويعاقب على القليل والكثير منها .

استيقظوا يا غفل! انتبهوا يا نيام! تعرّضوا لرحمة الله عزّ وجلّ .



من مفسد الحرص

ويحك .. الرزق مقسوم لا يزيد ولا ينقص ، ولا يتقدم ولا يتأخر ، أنت شكّ في ضمان الحق عزّ وجلّ ، حريصٌ على خلب ما لم يقسم لك ، حرصك قد منعك من الحضور عند العلماء ومشاهد الخير ، تخاف أن تنقص أرباحك وأن يقل زبونك !! .



إلهك مَنْ خِفْتَهُ ورجوته

ويحك! من أخعمك وأنت خفل في بطن أمك؟! . أنت معتمد عليك وعلى الخلق وعلى دنائيرك ودراهمك ، وعلى بيعك وشرائك ، وعلى سلطان بلدك! . كل من اعتمدت عليه فهو إلهك ، وكل من خفته ورجوته فهو إلهك ، كل من رأيتَه في الضر والنفع ولم تر أن الحق عزّ وجلّ يجزي ذلك على يديه فهو إلهك .

عن قليل ترى خبرك ، ياخذ الحق عزّ وجلّ منك سمعك وبصرك وبطشك ومالك وجميع ما اعتمدت عليه دونه ، ويقطع بينك وبين الخلق ، ويُقسّي قلوبهم عليك ، ويقبض أيديهم عنك ، ويعزلك عن شغلك ، ويغلق الأبواب في وجهك ، يرددك من باب إلى باب ولا يعطيك لقمة ولا ذرة ، وإذا دعوته فلا يجيبك .

كل ذلك لشركك به واعتمادك على غيره ، وخلبك نعمة من غيره واستعانتك بها على معاصيه!! .

هذا قد رأيتَه جى على كثير من هذا الجنس ، وهو الأغلب في العاصين ، ومنهم من يتدارك الأمر بالتوبة ، فيقبل الحق عزّ وجلّ توبته ، وينظر إليه بالرحمة ، ويعامله بالكرم واللطف .

يا خلق الله توبوا! يا علماء يا فقراء يا زهاد يا عبّاد .. ما منكم إلا من يحتاج إلى توبة .



يا غلام! خهّر قلبك

يا غلام .. احذر أن يرى الحق عزَّ وجلَّ في قلبك غيره فتنتهك ، احذر أن يرى في قلبك خوفَ غيره أو رجاءَ غيره أو حبَّ غيره . خهروا قلوبكم من غيره لا تروا الضر والنفع إلا منه .



من عرف الله دلَّ عليه

من كملت معرفته لله عزَّ وجلَّ صار دالاً عليه ، يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا ، ويعطى القوة حتى يهزم إبليس وجنده ، ياخذ الخلق من أيديهم .



لا تعتزل بزهد مع جهل!

يا من اعتزل بزهد مع جهله تقدم واسمع ما أقول : يا زهاد الأرض تقدموا ، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل ، ما وقعتم بشيء ، تقدموا والقطوا ثمار الحكَمِ رحمكم الله .



من نظر النعمة شكر المنعم

يا قوم .. قد غذاكم بنعمه وأنتم في بطون أمهاتكم وبعد خروجكم منها ، ثم أعطاكم العوافي والقوى والبطش ، ورزقكم خايعته وجعلكم مسلمين متبعين لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إذا رأيتم النعم منه ، زالت محبة الخلق من قلوبكم .



ويحك .. خلوتك بلا معنى!

ويحك .. تقعد في صومعتك وقلبك في بيوت الخلق منتظر ملجئهم وهداياهم ، ضاع زمانك وجعلت لك الصورة بلا معنى .. إذا لم يكن لك باخن صحيح وقلب خال عما سوى الحق عزَّ وجلَّ وإلا فمجرد الخلوة لا ينفعك .



اخرج كالشعرة من العجين!

من أراد الفلاح فليبذل نفسه وماله للحق عزَّ وجلَّ ، ويخرج بقلبه من الخلق والدنيا كخروج الشعرة من العجين واللبن .



عِظِ النَّاسَ بِحَالِكَ قَبْلَ قَالِكَ!

عن الحسن البصري رحمه الله أنه كان يقول : « عِظِ النَّاسَ بِعِلْمِكَ وَكَلَامِكَ ، يَا وَاعِظًا عِظِ النَّاسَ بِصَفَاءِ سِرِّكَ وَتَقْوَى قَلْبِكَ ، وَلَا تَعْظُمُهُمْ بِتَحْسِينِ عِلَانِيَتِكَ مَعَ قُبْحِ سِرِّيَّتِكَ » .



أَلَا يَسْعَكُمْ مَا وَسِعَ الْأَوَائِلُ؟!

أما تستحون .. يصف الحق عزَّ وجلَّ نفسه بصفات يرضاها له تتاولونها وتردونها عليه ؟ ما وسعكم ما وسع من تقدمكم من الصحابة والتابعين ، ربنا عزَّ وجلَّ على العرش كما قال من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم .

اللهم ارزقنا ووقفنا وجنبنا الابتداع .



كيف أخرج الدنيا من قلبي؟!

سال سائل : كيف أخرج حب الدنيا من قلبي ؟ فقال : انظر إلى قلبها باربابها وأبنائها ، كيف تحتال عليهم وتلهي بهم ، وتُعدِّيهم خلفها ، ثم ترقيهم من درجة إلى درجة حتى تعليهم على الخلق وتمكنهم من رقابهم ، وتظهر كنوزها وعجائبها ، فبينما هم فرحون بعلوهم وتمكنهم وخيبة عيشهم وخدمتها لهم ، إذا أخذتهم وقيدتهم وغرتهم ، ورمت بهم من ذلك العلو على رؤوسهم ، فتقطعوا وتمزقوا وأهلكوا ، وهي واقفة تضحك بهم ، وإبليس إلى جنبها يضحك معها .

هذا فعلها بكثير من السلاخين والملوك والأغنياء ، من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ، بذلك ترفع ثم تضع ، تقدم ثم تؤخر ، تغني ثم تفقر ، تدني ثم تذبح . والناذر منهم من يسلم منها ، ويغلبها ولا

تغلبه ، ويُعان عليها ويسلم من شرها ، وهم آحاد وأفراد . إنما يسلم من شرها من عرفها واشتد حذره منها
ومن حيلها .

يا سائل .. إن نظرت بعيني قلبك إلى عيوبها قدرت على إخراجها منه ، وإن نظرت إليها بعيني رأسك
اشتغلت بزینتها عن عيوبها ، ولم تقدر على إخراجها من قلبك والزهد فيها ، وتقتلك كما قتلت غيرك!! .
جاهد نفسك حتى تطمئن ، فإذا اخمانت عرفت عيوب الدنيا وزهدت فيها .



تبرأ من النفاق!

المنافق إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتّمن خان . من بريء من هذه الخصال التي ذكرها النبي
صلى الله عليه وسلم فقد بريء من النفاق .

هذه الخصال هي الملحك والفرق بين المؤمن والمنافق ، خذ هذا الملحك وهذه المرأة وأبصر بها وجه قلبك ..
انظر هل أنت مؤمن أو منافق .



اجعل دنياك آخرة

كل الدنيا فتنة ومشغلة إلا ما أخذ بنية صالحة للآخرة ، إذا صلحت النية في التصرف في الدنيا صارت آخرة .



قيدوا النعم بالشكر

قيدوا نعم الحق عز وجل بشكركم .. الشكر للحق عز وجل شيئان :

الأول : الاستعانة بالنعم على الطاعات والمواساة للفقراء منها .

والثاني : الاعتراف بها للمنعم بها والشكر لمنزلها وهو الحق عز وجل .



كل ما شغلك عن الله شؤم

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال : كل ما يشغلك عن الله عز وجل فهو عليك مشؤوم .. إذا شغلتك

نعمه عنه فهي عليك مشؤومة .



يا من له ألف معبود!

قلبك لا يوافق لسانك ، فعلك لا يوافق قولك ، قل الله أكبر ألف مرة بقلبك ومرة بلسانك ، ما تستحي أن

تقول لا إله إلا الله ولك ألف معبود غيره! . تب إلى الله عز وجل من جميع ما أنت فيه .

وأنت يا من يعلم العلم وقد قنع منه بالاسم دون العمل ، إيش ينفعلك إذا قلت : أنا عالم ، فقد كذبت ،

كيف ترضى لنفسك أنك تامر غيرك بما لا تعمله أنت!



ويحك .. تامر بالتوحيد وتشرك!

ويحك .. تامر الناس بالصدق وأنت تكذب ، تامرهم بالتوحيد وأنت مشرك ، تامرهم بالإخلاص وأنت مرء منافق ، تامرهم بترك المعاصي وأنت ترتكبها ، قد ارتفع الحياء من عيذك ، لو كان لك إيمان لاستحييت، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ » -رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح- .
لا إيمان لك ولا إيقان لك ولا أمانة ، خنت العلم فذهبت أمانتك ، وكُتبت عند الله خواناً ، لا أعرف لك دواء إلا التوبة والثبات عليها .



لا تتعود البطالة والكسل!

لا تتعود البطالة والكسل عن خِاعة الحق عزَّ وجلَّ فإنه يبتليك عقوبة .. إلى متى تشتغل بنفسك وأهلك عن الحق عزَّ وجلَّ؟! .



عليك بالقناعة فإنها خوق النجاة

عَلِّمُ أولادك الصنائع وتفرغ لعبادة الله عزَّ وجلَّ ، فإن الأهل والولد لا يغنون عنك من الله شيئاً ، ألزم نفسك وأهلك وولدك القناعة بما لا بد لك منه ، وتفرغ أنت وهم لطاعة مولاكم عزَّ وجلَّ ، فإن كان لكم في الغيب سعة الرزق فهي تأتي في وقتها المقدر عند الله ، تراها من الحق عزَّ وجلَّ ، وتتخلص من الشرك بالخلق ، وإن لم يكن لك عند القدر ذلك فعندك غنى عن جميع الأشياء بزهديك وقناعتك .



من بطا به عمله لم يسرع به نسبه!

الرياء والنفاق والمعاصي سبب الفقر والذل والطرْد من باب الحق عزَّ وجلَّ ، المرأى المنافق ياخذ الدنيا بدينه وتزييه بني الصالحين من غير أهلية فيه ، يتكلم بكلامهم ويتلبس بثيابهم ولا يعمل مثل عملهم ، يدعي النسب إليهم وليس هو من نسبهم .



ما البينة على دعواك؟!

قولك : لا إله إلا الله دعوى ، وتوكلك عليه وثقتك به وإعراض قلبك عن غيره بينة .

يا كذابين اصدقوا ، يا هارين من مولاهم ارجعوا ، اقصدوا بقلوبكم باب الحق عز وجل وصالحوه واعتذروا إليه .



يا غلام .. ابك على نفسك!

يا غلام .. ما تستحي؟! ابك على نفسك فإنك قد حُرمت الصواب والتوفيق ،

ما تستحي! تكون اليوم خائئاً وغداً عاصياً ، اليوم مخلصاً وغداً مشركاً .



ذنوبكم مزدحمة .. والعاقبة مبهمة!

يا قوم .. أنتم عن قريب موتى .. ابكوا على أنفسكم قبل أن يُبكي عليكم ، لكم ذنوب مزدحمة على عاقبة مبهمة ، قلوبكم مرضى بحب الدنيا والحرص عليها ، داووها بالزهد والترك والإقبال على الحق عز وجل ، سلامة الدين رأس المال ، والأعمال الصالحة هي الأرباح ، اتركوا الطلب لما يطغيكم واقنعوا بما يكفيكم .. العاقل لا يفرح بشيء حلاله حساب وحرامه عقاب .. أكثركم قد نسوا العقاب والحساب !! .



اصحب أرباب القلوب يكن لك قلب

يا غلام .. اصحب أرباب القلوب حتى يصير لك قلب .. لا بد لك من شيخ حكيم عامل بحكم الله عز وجل يهذبك ويعلمك وينصحك .



يا من باع كل شيء!

يا من باع كل شيء بلا شيء ، واشتري لا شيء بكل شيء ، قد اشتريت الدنيا بالآخرة وبعثت الآخرة بالدنيا ، أنت هوس في هوس ، عدم في عدم ، جهل في جهل ، تاكل كما تاكل الأنعام من غير تفتيش ولا احتساب ولا سؤال .. من غير نية من غير أمر من غير فعل !! .



القلب يصدأ وجلأؤه الورع

القلب يصدأ .. فإن تداركه صاحبه وإلا انتقل إلى السواد ؛ يسود لبعدة عن النور ، يسود لحبه الدنيا والتحويز عليها من غير ورع ، لأن من تمكن من قلبه حب الدنيا زال ورعه فيجمعها من حلال وحرام ، يزول تميزه في جمعه ، يزول حياة من ربه عز وجل ومراقبته .



يا قوم .. اللسان غلام القلب

يا قوم .. راقبوا ربكم عز وجل في خلواتكم وجلواتكم ، اجعلوه نصب أعينكم حتى كأنكم ترونه فهو يراكم . من كان ذاكرًا لله عز وجل بقلبه فهو الذاكر .. اللسان غلام القلب وتبع له .



المواعظ حياة القلوب

داوم على سماع المواعظ .. فإن القلب إذا غاب عن المواعظ عمي.



حقيقة التوبة .. تعظيم أمر الله

حقيقة التوبة تعظيم أمر الحق عزَّ وجلَّ ، في جميع الأحوال ، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه : الخير كله في كلمتين : التعظيم لأمر الله عزَّ وجلَّ ، والشفقة على خلقه ، كل من لا يعلم أمر الله عزَّ وجلَّ ، ولا يشفق على خلق الله ، فهو بعيد من الله .



ضاع عمركم في أكلوا وأكلنا .. !!

ضاع عمركم في أكلوا وأكلنا ، وشربوا وشربنا ، ولبسوا ولبسنا ، وجمعوا وجمعنا . من أراد الفلاح
فلْيَصْبِرْ نفسه عن المحرمات والشبهات والشهوات ، ويصبر على أداء أمر الله عزَّ وجلَّ والانتهاز عن نهيه
والموافقة لقدره .



التوبة .. ولادة جديدة

توبوا بقلوبكم ثم بالسنتكم .. التوبة قلب دولة .. تقلب دولة نفسك وهواك وشيطانك وأقرانك السوء ، إذا
تبت قلبت سمعك وبصرك ولسانك من كدر الحرام والشبهة ، وتنورع في معيشتك وبيعك وشرائك ، وتجعل
كل همك مولاك عزَّ وجلَّ ، تزيل العادة وتترك مكانها العبادة ، تزيل المعصية وتترك مكانها الطاعة ، فحينئذ
يكون ظاهرُك محفوظاً وبأخرك بريك عزَّ وجلَّ مشغولاً ، فإذا تمَّ لك هذا .. فلو جاءت إليك الدنيا بحذاقيها
ومكنتك منها ، وتبعك الخلق باجمعهم .. لم يضرَّك ذلك .



من لا ينفك لحظة لا ينفك وعظه

العلم جُعِلَ للعمل لا لمجرد الحفظ وإيراده على الخلق ، تعلَّم واعمل ثم علِّم غيرك ، إذا علمت ثم عملت
تكلم العلم عنك ، وإن سكتَ تكلمَ بلسان العمل أكثر مما يتكلم بلسان العلم . ولهذا قال بعضهم رحمة الله
عليه : من لا ينفك لحظة لا ينفك وعظه .



يا منافق .. عملك قشر لا لب فيه !

كل عمل لا إخلاص فيه فهو قشر لا لب فيه ، خشبة ممدودة ، جسد بلا روح ، صورة بلا معنى . وهذا
عمل المنافقين .



ويحك .. أنت مستظل بشجرة الغفلة !!

ويحك .. قد خرست!! .. استغث إلى الحق عزَّ وجلَّ ، ارجع إليه باقدام الندم والاعتذار حتى يخلصك من أيدي أعدائك ، وينجيك من لجة بحر هلاكك ، تفكر في عاقبة ما أنت فيه وقد سهل عليك تركه ، أنت مستظل بشجرة الغفلة .. اخرج من ظلها وقد رأيت ضوء الشمس وقد عرفت الطريق .. شجرة الغفلة تربي بماء الجهل ، وشجرة اليقظة والمعرفة تربي بماء الفكر ، وشجرة التوبة تربي بماء الندامة ، وشجرة المحبة تربي بماء الموافقة .



جاوزت سن الأربعين .. يا نفس هلا ترعوين؟!

يا غلام .. قد كان لك بعض العذر ، أنت صبي وشاب إلى الآن ، قد قاربت الأربعين أو قد جاوزتها وأنت تلعب بما يلعب الصغار ، احذر من مخالطة الجهال .. اصحب الشيوخ المتقين ، واهرب من الشباب الجاهلين ، قم ناحية عن القوم ، فمن جاء منهم إليك فكن به كالطبيب لهم ، كن للخلق كالأب الشفيق على أولاده ، أكثر من خاعة الله عزَّ وجلَّ فإن خاعته ذكره .



المؤمن وقَّافٌ عند حدود الله

المؤمن مطيع لربه عزَّ وجلَّ موافق له صابر معه ، يقف عند حظوظه وكلامه وأكله ولبسه وجميع تصرفاته، والمنافق لا يبالى بهذه الأشياء في جميع أحواله .



اخلعوا ثياب الحرص يا أدعياء الزهد

يا مدعين الزهد باقوالكم وأفعالكم .. قد تلبستم بثياب الزهاد وبواخنكم ملأى رغبة وحسرة على الدنيا!! . لو خلعتكم هذه الثياب وأظهرتم الرغبة التي في قلوبكم ، لقد كان يكون أحب إليكم وأبعد لكم من النفاق . الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه ويتناولها .. فلبس ظاهرة بها وقلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها .



الجاهل بالعلم مستغنٍ برأيه وهواه!

كل جاهل بالعلم مستغنٍ برأيه قابلٌ كلامَ نفسه وهواه وشيطانه ، فهو عبد إبليس تابع له قد جعله
شيخه !! يا جمالاً ويا منافقين ؛ ما أظلمَ قلوبكم! .. وما أنتنَ روائحكم! .. وما أكثرَ لقلقةَ ألسنتكم! . توبوا من
جميع ما أنتم فيه .



كُنْ عملاً بلا كلام

يا غلام .. اهجر الكلام عن الخلق ما دمت قائماً مع نفسك وهواك .. كن عملاً بلا كلام ، إخلاصاً بلا رياء ،
توحيداً بلا شرك ، خمولاً بلا ذكر .



حذارِ أن يقعد قلبك خلفك!

يا غلام .. ارجع إلى ربك بقلبك قبل أن يقعد خلفك ، قد قنعت من أحوال الصالحين بالكلام فيها والتمني
لها .. كالقابض على الماء يفتح يده فلا يرى فيها شيئاً .



التمني وادي الحمق

ويحك .. التمني وادي الحمق؟! .. تعمل أعمال أهل الشر وتتمنى درجات أهل الخير ؛ من غلب رجاؤه خوفه
تزدق ، ومن غلب خوفه رجاءه قنط ، والسلامة في اعتدالهما .



يا من يشكو إلى الخلق مصائبه؟!

يا من يشكو إلى الخلق مصائبه! .. إيش ينفعك شكواك إلى الخلق؟! .. لا ينفعونك ولا يضرّونك ، وإذا اعتمدت عليهم وأشركت في باب الحق عزّ وجلّ يبعدونك ، وفي سخطه يوقعونك ، وعنه يحجبونك ، أنت يا جاهل تدعي العلم ، من جملة جهلك خلبك الدنيا من غير ربك عزّ وجلّ ، تطلب الخلاص من الشدائد بشكواك إلى الخلق .



لا تصحب نفسك قبل أن تتعلم

ويحك .. إذا كان الكلب الشره يتعلم حفظ الصيد ويترك شرهه وخبعه ، وهذا الطائر أيضاً بالتعليم يخالف خبعه ، ويترك ما كان عليه من أكل الصيود التي تُجعل له ، فنفسك أولى بالتعليم .. علّمها وفهمها حتى لا تاكل دينك وتمزقك وتخون في أمانات الحق عزّ وجلّ المودعة عندها ، دين المؤمن عنده لحمه ودمه .. لا تصحبها قبل تعليمك لها .. إذا تعلمت وفهمت واخمانت حينئذ استصحبها أينما توجهت .. لا تفارقها في جميع الأحوال . إذا اخمانت صارت حليلة عاملة راضية بما ياتيها القدر به من الأقسام .



صاحب مولاك بادب التسليم

الحق عزّ وجلّ لا يُصحب مع الاعتراض والمنازعة ، وإنما يُصحب مع حسن الأدب وسكون الظاهر والباطن والموافقة الدائمة ، كل من وافق القدر دامت له الصحبة مع الحق عزّ وجلّ ، العارف بالله العالم به قائم معه لا مع غيره ، موافق له لا لغيره ، حي به ميت مع غيره .



يا غلام .. تكلم أو اسكت بنية صالحة!

يا غلام .. إذا تكلمت فتكلم بنية صالحة ، وإذا سكت فاسكت بنية صالحة ، كل من لم يقدم النية قبل العمل فلا عمل له .



من أنت يا ابن آدم ؟!

من أنت يا ابن آدم ؟! .. أنت مخلوق من ماء مهين .. تواضع لربك عز وجل وذل له .. إذا لم يكن تقوى فلست بكريم عند الله عز وجل ولا عند عباده الصالحين .



يا قوم عليكم رقباء !!

يا قوم .. عليكم رقباء ، أنتم في توكيل الحق عز وجل وما عندكم خبر ، كونوا عقلاء ، افتحوا أعين قلوبكم ، إذا حضر أحدكم في بيته جماعة فلا يكن مبتدئاً بالكلام ، بل يكون كلامه جواباً ، ولا يسأل عما لا يعنيه ، التوحيد فرض ، وطلب الحلال فرض ، وطلب ما لا بد منه من العلم فرض ، والإخلاص في العمل فرض ، وترك العوض على العمل فرض . اهرب من الفاسقين والمنافقين ، والتحق بالصالحين والصديقين .



التوبة عرس الإيمان

يا قوم .. توبوا من ترككم التقوى ، التقوى دواء وتركها داء ، توبوا فإن التوبة دواء والذنوب داء .. التوبة عرس الإيمان ، والمواظبة على مجالس الذكر وخاعة الحق عز وجل شفاء .. ، توبوا بلسان الإيمان وقد جاءكم الفلاح .. تكلموا بلسان التوحيد والإخلاص وقد جاءكم الفلاح .



كن عاقلاً ولا تكذب!

كن عاقلاً ولا تكذب .. تقول : أنا خائف من الله عز وجل ، وأنت تخاف من غيره .. العاقل لا يخاف لومة لائم
في جانب الله عز وجل ، هو أصم عن كلام غير الله عز وجل . الخلق كلهم عنده عجرة مرضى فقراء ، هذا
وأمثاله هم العلماء ، الذين يُنتفع بعلمهم . العلماء بالشرع وحقائق الإسلام هم أخباء .. يا من قد انكسر ديبه
تقدّم إليهم حتى يجبروا كسرَكَ .



لا يعرف الرياء إلا المخلصون

لا يعرف الرياء إلا المخلصون .. كانوا فيه وتخلصوا منه . هو عقبة في خريق القوم لا بد لهم من العبور
عليها ، الرياء والعجب والنفاق من جملة سهام الشيطان التي يرمي بها القلوب .
اقبلوا من المشايخ وتعلموا منهم السير في الطريق الموصل إلى الحق عز وجل ، فإنه خريق قد سلكوه ،
سلوهم عن آفات النفوس والأهوية والطباع ، فإنهم قد قاسوا آفاتهم ، وعرفوا غوائلهم .



لا تنهزم من سهام النفس!

لا تغتر بنفخ الشيطان فيك ، ولا تنهزم من سهام النفس ، فإنها ترميك بسهامه ، فإنه لا يقدر عليك إلا
بطريقها .



شيطان الجن يتوسل بالنفس

شيطان الجن لا يقدر عليك إلا بشيطان الإنس ، وهي : النفس والأقران السوء . استغث بالله عز وجل
واستعن به على هؤلاء الأعداء فإنه يغيثك .

يا غلام .. اعرض عن المنافقين

يا غلام .. أعرض عن المنافقين المتعرضين لمقت الله عز وجل ، كن عاقلاً ولا تقرب أهل الزمان فإنهم ذئاب عليهم ثياب ، خذ مرآة الفكر وانظر فيها ، واسأل الله عز وجل أن يبصرك بك وبهم .



عليك بالإيمان واليقين!

يا غلام .. تحتاج إلى إيمان يُسيرك في خريق الحق عز وجل ، وإلى إيقان يثبتك فيها .



امنع نفسك الشهوات تُقبل

يا غلام .. امنعها - يقصد النفس - الشهوات واللذات وأخضعها خجماً خاهراً لا يكون نجساً ، الطاهر الحلال ، والحرام النجس .. غذاها من الحلال حتى لا تبطر وتشمخ وتسيء الأدب .



ذهب لب علمك وبقي قشره!

يا من يدعي العلم ويطلب الدنيا من أبنائها ويذل لهم ، قد أضلك الله على علم ، ذهبت بركة علمك ، ذهب لبه وبقي قشره !! .

وأنت يا من يدعي العبادة وقلبه يعبد الخلق ويخافهم ويرجوهم ، ظاهر عبادتك لله عز وجل وباخنها للخلق ، كل خلبك وهمك لما بأيديهم من الدراهم والدينار والحطام ، ترجو حمدهم وثناءهم ، وتخاف ذمهم وإعراضهم ، تخاف منعهم وترجو عطاءهم بكثرة تماديك وتخاذك ولين كلامك على أبوابهم !! .



ويلك .. يا عابد الخلق!

ويلك .. أنت مشرك منافق هراء مداخل ، ويلك على من تتبهرج ، على من { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } [غافر : 19].

ويلك .. تقف في الصلاة وتقول : الله أكبر .. وأنت تكذب في قولك ، الخلق في قلبك أكبر من الله عز وجل ، تب إلى الله عز وجل ولا تعمل حسنة لغيره .. كن ممن يريد وجهه ، أعط الربوبية حقها ، لا تعمل للحمد والثناء ، لا للعطاء ولا للمنع .



قليل حرصك .. قصير أملك!

ويحك .. رزقك لا يزيد ولا ينقص ، ما قد قضى عليك من الخير والشر لا بد من مجيئه ، فلا تشتغل بشيء قد فرغ منه واشتغل بطاعته ، قلل حرصك وقصر أملك ، واجعل اموت نصب عينيك وقد أفلحت ، عليك بموافقة الشرع في جميع أحوالك .



جدد إسلامك يا هذا!

ارجع إلى الله عز وجل بتجديد الإسلام وحسن التوبة والإخلاص فيها ، قبل أن يجيء اموت فيغلق الباب في وجهك فلا تقدر على الدخول إلى باب التوبة ، ارجع إليه باقدام قلبك حتى لا يغلق في وجهك باب فضله ، ويكللك إلى نفسك وحولك وقوتك ومالك ، ولا يبارك لك في جميع ما أنت فيه .



أما تستحي؟!

ويحك .. ما تستحي منه عز وجل ، وقد جعلت دينارك ربك ودرهمك همك ، ونسيته بالكلية ؟ عن قريب ترى خبرك! .



اجعل دكانك لعيالك وقلبك لربك

ويحك .. اجعل دكانك ومالك لعيالك تكسب لهم بامر الشرع ، ويكون قلبك متوكلاً على الله عز وجل ،
اخلب رزقك ورزقهم منه لا من اموال والدكان ، فيجري رزقك ورزقهم على يديك ، ويجعل فضله وقربه والأنس
به لقلبك .



ثُبْ واندِمْ وابكِ وواسِ

اغلق باب قلبك ، وأيئس الكَلَّ من الدخول إليه ، وأنزل فيه ذكر الحق عز وجل .. وتب توبة في إثر توبة من
أعمالك ، وندامة في إثر ندامة من تجريك وسوء أدبك ، وأكثر البكاء على ما كان منك ، وواسِ الفقراء بشيء
من مالك لا تبخل به ، فعن قريب تفارقه ، المؤمن الموقن بالخلف في الدنيا والآخرة لا يكون بخيلاً .



لا تجعل الدنيا أكبر همك!

الشرع إنما شرع الكسب ليُستعان به على خِاعة الحق عز وجل ، أما أنت إذا اكتسبت : استعنت به على المعصية ، وتركت الصلاة وفعل الخير ، ولم تخرج الزكاة! . فانت في معصية لا في خِاعة ، يصير كسبك كقطع الطريق ، عن قريب يجيء الموت فيفرح به المؤمن ويغتم له الكافر والمنافق .



أين الغاض لبصر قلبه وقالبه؟!

أين التائب الثابت على توبته ؟ . أين المستحي من ربه عز وجل المراقب له في جميع الأحوال ؟ . أين المتعفف عن المحارم في خلوته وجلوته ؟ . أين الغاض لبصر قلبه وقالبه ؟ .



اصبر على الفقر

يا فقير.. اصبر على فقرك فإن فقر الدنيا ينقطع .



الطاعة تفتح عين قلبك

يا غلام .. ما دام حب الدنيا في قلبك لا ترى شيئاً من أحوال الصالحين ، ما دمت مكدياً من الخلق مشركاً بهم لا تنفتح عينا قلبك .



ارجع بحوائجك إلى الله

ويلك .. الحياء من الله عز وجل يكون لا من الخلق ، هو الكريم وغيره لئيم ، هو الغني وغيره الفقير ، دأبه العطاء ودأب غيره المنع ، استدلل عليه بصنعته ، حافظ على حدود شرعه ولازم تقواه ، فإنك إذا دُمت على تقواه ذلك عليه .

ويحك .. عمرُك يذوب

ويحك .. عمرك يذوب وما عندك خبر ، إلى متى هذا الإعراض عن الآخرة والإقبال على الدنيا ؟!



يا مسكين .. إبك على نفسك!

ويحك .. رزقك لا يأكله غيرك ، موضعك من الجنة والنار لا يسكنه غيرك ، قد مَلَكْتَكَ الغفلة وأسرك الهوى ، كل همك في الأكل والشرب والنكاح والنوم وبلوغ أغراضك ، يا مسكين ابك على نفسك ، يموت ولدك تقوم القيامة عليك ، يموت دينك ولا تبالي ولا تبكي عليه ، مالك عقل! لو كان لك عقل بكيت على ذهاب دينك .



مالك لا تتجر برأس مالك؟!

معك رأس مال وأنت لا تتجر به ، هذا العقل والحياء هما رأس المال ، وأنت ما تحسن أن تتجر بهما ، علم لا تعمل به وعقل لا تنتفع به وحياة لا تفيد ، كبيت لا يسكن ، وكنز لا يُصرف ، وخعام لا يؤكل .



انتبه من غفلة النوم!

انتبه من غفلة النوم ، واغسل وجهك بماء اليقظة ، فانظر ما أنت مسلم أو كافر ، مؤمن أو منافق ، موحد أو مشرك ، مرءٍ أو مخلص ، موافق أو مخالف ، راضٍ أو ساخط ، الحق عز وجل لا يبالي بك رضيت أم سخطت ، ضرر هذا ومنفعته عائدان إليك ، سبحان الكريم الحليم المتفضل ، الكل تحت لطفه وفضله ، لو لم يلف بنا لهلكنا أجمع .



يا أعداءَ نعمِ الله!

يا قوم .. الدنيا تذهب ، والأعمارُ تَفنى ، والآخرةُ قريبةٌ منكم ، وما همكم له بل همكم للدنيا وجمعها ،
أنتم نعم الله عزَّ وجلَّ ، إذا كنتم نعم الله عزَّ وجلَّ ولم تشكروه عليها سلبها منكم .



ما فائدةُ دعواك بلا بَيِّنة؟!

ويلك! لا تُجِيءَ بمحض العلم فحسب ، كما لا تنفع دعوى بلا بينة لا ينفع علم بلا عمل .. يا تاركين العمل
بالعلم! أحدكم يحذق الشَّعرَ بعبارة وفصاحته وبلاغته ، وليس عمل ولا إخلاص .. لو تهذَّبَ قلبُك لتهذبت
جوارحك ، لأنه ملك الجوارح ، فإذا تهذب الملكُ تهذبت الرعية ، العلمُ قِشرُ والعمل لب ، إنما يُحَفِّظُ القِشْرُ
حتى يُحَفِّظَ اللَّبُّ ، وإنما يُحَفِّظُ اللَّبُّ حتى يُسْتَخْرَجَ منه الدهن ، فإذا لم يكن في القِشْرِ لبٌّ ما يُصنع به؟! .
وإذا لم يكن في اللَّبِّ دهنٌ فما يُصنع به؟! العلم قد ذهب ، لأنه إذا ذهب ، لأنه إذا ذهب العمل به فقد ذهب ،
إيش ينفعك حفظه ودراسته بلا عمل؟! . يا عالم! إن أردت خير الدنيا والآخرة فاعمل بعملك وعلم الناس .



يا غني .. واسِ الناسِ

يا غني! إن أردت خير الدنيا والآخرة فواسِ الناس الفقراء بشيءٍ من مالك .



ويلك! .. لا تعبدِ الله بجهل

ويلك! .. أنت تعبد الله بغير علم ، وتزهد بغير علم ، وتأخذ الدنيا بغير علم . ذلك حجاب في حجاب ، مَقَّتْ في مقت .. لا تميز الخير من الشر ، لا تفرق بين ما هو لك وما هو عليك ، ما تعرف صديقك من عدوك!! . كل ذلك لجهلك بحكم الله عزَّ وجلَّ ، وتركك لخدمة الشيوخ ؛ شيوخُ العمل وشيوخُ العلم يدلونك على الله عزَّ وجلَّ .

القول أولاً والعمل ثانياً ، وبه تصل إلى الحق عزَّ وجلَّ . وما وصل من وصل إلا بالعلم والزهد بالدنيا والإعراض عنها بالقلب والقالب . املتزهدُ يُخْرِجُ الدنيا من يديه ، والزاهد املتحق في زهده يخرجها من قلبه ؛ زهدوا في الدنيا بقلوبهم فصار الزهد خبعا لهم .. خالط ظواهرهم وبواخنهم .. انطفت نارية خبايعهم ، انكسرت أهويئهم ، اخمانت نفوسهم واستحال شرُّها .



اعرف حقيقة الدنيا!

يا غلام .. هذا الزهد ليس هو صنعة عمله ، ليس هو شيئاً تأخذه بيدك وترميه ، بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل .



الزاهد لا يرجو ولا يخشى الخلق

يا غلام .. إذا صح لك الزهد في الدنيا ، فازهد في اختيارك وفي الخلق .. فلا تخافهم ولا ترجوهم ، وفي جميع ما تأمرك فيه نفسك ، فلا تقبل منها إلا بعد مجيء أمر الله عزَّ وجلَّ .



ذنوبكم كالأمطار!

ذنوبكم كالأمطار .. فلتكن توباتكم كل لحظة في مقابلتها!



ويحك .. أنظر إلى القبور الدارسة!

ويحك .. أنت بَطِرٌ ، أنت أَشِيرٌ ، أنت شَيْقٌ ، أنت هوىٌ ، أنت عبارةٌ .. أنظر إلى القبور الدارسة وخاب أهلها
بلسان الإيمان فإنهم يخبرونك عن أحوالهم! .



القلب راعي الجوارح

إذا أخلص القلب أخلصت الجوارح وتخلصت .. القلب راعي الجوارح ، فإذا استقامت استقامت ، إذا استقام
القلب والجوارح كَمُلَ أمرُ المؤمن وصار راعياً على أهله وجيرانه وأهل بلدة ، يرتفع حاله على قدر قوة إيمانه
وقربه من مولاه .



النجاة في ثلاثة

يا غلام .. حَصِّلِ العلم ، ثم العمل ، وأَخْلِصْ .



الغضب محمودٌ ومذموم

الغضب إذا كان لله عزَّ وجلَّ فهو محمود ، وإذا كان لغيره فهو مذموم ، المؤمن يحتدُّ لله عزَّ وجلَّ لا
لنفسه ، يحتدُّ لدينه لا نُصرةً لنفسه ، يغضب إذا خُرق حدُّ من حدود الله عزَّ وجلَّ كما يغضب النمر إذا أخذوا
صيده . فلا جرم يغضب الله عزَّ وجلَّ لغضبه ويرضى لرضاه .



لا تُظْهِرِ الغضبَ لله وهو لنفسك!

لا تُظهر الغضبَ لله عزَّ وجلَّ وهو لنفسك ، فتكون منافقاً وما أشبه ذلك ، لأن ما كان لله عزَّ وجلَّ يتم ويبقى ويزداد ، وما كان لغيره يتغير ويزول ، فإذا فعلت فعلاً فآزَلْ نفسك وهواك وشيطانك منه ، ولا تفعله إلا لله عزَّ وجلَّ وامتنالاً لغيره ، لا تفعل شيئاً إلا بأمرٍ حزم من الله عزَّ وجلَّ ، إما بواسطة الشرع ، أو بإلهام من الله عزَّ وجلَّ لقلبك مع موافقة الشرع .



ارغب في الأنس بالله!

ازهد فيك وفي الخلق وفي الدنيا يُرْحِكْ من الخلق ، وارغب في الأنس بالحق عزَّ وجلَّ والراحة بقربه ، لا أنس إلا الأنس به ، ولا راحة إلا معه ، بعد الصفاء من كدورات نفسك وهواك .



لا تتعامل مع الله بباخن نجس

كما لا يحل أن تدخل على الملوك مع نجاسة ظاهرك ، لِمَ تدخل على مالك الملوك الذي هو الحق عزَّ وجلَّ مع نجاسة باخنك ؟ .. في قلبك معاصي وخوف من الخلق ، ورجاء لهم ، وحب الدنيا وما فيها . وكلُّ هذا من نجاسة القلوب .

زيادة الإيمان بطاعة الرحمن

إذا صحت التوبة صح الإيمان وازداد عند أهل السنة . إن الإيمان يزيد وينقص : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .



تَعَلَّمْ متى تتكلم

عليك بالصمت والحلم عن جهل الجاهلين وثوران خباياهم ونفوسهم وأهويتهم ، أما إذا ارتكبوا معصية الحق عزَّ وجلَّ فلا صمت فإنه يحرم ، يصير الكلام عبادة وتركه معصية . إذا قدرت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تقصر عنه ، فإنه باب خير قد فُتِحَ في وجهك فبادر بالدخول فيه .



شروط الطمانينة عند الذكر

يا غلام .. إن أردت الفلاح فأخرج الخلق من قلبك ، لا تخفهم ولا ترجهم ، فإذا صح لك هذا فقد صحت لك الطمانينة عند ذكر الله عز وجل .



متى تُسمى مستيقظاً ؟

أد الأمر ، وانتبه عن النهمي ، واصبر على هذه الآفات ، وتقرّب بالنوافل .. وقد سُميت مستيقظاً عاملاً لطلب التوفيق من ربك عز وجل ، سلّه وتذلل بين يديه حتى يهيء لك أسباب الطاعة .



أزل القيود من أقدام نفسك!

ويحك .. قد قيدت نفسك بالخوف من الخلق والرجاء لهم ، أزل هذه القيود من رجليها وقد قامت إلى خدمة ربها عز وجل ، وصارت مطمئنة بين يديه ، زهدتها في الدنيا وشهواتها .. وجميع ما فيها .



الزم المحبين لله!

من رأى محباً لله عز وجل فقد رأى الله عز وجل بقلبه .. المحبون له رضوا به دون غيره ، استعانوا به ، واقتصروا عمن سواه .



المربي .. يفتل الحبال الرخوة

اسمعوا واعملوا فإنني أفتل في حبالكم ، أفتل حبالكم الرخوة وأصل الملقطع منها ، ليس لي هم إلا همكم ، ليس لي غم إلا غمكم .



كونوا نُهّابين ونُهّابين!

القوم .. شُغلهم البذل وإيجاد الراحة للخلق .. نهابون وهابون ، يذهبون من فضل الله عز وجل ورحمته ، ويهبونه للفقراء والمساكين المضيق عليهم ، يقضون الديون عن المدينين العاجزين عن قضائه ، هم الملوك لا ملوك الدنيا ، فإنهم يذهبون ولا يهبون .



التكبر مصدر أثم .. فتنبه!

دع منك التكبر على الحق عز وجل وعلى الخلق ، فإنه من صفات الجبارة الذين يكبهم الله عز وجل على وجوههم في نار الجحيم ، إذا أغضبت الله عز وجل فقد تكبرت عليه ، إذا أدن المؤمن فلم تجبه بقيامك إلى الصلاة فقد تكبرت عليه ، إذا ظلمت أحداً من خلقه فقد تكبرت عليه ، تب إليه وأخلص في توبتك قبل أن يهلك باضعف خلقه ، كما أهلك نمرود وغيره من الملوك لما تكبروا عليه ، أذلهم بعد العز ، أفقرهم بعد الغنى ، عذبهم بعد النعيم ، أماتهم بعد الحياة .



تملك الدنيا ولا تحبها

كونوا من المتنقين! .. الشرك في الظاهر والباطن ، الظاهر عبادة الأصنام ، والباطن الاتكال على الخلق ورؤيتهم في الضر والنفع! . وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها ، يملكها ولا تملكه ، تحبه ولا يحبها ، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها ، يستخدمها ولا تستخدمه ، يفرقها ولا تفرقه ، قد صلح قلبه لله عز وجل ، ولا تقدر الدنيا تفسده ، فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه . اتركوا الدنيا في أيديكم .. لمصالح عيال الحق عز وجل .. وأخرجوها من قلوبكم .. فلا جرم لا يضركم ، ولا يغرركم نعيمها وزينتها ، فعن قريب تذهبون وتذهب بعدكم!



من استغنى برأيه ضلّ وذلّ وزلّ

يا غلام .. لا تستغن برأيك فإنك تضل ، من استغنى ضل وذل وزل ، إذا استغنيت برأيك حُرمت الهداية والحماية لأنك ما خلبتها ولا دخلت في سببها ، تقول : أنا مستغن عن علم العلماء ، وتدعي العلم ، فاين

العمل؟! ما تأثير هذه الدعوى؟ ما مصداقها؟ إنما تتبين صحة دعواك للعلم بالعمل والإخلاص والصبر عند
البلاء، وأن لا تتغير ولا تجزع ولا تشكو إلى الخلق.



يا مدعي الفهم.. أين فهمك؟!

أنت أعمى كيف تدعي البصر، أنت سقيم الفهم كيف تدعي الفهم؟ ثب من دعواك الكاذبة إلى الله عزَّ
وجلَّ، وعليك به دون غيره.



ابداً بخُويصة نفسك

عليك بخويصة نفسك إلى أن تطمئن وتعرف ربما عزَّ وجلَّ فحينئذ التفت إلى غيرك.



إني أراكم مفاليس!

يا رجالاً ويا نساء! قد أفلح منكم من كان معه ذرة من الإخلاص، ذرة من النقوى، ذرة من الصبر والشكر
، إني أراكم مفاليس.



المجلس الخامس والثلاثون

ويحكم .. أعمالكم تصعد إلى السماء!

ويحكم يامتكبرين .. عباداتكم لا تدخل الأرض إنما تصعد السماء قال الله عز وجل : { ... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... } [فاطر : 10] .

ربنا عز وجل على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وعلمه محيط بالأشياء مبدع ، سبع آيات في
القرآن في هذا المعنى لا يمكنني محوها لأجل جهلك ورعونتك .



إنما أخاف الله تعالى

فزعني بسيفك ما أفرع ، ترعبني في مالك ما أرغب ، إنما أخاف الله عز وجل وما أخاف غيره ، أرجوه ولا
أرجو غيره ، أعبده ولا أعبد غيره ، أعمل له ولا أعمل لغيره ، رزقي عنده وبيده .



الدنيا سوق .. والناقد بصير

هذه الدنيا سوق .. بعد ساعة لا يبقى فيه أحد ، عند مجيء الليل يذهب أهله منه . اجتهدوا أنكم لا
تبيعون ولا تشترون في هذا السوق إلا ما ينفعكم غداً في سوق الآخرة .. فإن الناقد بصير . توحيد الحق عز
وجل .. الإخلاص في العمل له .. هو النافق هناك ، وهو قليل عندكم! .



لا تطلب من الخلق ما ليس لك

يا غلام .. كن عاقلاً ولا تستعجل فإنه ما يقع بيدك شيء بعجلتك ، لا تظلم الخلق وتطلب منهم ما ليس
لك عندهم .



إذا كنت ضعيفاً .. فلا تطلب

يا غلام .. الأولى عندي في حال ضعفك ألا تطلب من أحد شيئاً .. وإن قدرت أن تعطي ولا تأخذ فافعل ،
وتخدم ولا تطلب الخدمة من غيرك فافعل .



إياك أن تكون ظالماً

اهرب من الخلق ، واجهد أن لا تكون مظلوماً ولا ظالماً ، وإن قدرت فكن مظلوماً ولا تكن ظالماً ، مقهوراً لا
قاهراً ، نصرة الحق عز وجل للمظلوم ، ولا سيما إذا لم يجد ناصرًا من الخلق .



الصبر ضياء

الصبر سبب للنصرة والرفعة والمعزة .. اللهم إنا نسالك الصبر.



لا تستقيم نية إلا بجهد

اجتهد ألا تأكل لقمة ، ولا تمشي خطوة ، ولا تعمل شيئاً في الجملة إلا بنية صالحة ، تُصلحُ للحق عزَّ وجلَّ ، إذا صحَّ لك هذا فكل عمل عمله يكون له لا لغيره ، تزيل عنك الكلفة وتصير هذه النية خبياً .



ويحك .. خَلَقَ وخالق لا يجتمعان

ويحك .. خلق وخالق لا يجتمعان ، دنيا وأخرى في القلب لا يجتمعان ، لا يُتصور ، لا يصح ، لا يجيء منه شيء ، إما الخلق وإما الخالق ، إما الدنيا وإما الآخرة . وقد يُتصور أن يكون الخلق في ظاهرِكَ والخالق في باطنِكَ ، والدنيا في يدِكَ والآخرة في قلبِكَ ، أما في القلب فلا يجتمعان . انظر لنفسك واختزلها ، فإن أردت الدنيا فاخرج الآخرة من قلبك ، وإن أردت الآخرة فاخرج الدنيا من قلبك .



ويحك .. تسترت عن الخلق!

ويحك .. تسترت عن الخلق ، لا عن الخالق ، يا أكل السم عن قريب يتبين فعله في جسدك ، أكل الحرام سم لجسد دينك ، ترك الشكر على النعم سم لدينك ، عن قريب يعاقبك الحق عزَّ وجلَّ بالفقر والسؤال للخلق ورفع الرحمة من قلوبهم لك ، وأنت يا تارك العمل بعلمه عن قريب يُنسيك العلم ويذهبُ بركته من قلبك ، يا جاهلاً! لو عرفتُموه عرفتُم عقوباته ، أحسنوا الأدب معه ومع خلقه ، قللوا من الكلام فيما لا يعنيكم .



النفس كَدْرَةٌ مُكْدَّرَةٌ .. فاحذرهما

يا غلام .. فيما يعنك شغلٌ عما لا يعنك . أخرج نفسك من قلبك وقد جاءك الخير ، فإنها الكَدْرَةُ المكْدَرَةُ .
بعد خروجها يجيء الصفاء غير كَدِرٍ وقد غُيِّرَتْ .



الشيب نذير الموت .. فتب!

يا غافلاً عما لا بد لك منه ، قد جعلت همك الشهوات واللذات وجمع الدنيا فوق الدينار ، وأشغلت جوارحك باللعب . إن ذكرك مُدَكَّرُ الآخرة والموت ، تقول : نَعَصْتُ عليّ عيشي ، وتلوي برأسك هكذا وهكذا! . قد جاءك نذير الموت وهو الشيب في شعرك وأنت تقصمه أو تغيّره بالسواد ، إذا جاء أجلك إيش تعمل ؟ إذا جاءك ملك الموت ومعه أعوانه ، بأي شيء ترده ؟ إذا انقطع رزقك ، وانقضت مدتك ، بأي حيلة تحتال ؟! . دع عنك هذا الهوس! الدنيا مبنية على العمل ، إذا عملت فيها أُعْطِيتَ الأجرة ، وإن لم تعمل فما تعطى . هي دار الأعمال والصبر على الآفات ، هي دار التعب والآخرة دار الراحة ، المؤمن يتعب نفسه فيها فلا جرم يستريح ، وأما أنت تعجلت بالراحة ، وتماخى بالتوبة وتُسوّف يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة ، وقد انقضى أجلك ، عن قريب تندم ، كيف ما قبلت النصيحة! وكيف ما انتهيت! وصدقت فما صدقت! . ويحك .. جذع سقّف حياتك قد انكسر ، أيها المغرور .. حيّطان حياتك تتواقع ، هذه الدار التي أنت بها تخرب . تحول منها إلى أخرى ، اخلب دار الآخرة وانقل رجلك إليها ، ما هذه الرجل ؟ الرجل هي الأعمال الصالحة . قدم مالك إلى الآخرة حتى تجده وقت وصولك إليه .

يا مغروراً بالدنيا يا مشغلاً بلا شيء ، يا من ترك السرية واشتغل بالخدمة .



الخلق يريدونك لهم .. فاحذرهم

يا قوما! .. خلّوا من يعمل عملاً يريد به وجه الخلق وقبولهم له ، فهو عبد أبى محبوبٌ ممقوتٌ ، الخلق يسلبون القلب والخير والدين ، يجعلونك مشركاً بهم ناسياً لربك عز وجل ، يريدونك لهم لا لك ، والحق عز وجل يريدك لك لا لهم ، فالخلب من يريدك لك واشتغل به ، فإن الاشتغال به أولى ممن يريدك له .



استغث بالغني ودع الفقراء !

إن كان ولا بد من الطلب ، فاخلب منه لا من خلقه ، فإن أبغض الخلق إلى الله عز وجل من يطلب الدنيا من خلقه . استغث به إليه .. هو الغني والخلق كلهم فقراء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً .



نَحْ هذه الأيدي تُفلح

كيف تفلح وقد تركت يد نفسك وهواك وخبك وشيطانك على عيني قلبك ؟! . نَحْ هذه الأيدي وقد رأيت الأشياء كما هي .. نَحْ نفسك بمجاهدتك لها ومخالفتك ، نَحْ يد هواك وخبك وشيطانك .



خُلِّقْتَ للعبادة فلا تلعب!

قد خلقت لعبادته فلا تلعب ، لا تحب معه في محبته أحداً ، إن أحببت غيره حُبَّ رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ وَلُطْفٍ يجوز ، فاشتغل بالله عز وجل لا بغيره .. لا تسانس بغيره .. اجعل الخلق خارج قلبك .. ناحية منه .. فَرَّغْهُ له. يا بطل يا كسلان يا قليل القبول! إن قبلت مني وعملت بما أقول فلنفسك تعمل ، وإن لم تعمل فعلى نفسك الملقط والحرمان .



أخضعم الاتقياء وأعنهم

إذا أخعمت خعامك للمتقي وساعدته في أمر دنيا ، كنت شريكه فيما يعمل ولا ينقص من أجره شيء ، لأنكعاونته في قصده ورفعت عنه أثقاله ، وأسرعت خطاه إلى ربه عز وجل .



أعطِ العلم كُلَّكَ تاخذ بعضه!

يا جاهل! تعلم العلم ، فلا خير في عبادة بلا علم ، ولا خير في إيقان بلا علم ، تعلم واعمل فإنك تفلح دنيا وأخرى ، إذا لم يكن لك صبر على تحصيل العلم والعمل به كيف تفلح؟! . العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه .

قيل لبعض العلماء رحمة الله عليه : بم نلت هذا العلم ؟ فقال : بباكورة الغراب ، وبصبر الجمل ، وبتملق الكب ، كنت أبكر على أبواب العلماء كما يبكر الغراب إلى الطيران ، وكنت أصبر على أثقالهم كصبر الجمل على الأثقال ، وكنت أتملق كتملق الكلب بباب دار صاحبه حتى يطعمه شيئاً ..

يا خالب العلم اسمع مقالة هذا العالم واعمل بها إذا أردت العلم والفلاح . العلم حياة والجهل موت ؛ العالم العامل بعلمه المخلص في عمله الصابر على تعليمه لحق ربه عز وجل لا موت له .



يا قوم أضنوا شياخينكم بالإخلاص !

يا قوم .. أضنوا شياخينكم بالإخلاص في قول لا إله إلا الله لا بمجرد اللفظ ، التوحيد يحرق شياخين الإنس والجن ، لأنه نار للشياخين ونور للموحدين ، كيف تقول : لا إله إلا الله ، وفي قلبك كم إله ؟ كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك ، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب ، لا ينفعك خهارة القلب مع نجاسة القلب ، الموحّد يضني شيطانه ، والمُشرك يضني شيطانه ، الإخلاص لب الأقوال والأفعال ، لأنها إذا خلت منه كانت قشراً بلا لب .. أن القشر لا يصلح إلا للنار .

اسمع كلامي واعمل به فإنه يخدم نار خمعك ويكسر شوكة نفسك .. لا تحضر موضعاً تنور فيه نار خمعك فيخرب بيت دينك وإيمانك ، ينور الطبع والهوى والشيطان فيذهب بدينك وإيمانك وإيقانك ، لا تسمع كلام هؤلاء المنافقين المتصنعين المزخرفين ، فإن الطبع يسكن إلى كلام مُزخرف مُصنّع .



خذ العلم من أفواه العلماء

العلم يؤخذ من أفواه الرجال لا من الصحف ، من هؤلاء الرجال رجال الحق عز وجل ، ما هو غير التقوى هوس وباخل ، الولاية للمتقين دنيا وآخرة ، الأساس والبناء لهم دنيا وآخرة ، الله عز وجل إنما يحب من عباده المتقين المحسنين الصابرين .



علامة خلب العلم لله

يا غلام .. تعلم العلم وأخلص حتى تخلص من شبكة النفاق ، وفَيِّده ، اخلب العلم لله عز وجل لا لخلق ولا لدنيا . علامة خلبك العلم لله عز وجل خوفك ووجلُّك منه عند مجيء الأمر والنهي ، تراقبه وتذلُّ له في نفسك ، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم لا خمعاً فيما في أيديهم . وتصادق في الله عز وجل وتعادي فيه ، لأن الصداقة في غير الله عز وجل عداوة .. الثبات في غيره زوال ، العطاء في غيره حرمان .



أَمْؤْمَنٌ .. وَلَا صَبْرَ وَلَا شُكْرَ؟!

إذا لم تصبر على الدُّقْمِ ، ولم تشكر على النُّعْمِ ، فلست بمؤمن .



إني أرى علماءكم جهالاً!

يا غلام .. بَيِّنْكَ ملازمة الكتاب والسنة والعمل بهما والإخلاص في العمل . إني أرى علماءكم جهالاً ،
زهادكم خالبي الدنيا وراغبين فيها ، متوكلين على الخلق ناسين للحق عز وجل .



كُنْ مع الله تَرَّ الله معك!

ويحك! .. إذا خرجت من الخلق صرت مع الخالق ، يعرفك مالك وما عليك ، تميز بين ما لك وبين ما
لغيرك ، عليك بالثبات والدوام على باب الحق عز وجل ، وقد رأيت الخير عاجلاً وأجلاً ، هذا شيء لا يتم
والخلق والرياء في قلبك ، إذا لم تصبر لا دين لك ، لا رأس لإيمانك .



ابدأ بنفسك فانهما عن غيها!

أنت كالحجام تُخرج الداء من غيرك وفيك داء محض ما تخرجه ، إني أراك تزدد علماً ظاهراً وجهلاً باخناً ،
إذا لم يكن لك علم تعلّم ، إذا لم يكن لك علم ولا عمل ولا إخلاص ولا أدب فكيف يجيء منك شيء ، قد
جعلت همك الدنيا وحطامها ، عن قريب يحال بينك وبينها .



ما قيمة عمل بلا فهم؟!

افهموا ما أقول واعملوا به ، الفهم بلا عمل لا يساوي شيئاً ، العمل بلا إخلاص خمر فارغ ، الطمع كل
حروفه فارغة مجوفة ليس فيها شيء .

مَنْ خَلَبَ وَجَدَ وَجَدَ

من خلب وجدَّ وجدَّ . اجهد في أكل الحلال فإنه ينور قلبك من ظلماته ، أنفعُ العقل ما عرَّفك نعمَ الله عزَّ وجلَّ ، وأقامك في شكرها ، وأعانك على الاعتراف بها وبمقدارها .



الله يغضب إن تركت سؤاله

ويلك! .. ما تستحي؟! . تطلب من غير الله عزَّ وجلَّ وهو أقرب إليك من غيره ، تطلب من الخلق ما لا حاجة بك إليه ، معك كنز مكنوز وأنت تزاحم الفقراء على حبة وذرة ، إذا مت أفنضحت ، تظهرُ مخابيك ومكاتمك ، لو كنت عاقلاً اكتسبت ذرة من الإيمان تلقى الله عزَّ وجلَّ بها ، ولكنت تصحب الصالحين وتتأدب بهم ، باقوالهم وأفعالهم ، حتى إذا ترعرع إيمانك وتمَّ إيقانك استخلصك الله عزَّ وجلَّ له ، وتولى أدبك وأمرك ونهيك من حيث قلبك .



يا عابد الأصنام ! .. ثب

يا عابد صنم الرياء ما تشم قرب الله عزَّ وجلَّ لا دنيا ولا آخرة ، يا مشركاً بالخلق مقبلاً عليهم بقلبه ، أعرض عنهم فليس منهم ضرر ولا نفع ولا عطاء ولا منع ، لا تدعي توحيد الله عزَّ وجلَّ مع الشرك الملازم لقلبك فما يقع بيدك منه شيء .



الرضى آية الإيمان

كل السلامة في الرضى بالقضاء وقصر الأمل والزهد في الدنيا ، فإذا رأيتم في أنفسكم ضعفاً فدونكم بذكر الموت وقصر الأمل .



تارك العمل خامع .. والمُتَكِلُ عليه معجب

من لم يكن الشرع رفيقه في جميع أحواله فهو هالك مع الهالكين ، اعمل واجتهد ولا تتكل على العمل ،
فإن التارك للعمل خامع .. واملتكل على العمل معجب مغرور .



فارق قبل أن تُفارق!

فارق قبل أن تفارق ، ودّع قبل أن تُودّع ، اهجر قبل أن يهجر أهلك وسائر الخلق ، ما ينفعوك إذا
حصلت في القبر؟! .



الورع كسوة الدين

يا قوم .. تورعوا في جميع أحوالكم .. الورع كسوة الدين .



عبادة الجاهل مردودة

لا أفكر بحمدك ولا ذمك ، بعطائك ومنعك ، بخيرك وشرّك ، بإقبالك وإدبارك . أنت جاهل والجاهل لا
يُبالى به ، إذا أفلحت وعبدت الله عزّ وجلّ كانت عبادتك مردودة عليك ، لأنها عبادة مقرونة بالجهل ، والجهل
كله مفسدة ، لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة .



إبليسُ شيخٌ من لا شيخَ له!

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال : من لم يكن له شيخٌ فإبليس شيخه ، اتبع الشيوخ العلماء بالكتاب
والسنة العاملين بهما ، أو حسّن الظنّ بهم وتعلم منهم ، وأحسن الأدب بين أيديهم والعشرة معهم وقد
أفلحت ، إذا لم تتبع الكتاب والسنة ، ولا الشيوخ العارفين بهما .. فما تفلح أبداً ، ما سمعت : من استغني
برأيه ضل ، هدّب نفسك بصحبة من هو أعلم منك ، اشتغل بإصلاحها ثم انتقل إلى غيرها .



الفقه خوق النجاة

الفقه في الدين سبب لمعرفة النفس ، من عرف ربه عزَّ وجلَّ عرف الأشياء كلها به ، تصح له العبودية والعتق من عبودية غيره ، لا فلاح لا نجا لك حتى تؤثره على غيره ؛ تؤثر دينك على شهواتك ، وأخرتك على دنياك .. ، هلاكك في تقديم شهوتك على دينك ودنياك على آخرتك .. اعمل بهذا وقد كفأك ، أنت محبوب عن الحق عزَّ وجلَّ لا إجابة لك ، الإجابة إنما تكون بعد الاستجابة ، إذا أجبت بالعمل أجابك في وقت سؤالك له ، وجود الزرع إنما يكون بعد الزراعة ، ازرع حتى تحصد .



أنت مشغول بزرع الدنيا!

أنت مشغول بزرع الدنيا لا بزرع الآخرة ، أما علمت أن خالب الدنيا لا يفلح مع الآخرة ؟ لا يرى الحق عزَّ وجلَّ

.



عليك بسوط مخالفة الأهواء

يا غلام .. اضرب نفسك بسوط الجوع وامنع من الشهوات واللذات والترهات ، واضرب قلبك بسوط الخوف والمراقبة ، اجعل الاستغفار دأب نفسك وقلبك .



عليك بجوهر الجوهر

ويحك .. إيش تعمل بلقلقة اللسان بلا عمل ، أنت تكذب وعندك أنك تصدق ، تشرك وأنت موحد ، وتعتقد الصحة معك بالغش وتعتقد أنه جوهر .. العمل بالعلم تاج العلم ، العمل بالعلم نور العلم ؛ صفاء الصفاء ، جوهر الجوهر ، لب اللب ، العمل بالعلم يصحح القلب ويطهره .. فإذا صح القلب صحت الجوارح ، إذا خهر القلب خهرت الجوارح ، إذا صلحت المضغة صحت البنية .



التقوى كرامة .. والمعصية مهانة

من أحب الكرامة دنيا وآخره فليتيق الله عز وجل ، لأنه قال عز وجل : { ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... } [الحجرات : 14] الكرامة في تقواه واملهانة في معصيته .



توكل على المخلوق جهلاً بالخالق

من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل ، لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذهبه ويهديه ويريه العجائب ، لا تتكل على درهمك ولا دينارك وأسبابك ، فإن ذلك يُعجزُك ويُضعفُك ، وتوكل على الله عز وجل ، فإنه يقويك ويعينك ، ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب ، ويقوي قلبك ، ولا تبالي بمجيء الدنيا وزهايبها ، بإقبال الخلق وإدبارهم ، فحينئذ تكون أقوى الناس .

وإذا توكلت على مالك وجاهك وأهلك وأسبابك ، فقد تعرضت لمقت الله عز وجل ولزوال هذه الأشياء ، لأنه غيور لا يحب أن يرى في قلبك غيره .

ومن أحب الغنى في الدنيا والآخرة فليتيق الله عز وجل دون غيره ، وليقف على بابه ويستحي منه أن يأتي باب غيره ، ويغمض عينيه عن النظر إلى غيره ، أعني : عيني القلب لا عيني القلب .

كيف تثق بما في يديك وهو معرض للزوال وتترك الثقة بالله عز وجل .. جهلك به يحملك على الثقة بغيره . ثقتك به كل الغنى ، ثقتك بغيره كل الفقر .

يا تارك التقوى! قد حُرمت الكرامة دنيا وآخره ، يا متوكلاً على الخلق والأسباب! قد حرمت القوة والتعزز بالله عز وجل دنيا وآخره ، ويا واثقاً بما في يديه قد حُرمت الغنى بالله عز وجل دنيا وآخره .



الصبر أساس لكل خير

يا غلام .. إن أردت أن تكون متقياً متوكلاً واثقاً فعليك بالصبر فإنه أساس لكل خير ، إذا صحت لك النية في الصبر فصبرت لوجه الله عز وجل ، كان جزاؤه لك أن يدخل قلبك حبه وقربه دنيا وأخرى ، الصبر موافقة الحق عز وجل في قضائه وقدره الذي سبق علمه ولا يقدر أحد من خلقه على محوه ، ثبت هذا عند المؤمن الموقن فصبر على ما قدر عليه ولا يقدر أحد من خلقه على محوه ، ثبت هذا عند المؤمن الموقن فصبر على ما قدر عليه اختياراً لا اضطراراً . كيف تدعي الإيمان ولا صبر لك ، كيف تدعي المعرفة ولا رضا لك ، هذا شيء لا

يجيء بمجرد الدعوى.



لسان الجاهل أمام قلبه

يا قوم .. دعوا عنكم الهوسات والأمانى الباخلة ، واشتغلوا بذكر الله عز وجل ، تكلموا بما ينفعكم
واسكتوا عما يضركم ، إن أردت أن تتكلم ففكر فيما تريد أن تتكلم به وحصل فيه النية الصالحة ثم تكلم ،
ولهذا قيل : لسان الجاهل أمام قلبه ، ولسان العاقل العامل وراء قلبه.



ضيّعك الحرص وخول الأمل

أنت أشفق عليها - أي : النفس - من غيرك وقد ضيعتها ، فكيف يشفق عليها غيرك ويحفظها؟! قوة أملك
وحرصك حملاك على تضيقها ، اجهد في : تقصير الأمل ، وتقليل الحرص ، وذكر الموت ، ومراقبة الحق
عز وجل .



صديقك من نهاك .. عدوك من أغواك

صديقك من نهاك عدوك من أغواك ، إني أراك عند الخلق لا عند الخالق عز وجل ، تشكر غيره على
نعمه ، من أعطاك ما أنت فيه من النعم غيره حتى تشكره وتعبده؟! ، إن كنت تعلم أن ما عندك من النعم
من الحق عز وجل فإين شكره ؟ وإن كنت تعلم أنه خلقك فإين عبادته في امتثال أوامره والانتها عن نواهيه
والصبر على بلائه ؟ جاهد نفسك حتى تهتدي .



صبرك يفنى وجزاء الله باقٍ

يا غلام .. اجهد أن تموت نفسك قبل خروج روحك من بدنك ، موتها بالصبر والمخالفة ، فعن قريب تحمد
عاقبة ذلك ، صبرك يفنى وجزاؤه لا يفنى ، إني صبرت ورأيت عاقبة الصبر محمودة .



أنت عبد من زمامك بيده

ويحك .. تضيع زمانك في خلب العلم ولا تعمل به! فانت على قدم الجهل في هوس ، تخدم أعداء الحق عز وجل وتشرك بهم! . هو غني عنك وعمن أشركت به ، لا يقبل منك شريكاً ، ما علمت أنك عبد من زمامك بيده؟! . إن أردت الفلاح فاترك زمام قلبك بيد الحق عز وجل ، وتوكل عليه حقيقة التوكل ، واخدمه بظاهرك وبإخرك ، ولا تنهمه فإنه غير مُتهم ، هو أعرف منك بمصلحتك وهو يعلم وأنت لا تعلم .



المجلس الرابع والأربعون

فليتك تحلو والحياة مريرة

إذا خرب ما بينك وبين الخلق وعمر ما بينك وبينه -عز وجل- فقد اختار لك فلا تكره خيرته ، من صبر مع الحق عز وجل رأى عجائب من الطافه .. كلما ذل العبد له أعزه ، كلما تواضع له رفعه ، هو المعز والمذل ، الرافع والواضع ، الموفق والمسهل .



قف مع القلب لا مع النفس

يا معجبين بأعمالهم ما أجهلكم! لولا توفيقه ما صليتم وصمتتم وصبرتم ، أنتم في مقام الشكر لا في مقام العجب ، أكثر العباد معجبون بعبادتهم وأعمالهم ، خالبون للحمد والثناء من الخلق ، راغبون في إقبال الدنيا وأريابها عليهم ، وسبب ذلك وقوفهم مع نفوسهم وأهويتهم . الدنيا محبوبية النفوس والأخرى محبوبية القلوب .



لقمة تُنور القلب ولقمة تُظلمه

يا غلام .. أكل الحرام يميئ قلبك وأكل الحلال يحييه ، لقمة تنور قلبك ولقمة تظلمه ، لقمة تشغلك بالدنيا ولقمة تشغلك بالأخرى ، الطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويحبب المعاصي ، والطعام المباح يشغلك بالأخرى ويحبب إليك الطاعات ، والطعام الحلال يقرب قلبك من المولى .



ويحك .. أنزل حوائجك بمولك!

ويحك .. الخلق يقضون حوائجك يوماً أو اثنين أو ثلاثة أو شهراً أو سنة أو سنتين ، وفي الآخرة يضجرون منك ، عليك بصحبة الحق عز وجل وإنزال حوائجك به ، فإنه لا يضجر منك ولا يسام من حوائجك دنيا وآخره .

يا واثقاً بالدينار والدرهم اللذين في يدك عن قريب يذهبان .. قد كانا في يد غيرك فسلبا منه وسُلبا إليك لتستعين بهما على خاعة مولاك عز وجل فجعلتهما صنمك! ، يا جاهل تعلم العلم لوجه الله عز وجل واعمل به فإنه يؤدبك .. العلم حياة والجهل موت .



اخدم العلم يفقه قلبك

اخدم العلم والعلماء العمال واصبر على ذلك ، إذا صبرت على خدمة العلم أولاً لا بد أن يخدمك ثانياً .. إذا صبرت على خدمة العلم أعطيت فقه القلب ونور الباطن .



احذر ذل النفاق وقيد الشرك

اللهم تب عليّ وعليهم وخلصهم من ذل النفاق وقيد الشرك ، اعبدوا الله عز وجل واستعينوا على عبادته بكسب الحلال ، إن الله عز وجل يحب عبداً مؤمناً مطيعاً أكلاً من حلاله ، يحب من يأكل ويعمل ، ويبغض من يأكل ولا يعمل ، يحب من يأكل بكسبه ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق ، يحب الموحّد له ويبغض المشرك به ، يحب المسلم إليه ويبغض المنافق له ، من شرط المحبة الموافقة ، ومن شرط العداوة المخالفة .



يا خالب الدنيا بنفاقه .. ثب!

يا خالب الدنيا بنفاقه افتح يدك فما ترى فيها شيئاً ، ويليكَ زهدت في الكسب وقعدت تأكل أموال الناس بدينك . الكسب صنعة الأنبياء جميعهم ، ما منهم إلا من كان له صنعة ، وفي الآخرة أخذوا من الخلق بإذن الحق عز وجل ، يا سكران بخمر الدنيا وبشهواتها وهوساتها عن قريب تصحو في لحدك .



لا تقف مع حمد الناس وذمهم!

يا من يدعي العلم! لا عبرة بعلمك من غير عمل ، ولا عبرة بعلمك من غير إخلاص ، لأنه جسد بلا روح .
علامة إخلاصك أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم ، ولا تطمع فيما في أيديهم ، بل تعطي الربوبية
حقها .



سل الله واستعن به وتوكل عليه!

يا قوم .. اتبعوا ولا تبتدعوا ، وافقوا ولا تخالفوا ، أخيعوا ولا تعصوا ، أخلصوا ولا تشركوا ، وحدوا الحق
عز وجل وعن بابه فلا تبرحوا ، سلوه ولا تسالوا غيره ، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره ، تاكلوا عليه ولا
تتاكلوا على غيره .



اتبع الشاهدين العادلين

لا تبتدع وتحدث في دين الله عز وجل شيئاً لم يكن ، اتبع الشاهدين العادلين : الكتاب والسنة ، فإنهما
يوصلانك إلى ربك عز وجل ، وأما إن كنت مبتدعاً فشاهداك : عقلك وهواك ، فلا جرم يوصلانك إلى النار،
ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودهما ، اجعل سعيك في خلب العلم والعمل ، ولا تجعله في خلب الدنيا ،
عن قريب ينقطع سعيك! فاجعل سعيك فيما ينفعك.



المجلس الثامن والأربعون

عليك بزينة القلب!

من تزين للناس بما ليس فيه مقتته الله عز وجل ، زين ظاهرك بأداب الشرع وبإخفاك بإخراج الخلق منه ، قد اشتغلت بزينة القلب وتركت زينة القلب ، زينة القلب بالتوحيد والإخلاص والثقة بالله عز وجل وبذكره ونسيان غيره .



الصبر ضياء .. والاعتراض ظلمة

إذا صبرت خفف عنك البلاء وأحدث لك أمراً يحبه وتحبه ، وإذا جزعت واعتضت ثقل عليك البلاء وزادك منه عقوبة لاعتراضك عليه ، سبب اعتراضكم عليه عز وجل ومنازعتكم له ، وقوفكم مع نفوسكم وأهويتكم وأغراضكم ، وحبكم للدنيا وحرصكم على جمعها .



يا قوم .. عليكم بالكرم والإيتار

يا قوم .. عليكم بالكرم والإيتار في خاجة الحق عز وجل لا في معصيته ، كل نعمة تصرف في المعصية هي معرضة للزوال .



العجب يهلك العمل

لا تعجب بشيء من أعمالك فإن العجب يفسد العمل ويهلكه ، من رأى توفيق الله عز وجل له انتفى عنه العجب بشيء من الأعمال .



لا تُبهرج .. فإن الناقد بصير

لا تبهرج فإن الناقد بصير.. إن الله عزَّ وجلَّ ينظر إلى قلبك لا إلى صورتك ، ينظر إلى ما وراء الثياب والجلود والعظام ، ينظر إلى خلوتك لا إلى جلوتك ، أما تستحي؟! جعلت منظر الخلق مزيئاً ومنظر الحق عزَّ وجلَّ منجساً ، إن أردت الفلاح فتب من جميع ذنوبك وأخلص في توبتك ، تب من شركك بالخلق لا تعمل شيئاً إلا لله عزَّ وجلَّ .



اصحب شيخاً يُنهضك حاله

يا غلام .. اصحب من يعاونك على جهاد نفسك لا من يعاونها عليك ، إذا صحبت شيخاً جاهلاً منافقاً صاحب خبوع وهوى كان معاوناً لها عليك ، الشيوخ لا يُصحبون للعالم بل يصحبون للآخرة ، إذا كان الإمام صاحب خبوع وهوى صُحب للعالم ، وإذا كان صاحب قلب صُحب للآخرة .



يا من تمشيخ .. لا تكن صبيّاً!

يا من تمشيخ وتصدّر وزاحم الشيوخ المخلصين في أحوالهم ، ما دمت تطلب الدنيا بنفسك وهواك فانت صبي .. ذلك خبوع محض .. النادر من كل نادر ؛ نفس تعرض عن الدنيا وتتركها اختياراً لا اضطراراً ، أو كون النفس مطمئن وتصير قلباً ؛ نادر من كل نادر ، بعيد من كل بعيد .



لا تطلب الأمن بالمعصية

وأنت يا غافل .. تبارز الحق عزَّ وجلَّ بالمعصية والمخالفة ثم تآمنه ، عن قريب ينقلب أمنك خوفاً ، سعتك ضيقاً ، عافيتك مرضاً ، عزك ذلاً ، رفعتك ضعفاً ، غناك فقراً .



أمنك على قدر خوفك

اعلم أن أمنك يوم القيامة من عذاب الله عز وجل على قدر خوفك منه في الدنيا ، وخوفك في الآخرة على قدر أمنك في الدنيا ، ولكنكم غائصون في بحر الدنيا ساكنون في قعر بئر الغفلة ، الحرص على الدنيا وجمعها وخلق الأرزاق ، قد حجبكم عن خريق الحق عز وجل .



الحرص فضاح

يا من قد فضحه حرصه .. لو اجتمعت أنت وأهل الأرض على أن تجلب لك شيئاً لم يقسم لك لم تقدر ، فدع عنك الحرص على جلب ما قد قسم لك وخلق ما لم يقسم لك ، كيف يحسن العاقل أن يضيع زمانه فيما قد فرغ منه ؟!

الطائع عاقل والعاصي مجنون

الطائعون لربهم عز وجل هم العلماء العُقل ، والعاصون لربهم عز وجل هم الجهال المجانين ، العاصي
جهل ربه عز وجل فعصاه ، وتابع شيطانه ووافقه ، فلو لم يجهل لما عصى ، لو عرف نفسه وعلم أنها تامرّه
بالسوء لما وافقها .



كم أحذرك من إبليس وأعوانه؟!

كم أحذرك من إبليس وأعوانه وأنت تصحبه وتقبل منه؟! أعوانه : النفس ، والدنيا ، والهوى ، والطبع ،
وأقران السوء .. احذر الجميع فإنهم كلهم أعداؤك .



اعدل حتى لا يُعدل بك!

لا تظلم أحداً في الدنيا فإنك تؤخذ به في الآخرة ، اعدل في الدنيا حتى لا يُعدل بك عن خريق الجنة ،
الظلمة لما تركوا العدل عدلَ بهم عن خريق دار أهل العدل .



من عرف الله عرف الدنيا!

اشتغل بإصلاحك وصلاحك ودع عنك القال والقليل وهوس الدنيا ، تفرغ من همومها ما استطعت.
يا جاهلاً بالدنيا لو عرفت ما خلبتها. إن جاءت إليك اتعبتك ، وإن تولت حسرتك ، لو عرفت الله عز وجل
لعرفت به غيره .



للبلَاء حكمة .. فاصبر

يا قليل العقل! لا تهرب من باب الحق عزَّ وجلَّ لأجل بلية يبتليكَ بها ، فإنه أعرف منك بمصلحتك ، ما يبتليكَ إلا لفائدة وحكمة ، إذا ابتلاك فاثبت وارجع إلى ذنوبك وأكثر الاستغفار والتوبة ، واسأله الصبر والثبات عليها ، وقف بين يديه وتعلق بذيل رحمته ، واسأله كشف ذلك عنك وبيان وجه المصلحة فيه .



اصحب دليلاً خَريْتاً!

إن أردت الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله عزَّ وجلَّ .. يعلمك ويؤدبك ويعرفك الطريق إلى الله عزَّ وجلَّ .
المريد لا بد له من قائد ودليل ، لأنه في برية فيها عقارب وحيات وآفات وعطش وسباع مهلكة ، فيحذره من هذه الآفات ويدله على موضع الماء والأشجار المثمرة ، فإذا كان وحده من غير دليل وقع في أرض مسبعة وعرة كثيرة السباع والعقارب والحيات والآفات ..

يا مسافراً في خريق الدنيا لا تفارق القافلة والدليل والرفقاء ، وإلا ذهب منك مالك وروحك ، وأنت يا مسافراً في خريق الآخرة .. كن أبداً مع الدليل إلى أن يوصلك إلى المنزل .



يا غلام .. احذر قرناء السوء

يا غلام .. هؤلاء الذين تعاشرهم في الدنيا للدنيا ، غداً لا تراهم تقطع بينكم .. كيف لا تقطع بينك وبين
أقرانك السوء الذين عاشرتهم في غير الله عز وجل؟! . إن كان ولا بد لك من معاشرة الخلق .. فعاشر
المتورعين المتزهدين العارفين العاملين مريدي الحق عز وجل .



خالط الأدباء .. يحسن أدبك

أحسن أدبك بين يدي معلمك ، وليكن صمتك أكثر من نطقك فإن ذلك سبب لتعلمك وقربك إلى قلبه.
حسن الأدب يقربك وسوء الأدب يبعدك ، كيف يحسن أدبك وأنت لا تخالط الأدباء ؟ كيف تتعلم وأنت لا ترضى
بمعلمك ولا تحسن ظنك فيه ؟



أدعوكم إلى الموت الأحمر!

يا قوم .. إنني أدعوكم إلى الموت الأحمر .. وهو : مخالفة النفس والهوى والطبع والشيطان والدنيا .. والخروج
عن الخلق وترك ما سوى الحق عز وجل في الجملة .. جاهدوا في هذه الأحوال ولا تياسوا .



لا تكن حماراً يحمل أسفاراً !

من لا يعمل بعلمه فهو جاهل ، وإن كان متقناً لحفظه .. تعلمك للعلم من غير عمل يردك إلى الخلق ،
وعملك بالعلم يردك إلى الحق عز وجل ، ويزهده في الدنيا ويبصرك بباطنك ، يشغلك عن تزيين الظاهر
ويلهمك بتزيين الباطن ، فحينئذ يتولاه الحق عز وجل لأنك قد صلحت له .



إنما أليت ميّت الأحياء

امليت من مات عن ربه عز وجل وإن كان حيا في الدنيا .. إيش تنفعه حياته وهو يصرفها في تحصيل شهواته
ولذاته وترهاته؟! فهو ميت معنئ لا صورة .



عليك بالكنز الذي لا يفنى

الكنز الذي لا يفنى : هو : الصدق والإخلاص ، والخوف من الله عز وجل ، والرجاء له ، والرجوع إليه في
جميع الأحوال .



رزقك آتيك .. زهدت أو رغبت!

قسمك ياتيک إن زهدت أو رغبت ، فإذا زهدت وصل إليك قسمك وأنت عزيز ، وإذا رغبت وصل إليك وأنت غير عزيز .



أَنْكِرْ بالشرع لا بهواك !

أنكروا على أنفسكم وعلى غيركم بالشرع لا بالهوى والنفس والطبع ، ما سكت الشرع عنه فوافقه في سكوته ، وما نطق به فوافقه في نطقه .



أنت تعبر على قنطرة الموت!

دع عنك الهوس وأخلص في أعمالك ، الموت على رصد منك ، لا بد لك من العبور على قنطرتك ، دع عنك هذا الحرص الذي قد فضحك ، ما هو لك لا بد أن ياتيک ، وما هو لغيرك لا ياتيک .



أما في القلب فلا!

ويحك .. الدنيا في اليد يجوز ، في الجيب يجوز ، ادخارها لسبب بنية صالحة يجوز ، أما في القلب فلا يجوز . وقوفها على الباب يجوز ، أما دخولها إلى ما وراء الباب .. لا ولا كرامة لك .



إلى متى هذا النفاق؟!

هذا النفاق إلى متى يا علماء ويا زهاد؟! كم تنافقون الملوك والسلاخين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها؟! أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمان ظلمة وخونة في مال الله عز وجل وفي عبادة .



لا يفلح على يدك أحد

يا جاهل تعلم من جهلك! .. إنك قد تركت التعلم واشتغلت بالتعليم! لا تتعب .. ما يجيء منك شيء ، ولا يفلح على يدك أحد ، لأن من لا يحسن أن يكون معلم نفسه ، فكيف يكون معلم غيره .



أنظر إلى الخلق بعين العجز

يا غلام .. لا تنظر إلى الخلق بعين البقاء .. بل انظر إليهم بعين الفناء ، لا تنظر إليهم بعين الضر والنفع .. بل انظر إليهم بعين العجز والذل ، وحد الحق عز وجل وتوكل عليه ولا تهذي فيما فرغ منه ، الدنيا وجميع ما يظهر فيها قد فرغ منه ، والخلق وجميع ما يظهر ما يتقلبون فيه قد فرغ منه ، قلب المؤمن فارغ من هذا كله .



يا جاهل .. لا تغضب من ناصح!

يا جاهل .. ما يكفيك أنك غير مُتَّقٍ حتى إذا قيل لك : اتق الله ، تغضب! .. إذا قيل لك الحق تسمع وتتهاون ، ثم إذا أنكر عليك منكر تغتاظ عليه وتشفي غيظك منه .



أما تستحي يا خادم الظلمة؟!

أما تستحي؟! قد حملك حرصك على أنك تخدم الظلمة وتاكل الحرام! . إلى متى تأكل وتخدم؟! الملوك الذين تخدمهم يزول ملكهم عن قريب .. كن عاقلاً واقنع باليسير من الدنيا حتى يأتبك الكثير من الآخرة .



الجاهل في فساد كلي وظلمة

والجاهل لا تسوي عبادته شيئاً .. بل هو في فساد كلي وظلمة كلية ، والعلم أيضاً لا ينفع إلا بالعمل به ، والعمل لا ينفع إلا بالإخلاص فيه ، كل عمل بلا إخلاص لا ينفع ولا يقبل من عامله . إذا علمت ولم تعمل كان العلم حجة عليك .



اعلم .. اعمل .. علم

تعلم واعمل وعلم .. فإن ذلك مجمع لك الخير بأسره . إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها وعلمتها
غيرك كان لك ثوابان : ثواب العلم وثواب التعليم . الدنيا ظلمة والعلم نور فيها ، فمن لا علم له فهو يتخبط
في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يصلح .



وافضيحتاه .. كيف لا أستحي منك؟!

يا من يدعي العلم! لا تأخذ من يد نفسك وخبعتك وشيطانك .. لا تأخذ من يد وجودك .. لا تأخذ من يد
ريائك ونفاقك ، زهدك ظاهر ، ورغبك باخن ، هذا زهد باخل ، أنت معاقب عليه .. تدلس على الحق عز
وجل ، وهو يعلم ما في خلوتك وما في جلوتك وما في قلبك؟! ليس عنده خلوة ولا جلوة ولا ستر ، قل :
واحياه .. واويلاه .. وافضيحتاه! فكيف يطلع الحق عز وجل على جميع أفعالي في ليلي ونهاري وهو ناظر وأنا لا
أستحي من نظره؟! .



لا يبغض المؤمن إلا المنافق

كل من في قلبه إيمان يحب المؤمن ، وكل من في قلبه نفاق يبغضه .



كيف تعلم أنك محجوب ؟

إذا علمت ورأيت أن قلبك لا يدنو من الحق عز وجل ، ولا تجد حلاوة العبادة والأنس .. فاعلم أنك لست
بعامل ، وأنت محجوب لأجل الخلل الذي في عملك .

ماذا الخلل ؟ الرياء والنفاق والعجب!! يا عامل عليك بالإخلاص وإلا فلا تتعب ، عليك بالمراقبة للحق عز
وجل في الخلوة والجلوة .



غض بصرك .. واشكر ربك

احذر من الحق عز وجل .. غض عينيك عن النظر إلى المحرم ، واذكر نظر من لا تبرح من نظره وعلمه ،
إذا لم تناظر الحق عز وجل ولم تنازعه تمت عبوديتك له وصرت عبداً حقاً ، وتدخل في زمرة من قال في
حقهم : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ... } [الحجر : 42].

إذا تحق شكرك لله عز وجل ، ألهم قلوب الخلق وألسنتهم بالشكر لك والتودد إليك ، فحينئذ لا خريق
للسيطان وأعوانه عليك .



عليك بصحبة العبودية

عليك بصحبة العبودية ، وهي : امتثال الأمر والانتفاء عن النهي والصبر على الآفات . أساس هذا الأمر
التوحيد ، والثبات عليه الأعمال الصالحة . الأساس ما أحكمته! على أي شيء تبني؟! . النية ما صحت لك ،
كيف تتكلم؟! سكوتك ما تم لك ، كيف تنطق هذا الكلام على الخلق نيابة عن الرسل؟! . لأنهم هم الذين
كانوا خطباء الخلق ، فلما ذهبوا أقام الحق عز وجل العلماء العمال بعلمهم مقامهم وجعلهم ورثتهم .



اترك شهواتك تحت أقدامك

يا غلام .. اترك شهواتك تحت أقدامك ، وأعرض عنها بكل قلبك ، فإن كان لك شيء منها في سابقة علم الله عز وجل فهو يجيئك في وقته .. مهنا مكفى مطيباً ، فتاخذه بيد العزلا بيد الذل ، ومع ذلك قد حصل لك عند الله عز وجل ثواب الزهد فيه .. ونظر إليك بعين الكرامة .. لأنك لم تشره وتلح في خلبه .



تدعي العلم وتفرح كالجهال!

ويحك .. تدعي العلم وتفرح فرح الجهال وتغضب كغضبهم ، فرحك بالدنيا وإقبال الخلق عليك ينسبك الحكمة ويقسى قلبك .. إن كان ولا بد من الفرح فافرح إذا كان دنيا وبذلتها في خاجة الله عز وجل ، تنفع بها خدام الحق عز وجل وتعينهم على خاعاتهم .



ذكرك الموت يهون المصائب

من أراد أن يحصل له الرضا بقضاء الله عز وجل .. فليدم ذكر الموت .. فإن ذكره يهون المصائب والآفات . ولا تتممه على نفسك وعلى مالك وولدك ، بل قل : ربي أعلم بي مني ، فإذا دمت على ذلك جاءتك لذة الرضا والموافقة ، فتذهب الآفات بأصولها وفروعها ، ويجيئك بدلها النعم والطيبات ، لما وافقت وتلذذت بالرضا في حال البلاء ، جاءتك النعم من كل جانب ومكان .



شكر النعمة .. وصبر الضيق

سعة الرزق فتنة مع عدم الشكر ، وضيق الرزق فتنة مع عدم الصبر ، الشكر يزيدك من النعم ويقربك إلى ربك عز وجل ، والصبر يثبت أقدام قلبك وينصره ويؤيده ويظفره ، وعاقبته محمودة دنيا وآخره ، الاعتراض على الحق عز وجل حرام يُظلم به القلب والوجه .



ادع الله أن يصبرك

ويحك يا جاهل .. بدل ما تشغل نفسك بالاعتراض اشغلها بالسؤال للحق عز وجل ، شاغلها به حتى تذهب
أوقات البلى وتنطفئ نيران الآفات .. إذا تحيرت قل : يا دليل المتهيرين دلني . إذا ابتليت وعجزت عن الصبر ،
قل : إلهي أعني وصبرني واكشف عني .



لا يغرك شبابك ومالك

لا يغرك شبابك ومالك وجميع ما أنت فيه ، عن قريب يؤخذ منك جميع ما أنت فيه ، وتذكر تفريطك
وتضييعك لهذه الأيام في البطالات فتندم ، ولا ينفك الندم .. ما دمت مع غير الله عز وجل .. فانت في هم
وغم وشرك وثقل .. أخرج من الخلق بقلبك واتصل بالحق عز وجل .. هذا الذي أنت فيه لا يصح ولا يتم .. لأن
أساسه واه ما هو محكم .. هو مزيلة وقد بنيت على ربه ، تب إلى الحق عز وجل ، واسأله تغيير ما أنت عليه
وفيه من خلب الدنيا والإعراض عن الآخرة .



من استغنى برأيه ضل

يا غلام .. أنت فارغ من الآخرة ملآن بالدنيا ، ويغمني حالك ويغمني فراقك للصالحين وترك مجالستهم
واستغناؤك بالدنيا ، أما علمت أن من استغنى برأيه ضل؟! ما من عالم إلا ويحتاج إلى زيادة علم ، ما من
عالم إلا وغيره أعلم منه.



فرَّغت قلبك من الحق فامتلاً بالدنيا!

يا غلام .. إني أرى تصاريحك غير تصاريف المراقبين لله عزَّ وجلَّ الخائفين منه ، تواصل أهل الشر والفساد وتفارق الأولياء والأصفياء! . قد فرَّغت قلبك من الحق عزَّ وجلَّ وملأته من الفرح بالدنيا وأهلها وحطامها .. أما علمت أن الخوف شحنة في القلب ، ومنور له ومبَيِّن ومفسر؟! . إن دمت على هذا فقد ودعت السلامة دنيا وأخرة .



من مات قامت قيامته

لو ذكرت الموت قلَّ فرحك بالدنيا وكثر زهدك فيها : من أخرَّ الموت كيف يفرح بشيء..
آخر الأحزان والأفراح ، والغنى والفقر ، والشدة والرخاء ، والأمراض والأوجاع .. الموت ، من مات قامت قيامته ، وقرب البعيد في حقه .



كُنْ كُلَّكَ خِائِة

اجهد أن تكون كلَّكَ خِائِة ، فإذا فعلت ذلك صرت بجملتك لربك عزَّ وجلَّ ، المعصية وجود النفس والطاعة فقدانها ، تناول الشهوات وجود النفس ، والامتناع عنها فقدانها ، امتنع عن الشهوات ولا تتناولها إلا موافقة لقدر الله عزَّ وجلَّ لا باختيارك وشهواتك .



تعلق بذيل رحمة ربك

يا غلام .. كن أنت واعظ نفسك ولا تحتج إليّ ولا إلى غيبي ، وعظي على ظاهرك ، ووعظك على باخنك ،
عظ نفسك بدوام ذكر الموت وقطع العلائق والأسباب .. تعلق برب الأرباب الخلاق العظيم العليم ، تعلق بذيل
رحمته وتعلق برأفته . لا تشتغل بغيره عنه فإنه يحجبك عنه.



اهجموا على الأعمال!

ويلكم ما تستحون؟! خاغتكم ظاهرة ومعاصيكم باخنة ، أنتم عن قريب ماخوذون بيد الموت والسقم ..
وأنتم مقصرون في الأعمال ، ما تستحون؟! قد رضيتم بالبطالة في نهاركم وليلكم ، تريدون ما عند الله عزّ
وجلّ مع التقصير ، اهتموا على الأعمال وقد تعودتها نفوسكم ، لكل داخل دهشة وفي الآخر تصفون وتنزل
الأكدار ، إذا تبتم لا بد من بداية ونهاية .



خصلتان لا يفلح صاحبهما

ويحك .. قد جمعت بين حب الدنيا وبين التكبر ، وهاتان خصلتان لا يفلح صاحبهما إن لم يتب منهما ، كن
عاقلاً! من أنت ؟ ومن أي شيء خلقت ؟ ولأي شيء خلقت ؟ لا تتكبر فما يتكبر إلا جاهل ، يا قليل العقل تطلب
الرفعة بالتكبر .. اعكس ثصب.



التواضع وحسن الأدب يقربك

التواضع وحسن الأدب يقربك ، والتكبر وسوء الأدب يبعدك ، الطاعة تصلحك وتقربك ، والمعصية تفسدك
وتبعدك .



لا تتبع الدين بالتين

يا غلام .. لا تتبع الدين بالتين ، لا تتبع دينك بدين السلاخين والملوك والأغنياء وأكلة الحرام ، إذا أكلت بدينك اسود قلبك ، وكيف لا يسود وأنت تعبد الخلق ؟ يا مخذول لو كان في قلبك نور لفرقت بين الحرام والشبهة والمباح ، وبين ما يسود قلبك وينوره ، وبين ما يقرب قلبك ويبعده .



ابن بنية .. واقنع بقسمك

يا من يبني القصور والدور ويذهب عمره في عمارة الدنيا! لا تبني شيئاً بغير نية صالحة ، فاساس البناء في الدنيا النية الصالحة ، لا يكون بناؤك بنفسك وهواك ، الجاهل يبني في الدنيا بنفسه وهواه وخبعه وعادته ، فلا جرم لا تصح له قرينة صالحة ، ولا يتهمنا بما بناه ويسكنه غيره ، ويقال له يوم القيامة : لم بنيت ؟ ومن أين أنفقت ؟ ولم أنفقت ؟ يحاسب على الجميع ، اخلب الرضا والموافقة ، واقنع بقسمك ولا تطلب ما لم يقسم لك .



من معاني الإسلام

ويحك .. تدعي أنك مسلم وأنت معترض على الله عز وجل .. كذبت في دعواك ، الإسلام مشتق من الاستسلام لقضاء الله عز وجل مع حفظ حدود كتابه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحينئذ يصح لك الإسلام .



شؤم خول الأمل

شؤم خول الأمل هو الذي يوقعك في معاصي الله عز وجل ومخالفته ، متى ما قصرت أملك جاءك الخير ، فتمسك به إن أردت الفلاح .



لا تصحب موتى القلوب

أنت ميت القلب وصحبتك أيضاً ملوتى القلوب ، أنت قبر تأتي قبراً مثلك ، ميت تأتي ميتاً مثلك ، أنت زَمِنٌ
يقودك زَمِنٌ مثلك ، أعمى يقودك أعمى مثلك .

اصحب المؤمن الموقنين الصالحين ، واصبر على كلامهم واقبله واعمل به وقد أفلحت.

كم تتعلم ولا تعمل

كم تتعلم ولا تعمل! . اخو ديوان العلم ثم اشتغل بنشر ديوان العمل مع الإخلاص وإلا فلا فلاح لك ،
تتعلم العلم فحسب ، أنت مجتر على الحق عز وجل بأفعالك ، قد ألقيت جلباب الحياء من عيذك وقد جعلته
أهون الناظرين إليك!! . أنت أخذ بهواك ومتحرك بهواك فلا جرم يملكك هواك ، استح من الله عز وجل في
جميع أحوالك واعمل بحكمه ، إذا عملت بظاهر الحكم أدناك العمل إلى العلم بالله عز وجل .



اجعل البلية نعمة!

إذا ارتكبت الذنوب جاءت الآفات ووقعت عليك ، فإن تبت واستغفرت ربك عز وجل واستعنت به وقعت
حوالك ، لا بد لك من بلية ، فاسأل الله عز وجل أن ياتيك معها بالصبر والموافقة ، حتى يسلم ما بينك
وبينه ، فيكون الخدش في القلب لا في القلب ، في الظاهر لا في الباطن ، في المال لا في الدين ، فحينئذ
تكون البلية نعمة لا نقمة .



الكذاب ذليل في نفسه

يا منافق!.. قد قنعت من اتباعك لله عز وجل ولرسوله بالاسم لا بالمعنى ، ذلك كذب ظاهرك وباطنك ، فلا
جرم أنت ذليل في الدنيا والآخرة ، العاصي ذليل في نفسه والكذاب ذليل في نفسه .



لا تبغ عزيزاً بذليل!

يا عالمًا! لا تدنس علمك عند أبناء الدنيا ، لا تبغ عزيزاً بذليل ، العزيز : العلم ، والذليل : هو الذي في أيديهم من الدنيا ، الخلق لا يقدر أن يعطوك ما ليس لك مقسوم ، إنما قسمك يجري على أيديهم ، فإذا صبرت جاء قسمك على أيديهم وأنت عزيز .



ذكر القلب أولاً ثم اللسان

ذكر اللسان بلا قلب لا كرامة ولا عزة لك به ، الذكر هو ذكر القلب ثم ذكر اللسان .. اذكره حتى يذكرك ، اذكره حتى يحط الذكر عنك أوزارك .



الطامع فارغ كالطمع

كلام الطامع لا يخلو من رجة ومداينة ، لا يمكنه الملاحقة ، يكون كلامه قشراً فارغاً لا لب فيه ، صورة بلا معنى . الطامع فارغ كالطمع ، لأن حروف الطمع كلها فارغة : الطاء والميم والعين . يا عباد الله عز وجل أصدقوا وقد أفلحتم ، الصادق همته عالية في السماء ، لا يضره قول قائل .



لا تجعل الدنيا كبيرة في عينيك

يا غلام .. لو كان عندك ثمرة العلم وبركته لما سعيت إلى أبواب السلاخين في حظوظ نفسك وشهواتها ، العالم لا رجلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق ، والزاهد لا يدين له يأخذ بهما أموال الناس ، والمحب لله عز وجل لا عينين له ينظر بهما إلى غيره .. لا تكبر في عيني رأسه الدنيا .



أكثركم يتبعون الزاعق الناعق

كونوا عقلاء ما أنتم على شيء! الأكثر منكم يتبعون كل زاعق وناعق ، الأكثر من المتكلمين كلامهم من ألسنتهم لا من قلوبهم ، زعقات المنافق من لسانه ورأسه وزعقات الصادق من قلبه .



كيف تدل على الله يا أعمى؟!

كيف تدل عليه وأنت أعمى؟! كيف تقود غيرك؟ قد أعماك هواك وخبعك ومتابعتك لنفسك ومحبتك لدنياك ورياستك وشهواتك .



قصر أملك ولا تكن حريصاً

الأحمق يعصي الله عز وجل والعاقل يطيعه ، الحريص على جمع الدنيا يرأى وينافق والقصير الأمل لا يفعل ذلك ، المؤمن يتقرب إلى الله عز وجل بأداء الفرائض ويتحبيب إليه بالنوافل .



لا تفرح بثياب غيرك!

لا تستعركلمات الصالحين وتكلم بها وتدعيها لنفسك ، العارية لا تخفى .. ازرع القطن بيديك ، واسقه بيديك ، ورّبه بجهدك ، ثم انسجه وخيطه والبسه . لا تفرح بمال غيرك وثياب غيرك ، إذا أخذت كلام غيرك وتكلمت به وادعيته مقتتك قلوب الصالحين ، إذا لم يكن لك فعل فلا قول ، كل الأمر معلق على العمل ، قال الله عز وجل : { ... ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32].



اللسان ترجمان القلب

كلامك يدل على ما في قلبك ، اللسان ترجمان القلب ، فإذا كان القلب مختلطاً ، فتارة يصح الكلام وتارة يبطل ، لا تقدر تغيير الشيء عما هو وأخرى تغير ، وإذا زال تخليطه صح اللسان . إذا زال الشرك منه صح اللسان ، وإذا أشرك يقتدى بالخلق ، تغير وتبدل وتعثر وكذب .



من أحب لله وأبغض لله فاز

إذا وقع حب رجل وبغض آخر ، فلا تحب هذا وتبغض هذا بنفسك وبطبعك ، بل حكّمهما كليهما على الكتاب والسنة ، فإن وافقا الذي أحببته فدم على محبته ، وإن خالفا فارجع عن محبته ، وإن وافقا الذي أبغضته فارجع عن بغضه ، وإن لم ينفعك ذلك ولم بين لك فارجع إلى قلوب الصديقين وسلّمهم عنهما .



قصة لطيفة

اشترى رجل مملوكاً ، وكان ذلك المملوك من أهل الدين والصلاح ، فقال له : يا مملوك إيش تريد تاكل؟ فقال : ما تطعمني . فقال له : ما الذي تريد تلبس ؟ فقال : ما تلبسني . فقال له : ما الذي تحب أن تعمل من الأشغال ؟ فقال ما تامرني . فبكى الرجل فقال : خويبي لي لو كنت مع ربي عز وجل كما أنت معي . فقال المملوك : يا سيدي وهل للعبد مع سيده إرادة أو اختيار؟! . فقال له : أنت حر لوجه الله .



من أيقن باموت استقام

اشتغالك بالدنيا يحتاج إلى نية صالحة وإلا فانت ممقوت ، اشتغل بطهارة قلبك أولاً فإنه فريضة ، ثم تعرض للمعرفة ، إذا ضيعت الأصل لا يقبل منك الاشتغال بالفرع ، لا تنفع خهارة الجوارح مع نجاسة القلب ، خهر جوارحك بالسنة وقلبك بالعمل بالقرآن ، احفظ قلبك حتى تحفظ جوارحك ، كل إناء ينضح بما فيه ، أي شيء كان في قلبك ينضح منك على جوارحك .

كن عاقلاً! ما هذا عمل من يؤمن باموت ويوقن به ، ما هذا عمل من يرتقب لقاء الله عز وجل ويخاف من محاسبته ومناقشته .



تواضعك دليل صدقك

القلب الصحيح ممتليء توحيداً وتوكلاً ويقيناً وتوفيقاً وحلماً وإيماناً ، ومن الله عز وجل قريباً ، يرى الخلق كلهم بعين العجز والذل والفقر ، ومع ذلك لا يتكبر على خفل صغير منهم ، يصير كالسبع وقت لقاء الكفار والمنافقين والعصاة .. ويتواضع ويذل للصالحين المتقين الورعين وقد وصف الله عز وجل القوم الذين هذه صفاتهم فقال : { ... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... } [الفتح : 29] .



المجلس الحادي والستون

خواخرك من جنس همك

سأله سائل عن الخواخر ، فقال : ما يدريك ما الخواخر ؟ خواخرك من الشيطان والطبع والهوى والدنيا ، همك ما أهمك ، خواخرك من جنس همك .

إذا كان الله عز وجل وذكره عندك ، فلا جرم يمتلئ قلبك من قربه وتهرب خواخر الشيطان والهوى والدنيا من عندك ، للدنيا خاخر والآخرة خاخر ، فتحتاج أيها الصادق إلى دفع جميع الخواخر والسكون إلى خاخر الحق عز وجل .



النظر إلى الخلق أصل البلاء

يا غلام! .. ما يقع بيدك من الحق عز وجل شيء بنفاقك وفصاحتك وبلاغتك وتصفير وجهك وترقيع مرقعتك وجمع أكنافك .. كل ذلك من نفسك وشيطانك وشرفك بالخلق وخلق الدنيا منهم .



اخلب العلم والعلماء!

ويلك امش في خلب العلم والعلماء العمال حتى لا يبقى مشي ، امش حتى لا تطاوعك ساقاك.



ليكن كلامك جواباً!

اجتهد أن لا تبدأ بالكلام بل يكون جواباً ، إذا سالك سائل عن شيء فإن كان جوابه مصلحة لك وله وإلا فلا تجبه .



اصحب تقياً تكن مثله!

من لا يرى المفلح لا يفلح ، من لا يصحب العلماء العمال فهو من نبض التراب لا دليل له لا أم له ،
اصحبوا من له صحبة مع الحق عز وجل .



فتش عن مرآة لدينك!

فَنُشْ على من يكون مرآة لوجه دينك ، كما تنظر في المرآة وتسوي وجه ظاهرك وعمامتك وشعرك ، كن
عاقلاً ، إيش هذا الهوس ، تقول : ما أحتاج إلى من يعلمني !! .



لا يوافقك الشرع ولا العقل

يا غلام .. أنت نفس وخبع وهوى ، تقعد مع النسوان الأجانب والصبيان ثم تقول : لا أبالي .. كذبت! لا
يوافقك الشرع ولا العقل ، تضيف ناراً إلى نار ، حطباً إلى حطب ، فلا جرم يشتعل دار دينك وإيمانك! . إنكار
الشرع لهذا عام لم يستثن فيه أحداً ، حصل الإيمان والمعرفة بالله عز وجل وقوة القرب ، ثم أصبح خبيباً
للخلق نيابة عن الحق عز وجل .



الدنيا دار الآفات

هذه الدنيا فانية زاهية ، هي دار الآفات والبلايا ، ما يصفو لأحد فيها عيش ، لا سيما إذا كان حكيماً . كما
قيل : الدنيا لا تفر فيها عين حكيم .. عين زاكِر الموت . من كان السبع بحدائه فاتحاً فمه قريباً إليه كيف يستقر
قراره وتنام عينه؟! يا غافلون! القبر فاتح فمه ، سبع الموت وثمانه فاتحان فمهما.



المجلس الثاني والستون

لا تكن عبد الأمارة بالسوء!

يا قوم .. أنتم تعدون خلف الدنيا حتى تعطىكم ، وهي تعدو خلف أولياء الله حتى تعطىهم ، تقف بين أيديهم ورأسها مطأخى . اضرب نفسك بصمصامة التوحيد ، والبس لها خوذة التوفيق ، وخذ لها رمح المجاهدة وترس التقوى وسيف اليقين ، فتارة مطاعنة وأخرى مضاربة ، لا تزال كذلك حتى تذلل لك وتصير راكباً لها ، لجامها بيدك تسافر بها براً وبحراً ، فحينئذ يباهي بك ربك عز وجل ، ثم تقدم الذين بقوا مع نفوسهم ولم يتخلصوا منها ، من عرف نفسه وغلبها صارت راحلة له ، تحمل أثقاله ولا تخالفه في أمره ، لا خير فيك حتى تعرف نفسك وتمنعها حظها وتعطيها حقها . لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسكم ، لا تغتروا بدواهيها ، لا تغتروا بتناومها ، لا تغتروا بتناوم السبع فإنه يريكم أنه نائم وهو منتظر لفريسة يفترسها . هذه النفس تظهر الطمانينة والذل والتواضع والموافقة في الخير ، وهي تبطن بخلاف ذلك !! . كن على حذر مما يتم منها بعد ذلك .



الشرك بالخلق ظلماً فاحذره !

يا غلام! .. متى يصفو قلبك وأنت مشرك بالخلق؟! وكيف تفلح وأنت في كل ليلة تعين كل من تمضي إليه وتشكو إليه وتكدي منه؟ كيف يصفو قلبك وهو فارغ من التوحيد ما فيه ذرة منه؟! . التوحيد نور والشرك بالخلق ظلمة . كيف تفلح وقلبك فارغ من التقوى ما فيه ذرة؟ أنت محجوب عن الخالق بالخلق ، محجوب بالأسباب عن المسبب ، محجوب بالتوكل على الخلق والثقة بهم ، أنت دعوى مجردة ، باقة بقل ، ما تُعطى بالدعوى بلا بينة؟! .



الصالح يعظ الخلق بكل فن

المحب لله عز وجل العارف يعظ الخلق بكل فن ، يعظهم تارة بقوله ، وتارة بفعله ، وتارة بهمته .



عليك بخوذة الإيمان!

يا غلام .. عليك بخويصة نفسك عند ضعف إيمانك ، ما عليك من أهلك وجارك وجارتك وأهل بلدك وإقليمك ، فإذا قوي إيمانك ، فابرز إلى أهلك وولدك ثم إلى الخلق ، لا تبرز إليهم إلا بعد أن تتدرع بدرع التقوى ، وتترك على رأس قلبك خوذة الإيمان ، وبيدك سيف التوحيد ، وفي جعبتك سهام إجابة الدعاء ، وتركب حصان التوفيق ، وتتعلم الكر والفر والضرب والطعان ، ثم تحمل على أعداء الحق عز وجل ، فحينئذ تجيئك النصر والمعونة من جهاتك الست ، وتأخذ الخلق من أيدي الشيطان ، وتحملهم إلى باب الحق عز وجل . تامرهم بعمل أهل الجنة وتحذرهم من عمل أهل النار .



بقة تقيم عليك قيامتك!

إذا دعوت الخلق ولست على باب الحق عز وجل كان دعاؤك لهم وبالاً عليك ، كلما تحركت بركت ، كلما خلبت الرفعة اتضعت ، ما عندك من الصالحين خبر ، أنت لقلقة ، أنت لسان بلا جنان ، أنت ظاهر بلا باطن ، جولة بلا خلوة ، جولة بلا صولة . سيفك من خشب ، وسهامك من كبريت ، أنت جبان لا شجاعة لك ، أدنى سهم يقتلك ، بقة تقيم عليك قيامتك !! .



يا غلام .. عش حياة مودع

يا غلام .. قصر أملك وقلل حرصك ، صل صلاة مودع ، لا ينبغي لمؤمن أن ينام إلا ووصيته مكتوبة تحت رأسه ، فإن أبقظه الحق عز وجل في عافية كان مباركاً ، وإلا فيجد أهله وصيته ينتفعون بها بعد موته ويترحمون عليه . يكون أكلك أكل مودع ، ووجودك بين أهلك وجود مودع ، ولقاؤك لإخوانك لقاء مودع .



علمك بالمطلوب يهون المبدول

من علم ما يطلب هان عليه ما يبذل من قواه وجهده في خاجة ربه عز وجل ، ما يزال المؤمن في تعب حتى يلقي ربه عز وجل .

من ترك الوحي تزندق

الزم ما جاء به الرسول ، وهو الكتاب والسنة ، فإن من تركهما تزندق ومن رقبة الإسلام مرق ، فيكون النار والعقاب موئله أجلاً واملقت له عاجلاً !! .



لولا الامتحان لكثرت الدعاوى

لولا الامتحان لكثرت الدعاوى ؛ من ادعى الحلم نمتحنه بالإغصاب ، ومن ادعى الكرم نمتحنه بالطلب منه ، وكل من ادعى شيئاً نمتحنه بضده ، دعوا عنكم الهوس والزموا التقى في جميع أحوالكم .. اتقوا الشرك في الأصل والمعاصي في الفرع ، ثم تعلقوا بحبل الكتاب والسنة ولا تخلوهما من أيديكم . الحق عز وجل لا يجمع على عبد خوفين ، قد تقدم خوف القوم في الدنيا عند أكلهم وشربهم ولبسهم ونكاحهم وجميع تصرفهم ، تركوا الحرام والشبهة وكثيراً من الحلال خوفاً من حساب ربهم عز وجل وسوء عذابهم ، تورعوا في مأكولهم ومشروبهم وجميع أحوالهم .



ويحك .. قميص إسلامك مخرق!

ويحك .. قميص إسلامك مخرق! ، ثوب إيمانك نجس ، أنت عريان ، قلبك جاهل .. صدرك بالإسلام غير مشروح ، باخنك خراب وظاهره عامر ، صحائفك مسودة ، دنياك التي تحبها عنك راحلة ، والقبر والآخرة مقبلان إليك .

تنبه لأمرك وما تصير إليه عن قريب ، ربما كان موتك اليوم أو في هذه الساعة ، يحال بينك وبين آمالك ، ما تؤمله من الدنيا لا تجده ولا تلحقه ، وما قد أنسيته من الآخرة فهو يلحقك ، الاشتغال بغير الله هوس ، والخوف من غيره والرجاء له هوس ، أحد لا يضرنا ولا ينفعنا غير الله عز وجل ، هو الذي جعل لكل شيء سبباً .



أساسك البدع ، وبنائك الرياء!

يا غلام .. أمرك مبني على غير أساس فلا جرم تقع حيطانك ، أساسك البدع والضلالات ، وبنائك الرياء والنفاق ، فكيف يثبت لك بناء ؟ ذلك هوى وخبيع ، تاكل وتشرب وتنكح وتجمع بالهوى والطبع ، ليس لك نية صالحة في شيء من ذلك ، المؤمن في كل أحواله له نية حسنة في كل أعماله ، لا ياكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينكح إلا بأمر الله عز وجل .



إني أراكم تلعبون!

إني أراكم تلعبون بكتاب الله عز وجلّ وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصالحين ، تلعبون بذلك بجهلكم ، لو اتبعتم الكتاب والسنة لرأيتم عجباً ، ما زالوا يصبرون معه على ما يريد حتى أعطاهم ما يريدون ، الفقر والبلاء مع عدم الصبر عقوبة ، ومع وجوده كرامة يتنعم المؤمن في بلائه بقرب ربه عز وجلّ ومناجاته له .



كيف يُطلب جاء من غير الله ؟

ويحك .. كيف تطلب الجاه والمال من هذا الملك وتعتمد عليه في مهماتك ، وهو عن قريب إما معزول أو ميت ، يذهب ماله وملكه وجاهه ، وينقل إلى قبره الذي هو بيت الظلمة والوحشة والوحدة والغم والهم والدود ، لا تتكل على من يعزل أو يموت فيخيب رجاؤك وينقطع مددك ، المؤمن ارتفعت همته عن الأرض وعن الدنيا وأبنائها.



صارت المملوك والدنيا آلهة!

قد صارت المملوك لكثير من الخلق آلهة ، قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحوال والقوى آلهة!! . ويحكم! جعلتم الفرع أصلاً ، المرزوق رازقاً ، المملوك مالكاً ، الفقير غنياً ، العاجز قوياً ، الميت حياً . لا كرامة لكم ، لا نتبعكم ولا نتخذ مذهبكم ، بل نكون ناحية منكم على تل السلامة ، على تل السنة وترك البدعة ، على تل التوحيد والإخلاص وترك الرياء والنفاق ، ورؤية الخلق بعين العجز والضعف والقهر . إذا عظمت جبابرة الدنيا

وفراعنتها وملوكها وأغنياءها ، ونسيت الله عزَّ وجلَّ ولم تعظمه ، فحكمك حكم من عبد الأصنام ، تُصَيِّرُ من عظمت صنمك .



صلاح القلب بأربعة أشياء

أربعة أشياء منها صلاح القلب :

الأول : النظر في اللقمة .

الثاني : الفراغ للطاعة .

الثالث : صيانة الكرامة .

الرابع : ترك ما يشغلك عن الله .



دواء الغفلة والوسواس

أنت إذا قمت إلى الصلاة ؛ بعث واشترت ، وأكلت وشربت ونكحت ، بقلبك بوسوستك! .

قيل له : ما دواء ذلك ؟

قال : تصفية لقمته من الحرام والشبهة ، والدواء الثاني مخالفة النفس فيم تمالك به من ارتكاب المناهي.



مصاحبتك الجاهل دليل جهلك

يا بني! إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، ذهب أمس بما فيه

شاهد لك وعليك ، وغداً لا تدري تلحقه أو لا . إنما أنت ابن يومك ..

ما أغفلك؟! علامة غفلتك مصاحبتك الغفلة ، يا أحمق من لا يظهر عليه أمانة الحق لماذا تصحبه؟! ، لمَ

تصحب من أساسه وإي؟! ظاهره نفس باخنه تجلّد وتواقح على الحق عزَّ وجلَّ .



أربعة ليست من الدنيا!

ليس من الدنيا : بيت يكثر ، ولباس يكثر ، وخبز يشبعك ، وزوجة تسكن إليها .

الحياة الدنيا : الإقبال على الخلق والإدبار عن الحق .



يا قوم .. الإسلام يبكي ويستغيث!

يا قوم .. الإسلام يبكي ويستغيث! يده في رأسه من هؤلاء الفجار ، من هؤلاء الفساق ، من هؤلاء الظلمة ،
من اللابسين ثياب الزور ، من المدعين ما ليس فيهم .



مل اعلم .. اعمل .. علم

تعلم واعمل وعلم .. فإن ذلك مجمع لك الخير بأسره . إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها وعلمتها
غيرك كان لك ثوابان : ثواب العلم وثواب التعليم . الدنيا ظلمة والعلم نور فيها ، فمن لا علم له فهو يتخبط
في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يصلح .

اعلم .. اعمل .. علم

تعلم واعمل وعلم .. فإن ذلك مجمع لك الخير بأسره . إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها وعلمتها
غيرك كان لك ثوابان : ثواب العلم وثواب التعليم . الدنيا ظلمة والعلم نور فيها ، فمن لا علم له فهو يتخبط
في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يصلح .

قائمة باهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

(i) المخطوطات

1- الالوسي، شهاب الدين أبو الثناء (ت1270هـ/1854م) ، الطراز المذهب في شرح الباز

الاشهب، مخطوط في المكتبة القادرية، رقم 1405

2- الإمام الشطنوفي، علي بن يوسف (ت713هـ/1313م)، بهجة الأسرار، مخطوطة

المكتبة القادرية تحت الرقم 1560.

- 3- الإمام الشطنوفى، علي بن يوسف (ت713هـ/1313م)، بهجة الأسرار، مخطوطة دار المخطوطات تحت الرقم 3216.
- 4- النووي، يحيى بن شرف (ت676هـ/277م)، بستان العارفين، مخطوط في مكتبته القادرية، رقم 932.
- 5- الهروي، علي بن سلطان القاري (ت1014هـ/1605م)، (من علماء الدولة العثمانية)، نزهة الخاخر في ترجمة الإمام عبد القادر، مخطوطة المكتبة القادرية تحت رقم 724.
- 6- الكيلاني (1944-)، فالح نصيف الحجة الكيلاني، شرح ديوان السيد الإمام عبد القادر الجيلي، مخطوطة عند المؤلف 726.
- 7- القادي (?)، ظهير الدين، الفتح المبين، مخطوط محي هلال السرحان.
- 8- مؤلف مجهول (?)، انساب الطالبين، مخطوط سالم اللوسي.
- 9- قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (هـ726)، مناقب الإمام عبد القادر، مكتبة (الاسكوريال) باسبانيا المحفوظة تحت الرقم (417/2)، مصورة الدكتور محي هلال السرحان.
- 10- العمري، ابو الحسن ()، المجددي في النسب، مخطوط مكتبة الاسكندرية رقم 3742.
- 11- الكيلاني ()، علاء الدين، تحفة الابرار ولوامح الابرار، مخطوطة جامعة برنستون، مصورة السيد عبدالستار هاشم سعيد الكيلاني (لواء مهندس متقاعد)
- 12- ابن الوردي (ت749هـ)، مخطوط خريدة العجائب وفريدة الغرائب، نسخة سالم اللوسي.
- 13- جواد، مصطفى (1996-)، اصول التاريخ والادب، مخطوطة في 24 مجلد وأغلبها نقولات من مخطوطات نادرة، لدى ولده جواد مصطفى جواد، ومخطوطة مختصر الانساب وهي ملك الدكتور حسين علي محفوظ. وكتابه، في التراث العربي، تحقيق: محمد جميل شلش وعبد الحميد العلوجي، منشورة وزارة الاعلام، بغداد، 1977.
- 14- ابن الجوزي (ت597هـ/1201م)، درر الجواهر من كلام الإمام عبد القادر، مخطوطة نادرة في بضع صفحات عند العلامة سالم اللوسي، ص3، وذكر هذا الكتاب ووثقه،

التادفي في قلائد الجواهر، ص21 ويوسف زيدان في تحقيقه للديوان، ص41، ودرر العقود، مخطوط الاسكوريال، رقم 8/582 الورقة 981 مصورة سالم الالوسي.

15- اليافعي، ابن اسعد ت(768هـ)، خلاصة المفاهر في مناقب الإمام عبد القادر، مخطوط جامعة برنستون، مصورة السيد عبد الستار هاشم سعيد الكيلاني.

16- البغدادي، عباس ()، نيل المراد في تاريخ اهل بغداد، مخطوط فريد فرغ منه مؤلفه في شعبان سنة 1333هـ، مخطوطة محي هلال السرحان.

(ب) المصادر العربية

1- ابن الأثير، محي الدين المبارك بن محمد الجزبي، (ت630هـ / 1208م)، الكامل في التاريخ، ج9، دار صادر، بيروت، 1975.

2- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفى، (ت930هـ / 1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، دار الكتب، القاهرة، 1952.

3- ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ / 1469م)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

4- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، (ت768هـ / 1327م)، الفتاوى، المكتبة السلفية، الرياض، 1960.

5- ابن الجزبي، أبو الخير محمد بن محمد (ت833هـ / 1429م)، غاية النهاية، ج1، القاهرة، 1932.

6- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ / 1201م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، مطبعة حيدرآباد، دائرة المعارف الإسلامي، 1969.

7- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن علي العسقلاني (ت853هـ / 1449م)، الدرر الكامنة، ج3، مطبعة حيدرآباد، الهند، 1929.

- 8- ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي (456هـ/1604م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، 1967.
- 9- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1972.
- 10- ابن الدبيثي، محمد بن سعيد بن محمد (ت637هـ/1239م)، المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد، انتقاء الذهبي، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1952.
- 11- ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي (ت795هـ/1392م)، الذيل على خبقات الحنابلة، ج1-2، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1952.
- 12- ابن الصابوني، جمال الدين (ت680هـ/1283م)، تكملة إكمال الإكمال، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1957.
- 13- ابن عربي، محي الدين (ت638هـ/1240م)، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى، ج6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1994.
- 14- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحق الحنبلي (ت1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4-5، مكتبة الموقدسي، القاهرة، 1929.
- 15- ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد (ت697هـ/1297م)، مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970.
- 16- ابن كثير، إسماعيل بن عمر أبو الفداء (ت774هـ/1372م)، إ- البداية والنهاية، ج6، مطبعة السعادة، مصر، 1968.
- ب- تفسير القرآن العظيم، ج13، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1972.
- 17- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك أيوب الحميدي (ت218هـ/820م)، السيرة النبوية، ج3، تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1966.

- 18- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (ت665هـ/1269م)، الروضتين في أخبار الدولتين، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1962.
- 19- البغدادي، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد بن رجب الحنبلي (ت795هـ/1392م)، ذيل خبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1952.
- 20- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن خاهر (ت429هـ/1031م)، الفرق بين المذاهب، دار الجيل، بيروت، 1965.
- 21- التادفي، محمد بن عيسى، (ت963هـ/1465م)، قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر، دار الباز، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1998.
- 22- التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت384هـ/994م)، الفرج بعد الشدة، دار صادر، بيروت، 1978.
- 23- الجبلي، محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله (ت561هـ/1262م).
- ا- فتوح الغيب، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1960.
- ب- الغنية لطالبي خريق الحق، تحقيق فرج توفيق الوليد، ج3، دار الفكر، بيروت، 1995.
- ج- الفتح الرباني والفيض الرحمانى، دار الجميل، ألمانيا، 1997.
- د- تفسير الجبلي، باعثناء فاضل جيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- ذ- الجبلي، عبد القادر، ديوان عبد القادر الجبلي، تحقيق يوسف زيدان، دار الجيل، بيروت، 1983.
- 24- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1067هـ/1656م)، كشف الظنون، مكتبة إسماعيليان، خهران، 1947.
- 25- الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، (ت626هـ/1229م)، معجم البلدان، ج5، بيروت، 1956.
- 26- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1347م).

- أ- سير أعلام النبلاء، ج13، 12، دار الرسالة للطباعة، بيروت، ط4، 1986.
- ب- العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد، الكويت، 1963.
- ج- المختصر المحتاج إليه، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951.
- 27- الزبيدي، محمد مرتضى، (ت 1205 هـ/ 1790 م).
- أ- تاج العروس في شرح جواهر القاموس، مطبعة الكويت، الكويت، 1980.
- ب- إتحاف السعادة للمتقين في شرح إحياء علوم الدين، ج1، المطبعة الملكية، المغرب، 1936.
- 28- سبط ابن الجوزي، يوسف (ت 654 هـ/ 1256 م)، مرآة الزمان، مطبعة حيدر آباد، الهند، 1936.
- 29- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت 771 هـ/ 1369 م)، خبقات الشافعية، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1965.
- 30- السهروردي، عمر بن محمد بن عبد الله البكري (ت 632 هـ/ 1134 م)، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي للطباعة، بيروت، 1966.
- 31- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ/ 1505 م).
- أ- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1934.
- ب- حسن المحاضرة، ج1، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1900.
- 32- السمعاني، عبد الكريم بن محمد، (506 هـ/ 1880 م)، كتاب الأنساب، تحقيق مرجليوث، مطبعة بريل، ليدن، 1912.
- 33- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت 1250 هـ/ 1834 م)، البدر الطالع، ج1، دار الكتب للطباعة، القاهرة، 1946.
- 34- الطبي، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت 310 هـ/ 912 م).
- أ- جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج5، تحقيق محمد أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1978.

ب- تاريخ الأمم والملوك، ج5-1 ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج4-5 دارالمعارف للطباعة، القاهرة، 1978.

35- الشطنوفى، علي بن يوسف(ت713هـ/1313م)، بهجة الاسرار، تحقيق ، جمال الدين فالح الكيلاني ، مطبعة الحكومة ، الجزائر، 2011.

36- القادري، ابو الظفر ظهير الدين، (ت.م)، الفتح المبين ، المطبعة المركزية، القاهرة، 1888.

37- الفرخبي، أبو عبد الله محمد بن احمد الانصاري، (ت671هـ/1272م) ، الجامع لأحكام القرن، ج5، دار احياء التراث العربي ، بيروت، 1985.

38- الفرخبي، عريب ابن سعيد، (ت369هـ/971م) ، صلة تاريخ الطبي ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، دارالمعارف للطباعة ، القاهرة، 1971.

39 - الكتبي، محمد بن شاکر (ت764هـ/1362م).

أ- فوات الوفيات، ج2-1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية للطباعة، القاهرة، 1954.

ب- عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامرونبيلة عبد المنعم داود، دارالرشد للطباعة، بغداد، 1983.

40- محمد فؤاد عبد الباقي ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان(البخاري ومسلم) ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982.

(ج) قائمة المراجع

1- إبراهيم، حبيب جميل، تاريخ متصوفة بغداد، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1988.

2- إقبال، محمد، ديوان إقبال، دار الصحابة للطبع، باكستان، 1996.

- 3- جواد، مصطفى ، وأحمد سوسة، خارخة بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1959.
- 4- الجيلي ، عبدالرزاق ، الإمام عبد القادر الجيلي ، دار القلم بيروت، 1983.
- 5- الجيلي ، ماجد، هكذا ظهر صلاح الدين، المعهد العالي الاسلامي، الولايات المتحدة الامريكية، 1996.
- 6- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1986.
- 7- الخصري، الإمام محمد، الدولة العباسية، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1993.
- 8- رؤوف، عماد عبد السلام.
- ا- الآثار الخطية في المكتبة القادرية، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971.
- ب- مدارس بغداد ، بغداد ، 1985.
- ج- معالم بغداد في العصور المتأخرة، بغداد ، 2002.
- 9- زامبارو، معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة زكي محمد حسن، مطبعة فؤاد الأول، القاهرة ، 1951.
- 10- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج5، مطبعة النهضة، القاهرة ، 1949.
- 11- السامرائي، عبدالله سلوم، عبد القادر الجيلي قطب الاولياء، مخطوط مصور لدى الإمام عفيف الدين الكيلاني.
- 12- السامرائي، يونس بن ابراهيم، الإمام عبد القادر الجيلي ، حياته وأثاره، مكتبة الشرق الجديد للطباعة، بغداد، 1988.
- 13- الشرقاوي، حسن، معجم الفاظ الصوفية، دار مختار للنشر، القاهرة ، 1987.
- 14- شعبان، محمد عبد الحي محمد، التاريخ الإسلامي ، تفسير جديد ، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1983.
- 15- شوقي، ضيف، العصر الاسلامي، الكويت، 1995.

- 16- عاشور، سعيد عبد الفتاح، مصرفي عهد المماليك، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1966.
- 17- عطية الله، احمد، القاموس الاسلامي، ج1، 2، 3، دار مكتبة النهضة للطباعة، القاهرة، 1976.
- 18- عفيفي، ابو العلا، التصوف والثورة الروحية في الإسلام، دار جامعيون ، مصر، 1997.
- 19- عنان، محمد عبد الله، المعارك الحاسمة في التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953.
- 20- عمر، فاروق ، الدولة العباسية ، دار الشروق ، الاردن ، 2000.
- 21- اللامي ، علاء ، السرخان المقدس ، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، 2004.
- 22- امدرس، عبد الكريم، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج5، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1997.
- 23- المودودي، ابو الاعلى، تفسير سورة النور، المكتبة الاسلامية، القاهرة، 1958.
- 24- النجار، محمد رجب، حكايات الشطار والعيارين، عالم المعرفة، الكويت ، 1981.
- 25- شابي، بروفيسورة جاكين، (1998). عبد القادر الجيلاني بين الحقيقة التاريخية و الأسطورة الأدبية (ترجمة الدكتور حسن سحلول)، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، السنة (18) كانون الثاني (70)، دمشق. نسخة الكترونية خبعت بتاريخ 14 / 9 / 2004.
- 26- محمد اركون، الفكر الاسلامي، نقد واجتهاد ، ترجمة هاشم صالح ،دار الساقبي، بيروت، 2009.
- 27- جعيط ، هشام، في السيرة النبوية، دار الطليعة ، بيروت، 1990.
- 28- الخيون ، رشيد ، الاديان والمذاهب في العراق ، دار الجمل ، المانيا ، 2004.
- 29- جواد، الدكتور مصطفى، سوسة، الدكتور احمد (1958). دليل خارخة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، المجمع العلمي العراقي، بغداد

(د) الرسائل الجامعية

- 1- التل، عمرسليم عبد القادر، متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية، 2009.
- 2- سهيل، جعفر صادق ، عبد القادر الجيلي ومذهبه الصوفي، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1975.
- 3- القحطاني، سعيد، الإمام عبد القادر الكيلاني وأرائه الاعتقادية والصوفية، اخروحة دكتوراه ، كلية الدعوة، جامعة أم القنى، الرياض، 1997.
- 4- المهداوي ، ايمان كمال مصطفى، عبد القادر الجيلي اديبا، رسالة مجاستير، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، 1996.
- 5- عليوي ، جعفر موسى، عبدالقدر الجيلي والتصوف ، اخروحة دكتوراة ، كلية الاداب جامعة بغداد 2002.
- 6- البلاخي ، علي محمود علي ، الدر الفاخرفي ترجمة الإمام عبد القادر ، دراسة وتحقيق ، علي محمود علي البلاخي، رسالة ماجستير، معهد التاريخ للدراسات العليا 1999(نسخة البلاخي الشخصية).
- 7- ماجد عرسان الكيلاني، نشأة القادرية، رسالة ماجستير، جامعة بيروت العربية، 1996.

سيرة الباحث : جمال الدين فالح الكيلاني

بقلم أ.د. إبراهيم خليل العلاف

أستاذ التاريخ الحديث - جامعة الموصل

صديق عزيز ، أتابع منذ فترة خويلة ، نشاطاته العلمية ، ولي معه علاقة تبادل علمي هو جمال الدين بن فالح بن نصيف بن جاسم بن أحمد الحجية بن عبد الكريم بن عبد الرحيم بن خميس بن ولي الدين محمد بن عثمان بن يحيى بن حسام الدين بن نور الدين بن ولي الدين بن زين الدين الكبير بن شمس الدين بن شرف الدين بن محمد الهتاك بن عبدالعزيز بن الباز الاشهب الإمام عبدالقادر الجيلي بن ابي صالح موسى بن عبدالله الجيلي بن يحيى الزاهد بن محمد المدني بن داود امير مكة بن موسى الثاني بن عبدالله الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبي بن اسدالله الغالب علي بن ابي خالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم اجمعين، من الأسرة الكيلانية، ذرية الإمام عبدالقادر الجيلي....

من مواليد 1972، ومنذ خفولته أولع بحب التاريخ ، وقرأ الكتب المتنوعة ، تأثر بوالده الأستاذ فالح الحجية الكيلاني -الأديب والشاعر، وأخذ عنه حب الأدب والمعرفة وتذوق الشعر، ويحكم نشاته في الخالص وعلاقة القرابة التي تربطه بالعلامة سالم عبود اللوسي ، تعرف بالعلامة مصطفى جواد وتراثه ، واهتم منذ بواكير حياته العلمية بالتراث القادي والذي بات تخصصه الدقيق، ويعد نفسه من تلاميذ الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ومدرسته التاريخية، مارس التدريس في التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي ، كما حاضر في جامعة بغداد والجامعة المستنصرية واتحاد المؤرخين العرب وجامعات القادسية والبصرة وواسط حصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كلية التربية -ابن رشد -جامعة بغداد . كما نال شهادة (دبلوم) في اللغة الانكليزية من معهد المعلمين . لم يقف عند هذا الحد ، بل غد السير ، وأكمل دراسته وحصل على شهادة (دكتوراه) فلسفة في التاريخ الإسلامي. ولحبه التاريخ والدراسات التاريخية انتمى إلى "معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع لاتحاد المؤرخين العرب ببغداد"، وحصل على شهادة ماجستير آداب في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية. حصل على لقب "باحث علمي" من مركز دراسات التاريخ والوثائق والمخطوطات سنة ١٩٩٨

والدكتور الكيلاني عضو اتحاد المؤرخين العرب 1996 وعضو الهيئة العربية لكتابة تاريخ الانساب 1998 وعضو جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق 1995 وعضو (شرف) لجنة الدراسات القادرية المغرب 1997.

مشرف مركز دراسات الإمام عبد القادر الجيلاني المتخصص بالتراث والتاريخ والأنساب القادرية 2011 . كرم بالعديد من الشهادات التقديرية من المجمع العلمي العراقي 1996 والهيئة العربية لكتابة تاريخ الأنساب 2000 ، والهيئة العامة للآثار 1997 وجامعة بغداد 1999 وغيرها .

اهتم بتاريخ الأنساب وشغل نفسه بهذا اللون المهم من الدراسات التي تحتاج إلى معرفة بأمور كثيرة . وقد أجز في مجال دراسة وتدقيق الأنساب من ثلة من الأساتذة العراقيين المعروفين أمثال الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف والأستاذ سالم عبود اللوسي والأستاذ اللواء احمد خضر العباسي والأستاذ الإمام خليل الدليمي والأستاذ جمال الراوي ، ويفخر بأنه حضر دروس للعلماء الأعلام كل من الإمام العلامة عبد الكريم محمد المدرس - مفتي الديار العراقية - والعلامة الدكتور حسين علي محفوظ والعلامة الدكتور علي الوردي و العلامة الدكتور حسين أمين - والعلامة صالح احمد العلي والعلامة عبد الرزاق الحسني وغيرهم

كما أن لديه العديد من البحوث والدراسات والكتب . من كتبه المنشورة كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد مراجعة الأستاذ الشاعر فالح الحجية الكيلاني ، مكتبة المصطفى ، القاهرة ، 2009.

كتاب الإمام عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي - بغداد 2011 . وهو بالأصل رسالة باشراف الدكتور لقاء الطائي والدكتور رؤوف

وكتاب " بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي ، دراسة وتحقيق " ، تقديم الدكتور حسين أمين شيخ المؤرخين - نشر على نفقة السيد احمد الكيلاني ، الجزائر 2011 .

وكتاب " أصول التاريخ الإسلامي " ، مراجعة الدكتور حسين علي محفوظ (مخطوط) 1999 . وكتاب " تنقيحات دراسة تحليلية لنسب الإمام عبدالقادر الجيلاني " ، مراجعة الدكتور عبد القادر المعاضيدي (نشر محدود) منه نسخة محفوظة في المكتبة القادرية 1996.

وكتاب "دراسات في التاريخ الأوربي" ، تقديم الدكتوركمال مظهر احمد (معد للنشر) وكتاب ،الرحلات والرحالة في العصر العباسي : دراسة تاريخية وهو بالأصل أخروخته للدكتورة (معد للنشر) . وكتاب التاريخ العثماني تفسير جديد تقديم الدكتور عماد عبد السلام رؤوف وكتاب التاريخ الاسلامي رؤية معاصرة تقديم الدكتور صالح احمد العلي وكتاب الاستشراق وكتاب المدخل في تاريخ الفلسفة الاسلامية وغيرها . ومن بحوثه ودراساته :

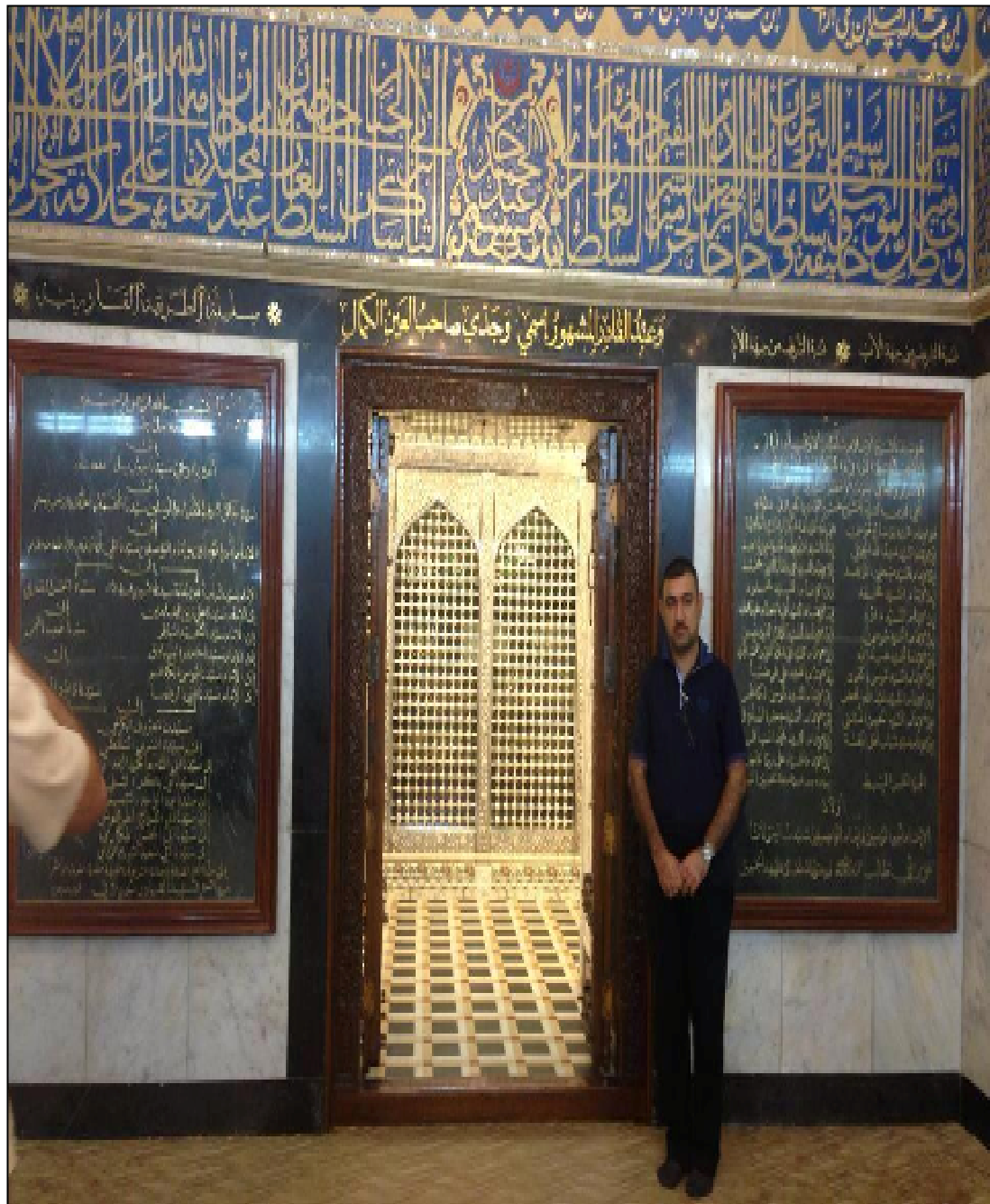
عرض كتاب الإمام عبد القادر الجيلاني - تفسير جديد في مجلة فكر حر 2009.
وعرض مخطوطة مهجة البهجة ومحجة اللهجة (كتاب) منشورة في جريدة الصباح 2005. ومقالة مصطفى جواد ومخطوطة نادرة عن الكيلاني جريدة الصباح 2006.
ومقالة رشيد عالي الكيلاني ابن ديالى المنشورة في جريدة العراق 2002. ومقالة المقدادية أصل التسمية المنشورة في جريدة العراق 2002.
ومقالة "الشرق الأوسط وأصل التسمية" المنشورة في مجلة كلية الاداب جامعة عين شمس 2009. ومقالة عن " براغماتية السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب "، مجلة فكر حر 2009.
مقالة عن "الإمام عبد القادر الكيلاني، جيلان العراق لا جيلان خبرستان، مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس 2009. وتفسير الجيلاني - دراسة في نسبة التفسير للمؤلف، مجلة رؤى 2010. و"المؤرخ هشام جعيط - دراسة في رؤيته للسيرة النبوية " ، مجلة رؤى 2010 .

هذا فضلا عن عشرات المقالات المنشورة على شبكة الانترنت وضمن مواقع كثيرة ومن الموضوعات التي كتبها موضوعات ،عن عصر الرسالة وعصور الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين والعصر الحديث والمعاصر والشخصيات العربية والإسلامية وبعض الشخصيات الغربية ،مثل مقالات تدور حول الإمام عبد القادر الجيلاني وذريته في العالم ،وأهمية ثورة الحسين في التاريخ العربي الإسلامي، و إبان بن عثمان المؤرخ المبكر، والإمام الغزالي، والإمام الرفاعي، والإمام أبو مدين، والإمام البخاري، والإمام ابن تيمية وقوميته، والشريف البعقوبي، الأمين والمأمون والميكافلية، والطريقة القادرية المبكرة ،و معنى الباز الاشهب، والتراث الصوفي - دراسة أولية والإمام أبو إدريس البعقوبي، والمغول، وجنكيز خان، وهولاكو خان، وتيمورلنك، والدولة الفاطمية وخلفاءها، وبغداد، وسمرقند، وكابل، ودلهي، والمقدادية أصل التسمية، والناصرية العراقية، والصويرة العراقية، والعززية العراقية، وال بابان، وال السعدون، ومحمد الفاتح ،وسليمان القانوني ،ومراد الرابع، وعبد الحميد

الثاني، والشرق الأوسط، والمكننا كارتا، وعبد القادر الجزائري، وجمال الدين الافغاني، وعبد الكريم قاسم، والحبوبي الشاعر والإمام، والسيد محمد باقر الصدر، والمؤرخ الدروبي وجهوده في تدوين تاريخ الأسرة القادرية في العهد العثماني، والرينسانس، ومترنيخ، وبسمارك، وهتلر، وميكافلي والميكافلية، وونستون تشرشل، وجان جاك روسو، والثورة الفرنسية، ولويس الرابع عشر، ولويس السادس عشر، وماري انطوانيت، ونابليون الأول، ونابليون الثالث، وقراءة في كتاب- لينين -خطوة إلى الإمام خطوتان إلى الوراء، وتلخيص كتاب قصة الفلسفة للمؤرخ ويل ديورانت، وتاج محل، والأزهر، والقرويين، وبدر شاكر السياب، و" الصراع السياسي والديني في اليمن قبل الإسلام -نجران نموذجاً . "درس التاريخ على أيدي العديد من أساتذة التاريخ في العراق منهم الأساتذة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف وكمال مظهر احمد وفاروق عمر، وعبدالرزاق الانباري وعبد القادر المعاضيدي وخاشع المعاضيدي وعبد القادر الشخيلي وجعفر عباس حميدي ويقظان سعدون العامر وحمدان الكبسي وقحطان عبد الستار الحديثي وهاشم يحيى املاح وعبد الامير العكام وصادق ياسين الحلو ومفيد كاصد الزيدي ومحمد احمد الشحاذ وعبد الامير دكسن وعبد الجبار ناجي وفاروق عباس وهيب وخضير الجميلي وخارق نافع الحمداني ومحمد جاسم المشهداني ومحمد يافر الحسيني ومزاحم علي عشيش البعاج وناهض عبدالرزاق القيسي ومحي هلال السرحان .

من آراء " أن التاريخ لايعرف اليوم والأمس والغد وإنما هو نهر الحياة يمضي الى الاجل المضروب الذي قدره علام الغيوب، فالتاريخ كله تاريخ معاصر، نعم له تقسيمات علمية، ولكنه يعيش معنا ويهمنا وعلينا أن نستفاد منه في حياتنا كلها ويستند في هذا الرأي على أن استقراء التاريخ خير من التجارب، وإن اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من عصور التاريخ أو بداية عصر آخر، يبدو، امرا بعيدا عن الحقيقة والواقع لان التطور التاريخي يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها ببعض، وإن وقائع التاريخ الكبرى عاثمات جليد خرفها ظاهر فوق الماء، وكثلتها الرئيسية تحت سطحه ومن يريد استكشافها عليه أن يغوص في الأعماق، والفرق بيننا وبين الغرب أننا نعيش في التاريخ فقط وهم يفهمونه ويستغلونه لتحقيق مصالحهم، والتاريخ هو خريق الإنسانية الى الحضارة، لأنه ضوء ينير الماضي لرؤية الحاضر والمستقبل، فجذور أنظمتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية، تمتد عميقا في تربة الأجيال الماضية. "

هذا وتم تنسيق الكتاب واعادة نظمه بجانب مرقد الغوث سيدي أبي مدين شعيب دفين تلمسان المحروسة الجزائر على يد العبد الفقير الحقير مورد العجز والتقصير أبو أويس نصرالدين أجدير التلمساني حقق الله له الأمان في دار التهاني



الباحث/ جمال الدين فالح الكيلاني في حضرة جده الباز الأئمة قدس الله سره ..